بلاغة الأمان

قراءات فى التحليل البلاغى للسنة النبوية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

فهمي ، خالد

بلاغة الأمان: قراءات في التحليل البلاغي للسنة النبوية / أ.د. خالد فهمي .

ط١ - القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١٨ .

١٨٤ص، ٢٤سم.

تدمك ٤ ٥١٥ ٣١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - السنة ٢ - البلاغة العربية

أ- العنوان ٢٣٠

تاريخ الإصدار: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

حقوق الطبع: محفوظة

الطبعة: الثانية

رقم الإيداع: ٤٠١٦/ ٢٠١٥م

الترقيم الدولي: ISBN: 978 – 977 – 316 – 515 – 4

الكود: ٢/٤١٣

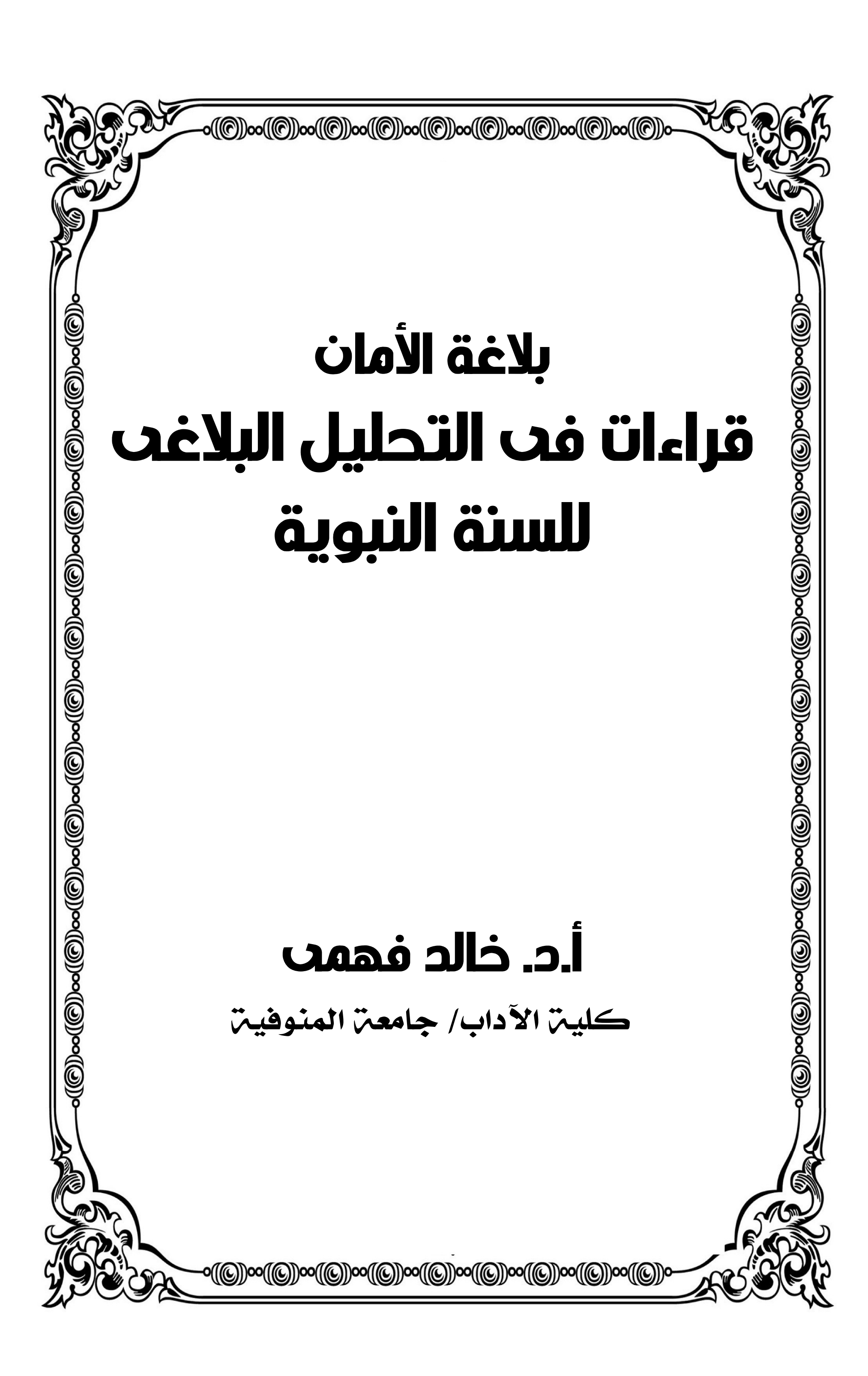


دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

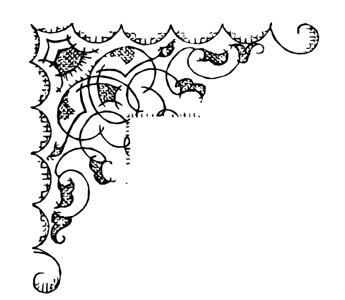
ت: ٢٣٩٢٩٨٧٨ - ٠١١٤٤٤٤٢٩٩٠ ف: ٢٣٩٢٩٨٧٨

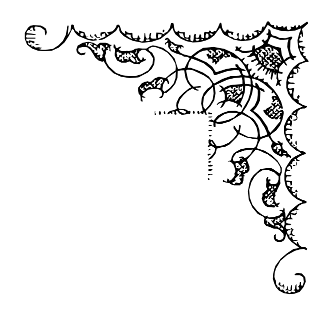
E-mail: darannshr@hotmail.com



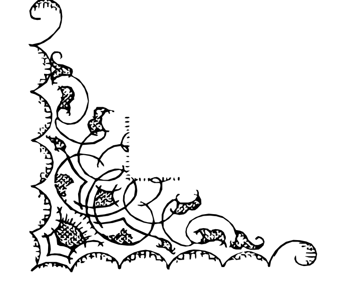
بلاغة الأمان
قراءات فى التحليل البلاغى للسنة النبوية

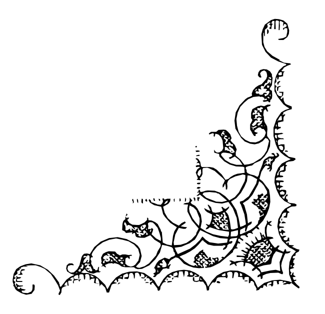
أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية






الله
بسم الله الرحمن الرحيم





المقدمة

"اللّٰهم لا تحرمنا السلامة إن منعتنا الغنيمة، ولا تحوجنا إلى منازلة خلقك فى إبطال باطل وتحقيق حق، وتولنا بالكفاية، واحرسنا بالعصمة، واغمرنا بالرحمة. اللّٰهم أنت مناط الهمة، ومنتهى البال، وصفاء النفس، وخلصان الروع، وولى النعمة فى الأولى والآخرة، نعوذ بك من أَجَل نزداد به إثمًا، ومن استدراج نكتسب به ظلمًا، ومن طاعة يشوبها رياء، ونعوذ بك من كل ما أبعد عنك، وأيأس منك" (١) وبعد:

فلم تزل السنة الشريفة نبعًا فياضًا لكل من طلب منها طلبته، فهى دليل الفقيه، يقيم على أعمدتها فقهه، وهى شاهده اللغوى، يؤسس على هديها قواعده، وهى شمس البلاغة تضىء له الطريق، وهى عماد من يروم بناء الحضارة؛ فهى مصدرها.

إن السنة نور غامر، سطع من قلب عامر أنطقه الوحى، وابتعد به عن مظان الهوى أو الغى. ويمثل الاتصال بها ركنًا لازمًا لكل دارس فى هذه الثقافة العربية الإسلامية. وهو أمر يلزم فى كل مسارات التجديد والإصلاح، التى تتطلبها الأمة فى مراحل وجودها، إن أرادت حياة نابضة حية فاعلة.

وقضية فحص السنة المشرفة، وتحليل نصوصها بلاغيًّا، أمر قديم فى المجال العلمى فى هذه الحضارة، وهو ما يزال مستمرًّا إلى يوم الناس هذا، استقل بالنظر فيها يسمى باسم

---

(١) من دعاء أبى حيان التوحيدى فى البصائر والذخائر (د. وداد القاضى ٧/٧)

وقد حرصت فى تحليلها على مجموعة من المسائل الأساسية، تمثلت فى:

أولًا: وضع عنوان لكل فصل يجمع ما تحته من أحاديث فى وحدة موضوعية، تقوم بعبء خدمته إجماليًّا.

ثانيًا: وضع عنوان لكل حديث يقرب العلاقة بينه وبين الفصل الذى انضوى تحته.

ثالثًا: افتتاح التحليل البلاغى بمقدمة قصيرة، كاشفة عن مقاصده وأغراضه.

رابعًا: تحليله بلاغيًّا؛ من أجل بيان الكنوز التى يضمها.

خامسًا: استقلال ما يمكن أن يستفاد منه فى خدمة الخطاب الدعوى المعاصر.

سادسًا: استقلال ما يمكن أن يستفاد منه فى خدمة الخطاب الحضارى المعاصر.

المجازات النبوية أو البلاغة النبوية أو البيان النبوى. وهو الاستقلال الذى يرعى تفرده ﷺ فى هذا الباب.

والعالم المعاصر فى معاناته القاسية فى حاجة إلى أن ييمم وجهه شطر السنة الشريفة؛ ليجد فيها الأنس من وحشة تلفه. ويجد فيها الأمان من خوف يريد أن يفترسه، ويقضى عليه.

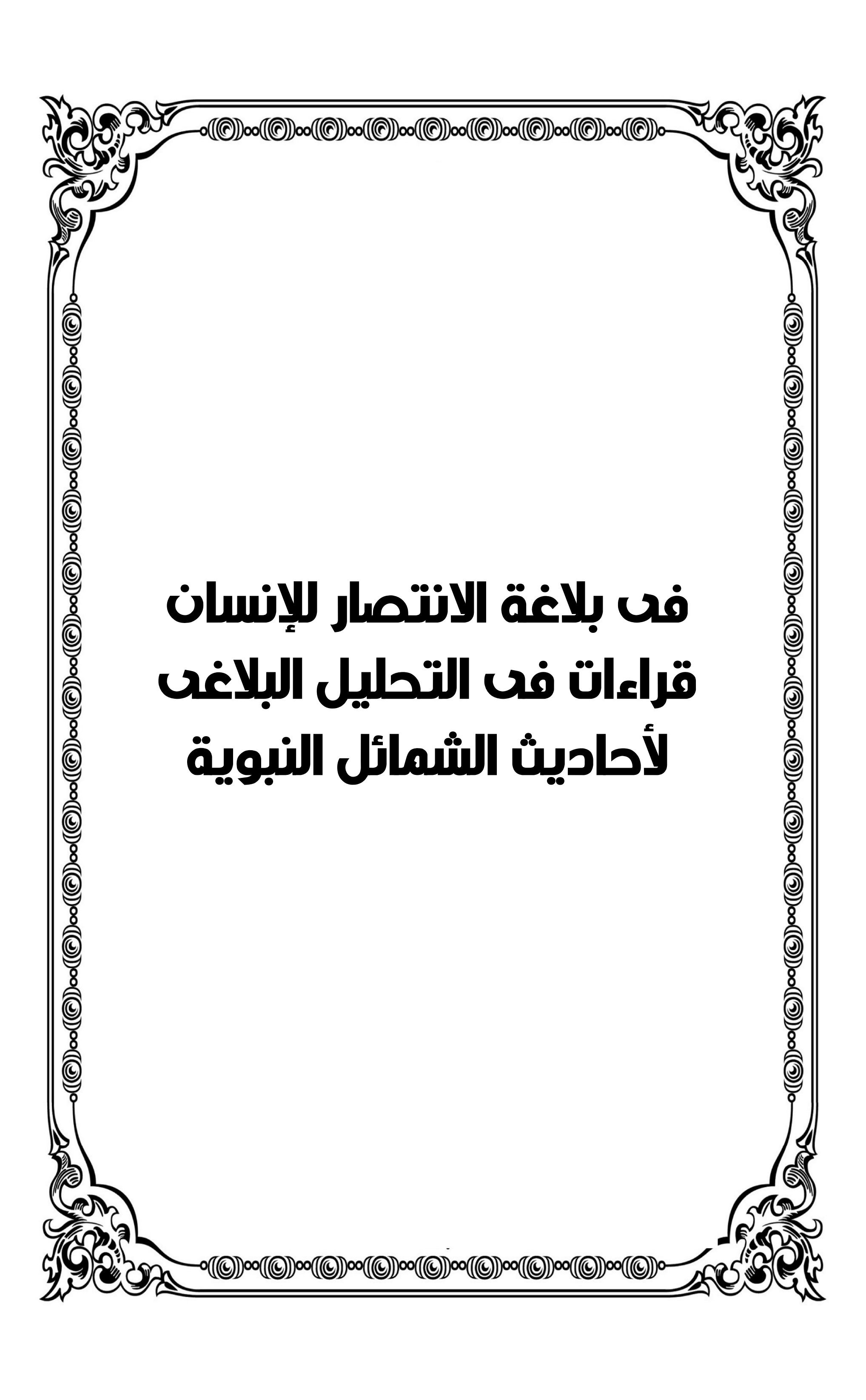
وقد اخترت عددًا من الأحاديث الشريفة، ووزعتها على عدد من الفصول، حكمتها غايات بعينها مما هو من مطالب العالم اليوم.

وقد كنت فى كل ما أوردت حريصًا على بيان أن البلاغة متممة لعمل المعجمى والنحوى معًا، وأن الفصل المعاصر بين هذه الميادين والمجالات لا ينهض على قدمين، ويلزمه التعاون لا التصارع.

وقد كنت حريصًا أيضًا على توثيق أية إشارة علمية، يمكن أن يحتاج إلى توثيقها، أو الاستزادة منها.

وإننى مدين بعد ذلك كله إلى عدد من الأصدقاء الذين شجعوا من جانب، وكانوا سببًا من جانب آخر فى استكمال السير فى هذه الطريق، فلهم منى جميعًا موفور التحية والإجلال.

خالد فهمى



فى بلاغة الانتصار للإنسان
قراءات فى التحليل البلاغى
لأحاديث الشمائل النبوية

الانتماء الزكى ركن الاصطفاء !

عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: **"أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ألا إن الله – عز وجل – خلق حلقه فجعلنى خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين فجعلنى من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلنى من خيرهم قبيلة، ثم جعله بيوتًا، فجعلنى من خيرهم بيتًا، وأنا خيركم بيتًا، وخيركم نفسًا"** (شمائل النبى ﷺ ص:٦ / حديث ١٠، طبعة جمعية الكنز الإسلامى سنة ١٤٢٥هـ).

إن المتأمل لمنهج القرآن الكريم فى بيان قواعد اصطفاء الأنبياء، يرى إلحاحه على مركزية الطهر فى هذه العملية الجليلة الخطيرة فى تاريخ الإنسانية؛ لأغراض كثيرة متشابكة، والحديث أصل فى بيان نسبه الشريف.

وهذا حديث تأسيسى فى هذا الباب؛ إذ يبدأ بجملة اسمية مثالية تامة، تخلص إلى المقصود من أصرح طريق، تقوم بعبء بيان انتمائه ﷺ .. بيان نسبه بمبتدأ هو (أنا)، وخبر هو (محمد بن عبدالله بن عبد المطلب)، وفيها نوع وفاء خفى بالانتساب إلى أبويه المباشرين الأوفيين (عبد الله / وعبد المطلب)، ونوع تكريم لهما بإعلان الانتساب لهما.

ثم جاء بجملة أخرى استفتاحية، وتستهدف التنبيه لجلال ما يأتى بعد (ألا) الاستفتاحية، والجملة الثانية اسمية كذلك مؤكدة بإن؛ دفعًا لأى ملمح من ملامح مواجهة حقائقها بأى نوع من أنواع الشك أو التردد، واسمها لفظ الجلالة (الله)، وفى استعماله له إشعار بأن الأمر أمر حكم واعتقاد فى المقام الأول، يلزم معه استعمال لفظ الدلالة على كونه المكلف سبحانه، وخبرها جملة فعلية فعلها ماض (خلق خلقه)؛ لتحقيق اليقين، وطلبًا لتوكيد القضية ودعمها؛ إذ الماضى فى برامج البلاغة العربية من تقنيات التحقيق والتوكيد، وصناعة اليقين فى المخبر عنه.

الحديث حفى بنوع إطناب جاءه من الحرص على استعمال محدداته، من مثل:

أولًا: التنويع فى العطف بالفاء وثم والواو.

ثانيًا: إيراد الكلام على التمام النحوى، فأركان كل جملة اسمية مذكورة.

ثالثًا: التوسع فى ذكر متعلقات الأفعال، وما يقيدها من المفاعيل.

رابعًا: التوسع فى استعمال التمييز فى (قبيلة / بيتًا / نفسًا).

خامسًا: التعريف بالإضافة تعيينًا.

سادسًا: استعمال حرف الجر الزائد (من).

وهذه الحفاوة بالإطناب جاءت متناسبة مع الغرض الكلى للحديث الشريف، الساعى نحو بيان نسبة الزكى، وبيان النسب نوع تعريف، والتعريف يستوفى غرضه بالإطالة والإطناب.

وفى الحديث كناية كلية عن تواضعه، تراها ظاهرة من الإلحاح على استعمال: ضميرى التكلم مفردين، وهما: أنا (مرتين)، فى: (أنا محمد / وأنا خيركم بيتًا)، وياء المتكلم (أربع مرات) وقعت مفعولًا لجعلنى فى كل مرة. وفى هذا التواضع دفع لتوهم الفخر، وقد كان من طبائع الجاهلية، وأغراض فنونها القولية، ودفعًا لتوهم إرادة المجاز بنوع عزيز من الجمل الإخبارية، بعدما شاع فى النحو العربى دفع توهم إرادة المجاز بالتوكيد المعنوى بالنفس والعين.

والحديث كله كناية عن طهارة أصله ﷺ، وشرفه السابغ، وتعالى مقامه فوق البشر جميعًا، بدليل هذه النسبة المرتفعة لاستعمال صيغة أفعل التفضيل الإطلاقية: خير فى تراكيب إضافية فى (خير خلقه / وخير الفرقتين / وخيرهم قبيلة / وخيرهم بيتًا / خيركم بيتًا / وخيركم نفسًا) ولا يعترض ذلك وجود (من) فى مثل: (فجعلنى من خيرهم)؛ إذ هى زائدة لتوكيد المسألة، ودليل زيادتها ظاهر جدًّا، فى ورودها مع الفعل المتعدى!

وفى الحديث نوع التفات، ينقل فيه من الغياب (فى: جعلنى من خيرهم)، إلى الخطاب (أنا خيركم)، وهذا الالتفات - فضلًا عما فيه من الجماليات العقلية التنشيطية - محقق لنوع استغراق عجيب لخيريته؛ لمقامات الغائبين والحاضرين، وفيه نوع استغراق عجيب للمساحات الزمنية المختلفة: الماضية والمستقبلة.

وفى الحديث نوع من حسن التقسيم، جاءه من التفضيل، والتتابع المتسلسل، من العام إلى الخاص فى (خلقه / فرقتين / قبائل / بيوت / نفس)! وقد حقق استغراق خيريته وانحصارها فيه وحده من دون غيره من البشر.

وفيه نوع تكرار داعم لقضية نسبه الزاكى الشريف، وفيه نوع لإيقاع داخلى جاءه الجناس (خلق خلقه / خلقه / فرقهم فرقتين / قبائل قبيلة / بيوتا بيتًا)، وبعض سجع، جاء من اتفاق نهايات بعض جمل الحديث، ومن تكرار الفعل (جعلنى) أربع مرات فى موضع ثابت، الذى صنع مرتكزًا، ساعد على تحصيل حقيقة الحديث الشريف.

إن الحديث بهذا الاكتناز البلاغى، يفتح الباب أمام حقيقة تأسس البلاغة للمعرفة، ويفتح الباب أمام حقيقة التنوع الأسلوبى فى تصميم نصوص السنة المشرفة، وانسجام ذلك مع تنوع الأغراض. لقد قدم الحديث نموذجًا فريدًا لبلاغة التعريف، وتصميم الحديث على التناهى فى خدمة قضية بيان النسب الشريف للنبى ﷺ، وهذه الإفاضة فى البيان جاءت أمرًا مقصودًا لخدمة قضية الإيمان به ﷺ؛ إذ لا إيمان بغير معرفته، وجاءت خادمة لقضية تعظيمه، ولا تعظيم يتحقق بغير الإفاضة فى بيان طهره، وجاءت خادمة لقضية محبته، والمحبة فرع من إدراك المحبوب والأنس بصفاته.

وفى الحديث علامات مهمة يمكن استثمارها دعويًا، من مثل:

أولًا: ضرورة تواضع الدعاة مع من يدعونهم، ويتواصلون معهم، وهو ما بدا من استعمال نوع ضمير للمتكلم مفرد.

ثانيًا: أهمية أن يكون الداعية معروفًا، من جهة خيريته، ونسبه، ومؤهلاته، وأن يعلن ذلك فى الناس؛ طلبًا للموثوقية فى خطابه الدعوى.

ثالثًا: ضرورة تدريب الناس على التفريق بين مقامات بيان حقائق ما يحوزون من مؤهلات، وبين مقامات الفخر والزهو.

وفى الحديث علامات مهمة يمكن استثمارها حضاريًا، من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى استعمال طرق تعرف الناس، وتمنع من مادة التشابه فيما بينهم؛ حماية لكرامهم، وصيانة لشرفائهم بالطرق المختلفة.

ثانيًا: ضرورة التوسع فى دراسات الأنساب، وبيان أهميتها فى الوعى بتاريخ الإسلام ورجاله العظام.

ثالثًا: استثمار المعرفة بأنواع البيوت والقبائل فى دعم قضايا التنمية والتربية، بتحفيز أصحاب الأنساب الشريفة على أداء حقوق هذه الأنساب إلى مجتمعاتهم، فى برامج الإرشاد، وسفراء النوايا الحسنة، والإصلاح بين المتخاصمين.

* * *

حقيقة عظمة النبى ﷺ

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **"أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أرسوا لواء الحمد - يومئذ - بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى، ولا فخر "** (شمائل النبى، ﷺ، ص: ١٣ حديث ٣١).

إن قضية الوعى بحقيقة عظمة النبى ﷺ، ووقور كرامته، ليست قضية إحاطة بتاريخ رجل، انتقل بالبشرية من خير إلى خير غير مسبوق، فى ما به قيام إنسانيتها، مع التسليم بصحة ذلك - ولكنها قضية ما به يتأسس إيمان المؤمنين، وما به تكون أسباب نجاتهم فى الآخرة.

والحديث أساس فى تكوين هذا البعد الإيمانى؛ إذ ينشئه من حيث لم يكن موجودًا، ومن أجل ذلك كان تصميمه من جمل اسمية خبرية، جاء جميعها مكونة من: مبتدأ (معرفة: ضمير / تركيب إضافي) + خبر (مفرد / معرفة بالإضافة/ شبه جملة)، وهذا نمط من الجملة يثبت حقيقة النظر إليه ﷺ، ويديم ناتجها الدلالى على امتداد الزمان فى الدنيا، بدليل انعدام القرائن الزمنية الماضية والحالية والمستقبلية فى الدنيا، بعضها خلو من قرائن الزمان عمومًا. وقد جاءت الجمل كذلك، لأنها تحمل حقيقة اعتقادية فى عظمته وكرامته ﷺ، وحقائق الاعتقاد وأصوله، ثوابت، لا يخرمها زمان!

والحديث لشبهة يمكن أن تحيط به، تتعلق بإمكان حمله على الفخر، والفخر مظنة التزيد فى المكارم - استعمل ضمير المتكلم للمفرد (أنا) أربع مرات، و(ياء المتكلم) مرتين، وفى ذلك نوع تواضع، يؤخر رتبة إرادة الفخر المتزيدة فى مادة الشعور به، واستعمل كذلك - لدفع الشبهة نفسها - جملة: (ولا فخر)، وهى جملة منفية بلا، التى لنفى الجنس، وخبرها محذوف؛ للعلم به، وحصوله فى اليد، وموقعها موقع الختام، قام

مقام التذييل المانع من ورود الأوهام على الأذهان، وتثبيت ناتج معنى الحديث، وحمله على الحقيقة، والحقيقة فقط.

والحديث نص صريح فى حيازته أنواعًا من الأوليات، فهو ﷺ أول الناس خروجًا يوم البعث، والمتكلم الأول بين رب الناس عند وفودهم عليه، وهو أول من ساق البشارة عند اشتداد الكرب. والأوليات فى الثقافة الإنسانية كناية عن رقى المكانة، وعلو المقام، وعظمة نفس من حازها، وما يزال حائز الأوليات موفور الكرامة فى المقامات المختلفة فى الثقافة المعاصرة.

وجاءت جملة: (لواء الحمد - يومئذ - بيدى) نصًّا صريحًا فى بيان حقيقة كرامته، بإيثاره بحمل لواء الحمد فى هذا اليوم الرهيب، وفيه نوع تعليل لما حازه من أوليات، فكأنه لما قدر حمله لواء الحمد، كان أول من مبعث، وأول من يخطب بين وفادة الناس على ربهم، وأول من يبشر عند اشتداد الكروب.

إن الحديث كله كناية تستعلن وتكشف عن عظمة النبى ﷺ، وكرامته على ربه، وفى جمله عن تشريفه - بتنويع أسمائه وكثرة الأسماء - دليل شرف المسمى بها، فمن أسمائه التى استنبطها القوم من مثل هذا الحديث: أول الناس خروجًا / الخطيب / المبشر / أكرم ولد آدم. وفى ذلك نوع كناية لطيفة خفية على شرفه وعلو مقامه. وقد حرص الحديث على إثبات هذه الكرامة الموفورة والامتداد بها على الزمان، فكان له ذلك بطريقين؛ الأول: تقييد الإخبار بزمان يوم القيامة، بجمل: إذا وفدوا، وإذا بعثوا، وإذا أيسوا؛ مما جعل حقائق كرامته ثابتة إلى حين قيام الساعة. والثانى: تقييد زمان حمل لواء الحمد بالظرف (يومئذ) - وفيه توسعة لزمان كرامته - لتشمل يوم القيامة أيضًا الأخير: إطلاق الإخبار بغير قيد من زمان، وهو ما نجده فى جملة: (أنا أكرم ولد آدم على ربى)، وبهذا يكون انفتاح زمان حيازة العظمة والكرامة فى الدنيا والآخرة، وبالإطلاق. وفى الحديث نوع عناية بالتعريف، تجده من استعمال: الضمائر / والتراكيب الإضافية، ومن مثل استعمال التمام النحوى فى الغالب، وهو أمر مناسب لطبيعة القضية التى يعرف بها الحديث، وقد جاء فى الحديث ثلاث جمل فعلية (بعثوا / وفدوا / أيسوا) الأولى فعلها متعد، قد بنيت للمجهول لنوع مناسبة لفظية؛ لتحقيق الانسجام الكمى مع جملتى (وفدوا / أيسوا) فى المقام الأول،

وفى الحديث نوع حسن تقسيم، ونوع سجع من اختتام ثلاث جمل (بالواو)، وجملتين بالياء، على ما بينهما من تقارب مشهور فى الدرب الصوتى للعربية.

والإطناب ظاهر العلامات متحقق بالعطف، والإضافة، وأشباه الجمل، والاعتراض، والإطناب مستحب فى سياقات الأنس بتعريف المحبوب لمن يحبونه.

الحديث بكامله نص صريح فى تأسيس حقيقة الكريم، وحقيقة ما به تأسست عظمته وكرامته على ربه. وهى حقيقة لازمة التحصيل لمن طلب الإيمان بربه، ومدخل لتعلق القلوب بالنور الذى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، ووسيلة لتكوين محبته، وانعقاد القلب عليها، ووسيلة فى الإقناع بمتابعته لأولياته المتوافرة ﷺ.

وفى الحديث عدد من الملامح الدعوية المهمة للخطاب المعاصر، من مثل:

أولًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بمنزلة النبى ﷺ، والتحذير من الاستهانة بمقامه؛ إذ بحيازة هذا المقام يتأسس الإيمان الكلى بالإسلام.

ثانيًا: ضرورة إقناع الجماهير بما كان من عظمة النبى ﷺ، وشرفه وكرامته على ربه، بالدليل الوارد فى النصوص، على الحقيقة لا على المجاز.

ثالثًا: أهمية البشارة فى تكوين خطاب المحبة للنبى ﷺ، والمحبة باب الاتباع الأوفى.

وفى الحديث نوع عناية يمكن استثمارها بعدد من الملامح الحضارية، من مثل:

أولًا: دعوة الأمة إلى أن تكون صاحبة أوليات؛ اقتداء بمقام رسولها ﷺ.

ثانيًا: الاتساع فى فنون القول، بدليل (أنا خطيبهم / إذا وفدوا)، والتوسع فى فنون الأداء.

ثالثًا: التوسع فى صيانة اللغة العربية، وتدريب أبناء هذه اللغة على جودة استعمالها.

رابعًا: التوسع فى تطبيقات تنظيم المجتمع، بوحى من: لواء الحمد بيدى.

* * *

فى فقه التيسير !

عن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: **"قام رجل فبال فى المسجد، فتناوله الناس. فقال لهم، رسول الله ﷺ: دعوه، وهريقوا على بوله سجلًا من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"** (شمائل النبى، ص ٥٩ / حديث ١٧١).

تمثل قضية استعادة الفهم الراقى لطبيعة التصور الإسلامى، أهمية بالغة؛ ولا سيما بعد زمان طويل من تشويه الشخصية المسلمة المعاصرة، بفعل هجمات الاحتلال المتوالية، وبفعل موجات التغريب المتتابعة، أسهمت فى صناعة حواجز مرعبة بين الأجيال المعاصرة، والفهم النقى لمواريث النبوة الرائعة.

وهذا الحديث فريد فى هذا الباب، ولم يكن غريبًا أن يترجم له تحت عناوين ظاهرة، تمثل يسر الإسلام، وعطفه على الإنسانية، وتجاوزه عما يبدر من الإنسان فى لحظات ضعفه الغريزية، ولم يكن غريبًا كذلك أن يترجم فى كتب الشمائل النبوية، تحت عنوان: قوة عقل النبى ﷺ ووفوره.

الحديث جاء استجابة لموقف عاين فيه رسول الله ﷺ نفرة قوم ضد رجل، استجاب لمطلب الغريزة، باستفراغ بوله، فكان منهم الانتصار للمقدسات، ممثلة فى المسجد بطهره وقدسيته ورمزيته، وهم على حق. لكنه انتصر للإنسان، واستجاب لما فى راحته وعدم أذاه، فصدهم ومنعهم من تناوله، أو التعرض له؛ بموجب ما ورد فى روايات أخرى من قوله: لا تزرموا بولته، أى: لا تمنعوه من التبول! رحمة، وصيانة لبدنه من احتباس ما عساه يضره.

وجملة الحديث الأولى إنشائية، مفتتحة بفعل الأمر: دعوه، وهو أمر للوجوب، وغرضه الشفقة به، وتقدير اضطراره، وعدم إيذائه بمنعه من التبول، وهى جملة قصيرة مع تمامها النحوى، وهو قصر ينسجم مع روح تحذيرية، تسرى فى أوصالها، وجاءت الجملة الثانية إنشائية، مبدوءة بفعل الأمر: هريقوا، أى: صبوا، وقد فسر شيئًا، ما سر أمره لهم بالامتناع عن الرجل؛ إذ لفعلته علاج يذهب بآثارها، وقد طال الكلام فى هذه الجملة؛ بسبب من أمرين، هما:

أ- ذكر متعلقات الفعل، متمثلة فى شبه الجملة (على بوله).

ب- ذكر ما يتقيد به الفعل، وهو المفعول به، وما تعلق به من شبه الجملة.

وفى استعمال (السجل / والذنوب)، وهما نوعا دلو، الأولى للممتلئة، والثانية لما دون الامتلاء نكرتين، مقصود، يرمى إلى عدم التعيين، مقررًا أن أية كمية كبيرة أو دون الكبيرة، نافعة لمحو أثر بول الرجل، وجاءت "أو" للتنويع لا للتخيير. واستعمل شبه الجملة "من ماء" مرتين لتوكيد البيان، وزيادة، والاتساع فيه؛ ذلك أن السجل والذنوب لا يسميان سجلًا وذنوبًا إلا وهما مملوءتان ماءً، امتلاءً تامًّا أو دون التمام، ولكن أعقبا بشبه الجملة: "من ماء"؛ زيادة فى البيان.

ثم ختم الحديث بجملة طويلة، صنعها العطف، وظهر فيها القصر بإنما، وهو قصر حقيقى، لخص طبيعة الإسلام فى التيسير، والسماحة، والانتصار للإنسانية، وجاء الفعل "بعثتم" ماضيًا؛ لتوكيد حقيقة التيسير فى هذا الدين العظيم.

الحديث كله كناية عن رحمة النبى ﷺ بالخلق، وكناية عن العطف على الإنسانية.

وفى الحديث نوع وضوح وسلاسة تناسب الموقف، جاءه من طبيعة المعجم المستعمل، وطبيعة التراكيب النحوية كذلك.

وفيه نوع جناس ناقص، جاءه من تنويع استعمال: بعثتم / بعثوا، ونوع سجع جاءه من: ميسرين / معسرين. وفيه طباق بينهما، وآخر سلبى بين: بعثتم / ولم تبعثوا، ومقابلة بين الجملتين: بعثتم ميسرين / ولم تبعثوا معسرين.

وجملة القصر الختامية جاءت تذييلًا صنع تعليلًا، لما أمر به فى افتتاح الحديث لها أيضًا. وصممت الجملتان على البناء للمجهول؛ لتحقيق دلالات متنوعة، ترمى إلى الخلوص إلى المقصود من أسرع طريق، وحذف الفاعل للعلم به؛ إذ المقام مقام خطاب للمؤمنين، وهم يعلمون من الباعث سبحانه. وفى الجملتين نوع التفات من الخطاب فى: بعثتم، والغياب فى: لم تبعثوا؛ للاتساع فى استيعاب المقصودين، ممن أقاموا معه ﷺ، وممن يأتون بعده، ويؤمنون برسالته. وفى التنويع فى استعمال الماضى فى: بعثتم، والمضارع فى: لم

تبعثوا، نوع تحقيق لاستغراق الزمان، وشموله للحقيقة، وامتدادها من زمنه ﷺ إلى كل زمان بعده.

إن البلاغة التى تلوح من وراء كل كلمة وكل جملة وكل تقنية، تفجر حقائق وتثبتها، من نوع: استقرار حقيقة يسر الإسلام، وحقيقة كونه ﷺ رحمة للخلق، وشفقته بهم، وحقيقة تقدم تقدير الإنسان على غيره من الأشياء والمخلوقات. لقد أظهر الحديث نوع رعاية للإنسانية عجيبة، وفهم يضرب فى السمو والرقى بسهم وافر بدرجة مذهلة. صلى الله على محمد ﷺ.

وتلوح من جمل الحديث مجموعة من العلامات الدعوية، من مثل:

أولًا: ضرورة تنبه الخطاب الدعوى إلى استعادة الفهم النبوى الصحيح، فى معالجة الموضوعات المعاصرة.

ثانيًا: أهمية التنبه إلى استحضار المواقف العملية من السيرة، واعتمادها سبيلًا للإقناع والتربية.

ثالثًا: التركيز على الأخلاق الاجتماعية، التى تترافق بالخلق، واتخاذ منهجية التعليم أساسًا فى الدعوة.

وفى الحديث كذلك بعض ما يمكن استثمارها حضاريا من مثل:

أولًا: ضرورة الاتساع فى إنشاء الحمامات العامة ودورات المياه، فى مظان ورود الناس، وأماكن تجمعهم، وازدحامهم.

ثانيًا: ضرورة الاتساع فى تطبيقات استعمال المياه، فى النظافة العامة، وعمليات الطهارة والعلاج.

ثالثًا: ضرورة التوسع فى بحوث تنقية المياه التى سبق استعمالها، وتدويرها بعد التخلص من أسباب تلوثها، وفصل المواد الثقيلة منها.

* * *

الرفق بالخلق حاكم على العبادة !

عن أنس بن مالك قال: قال النبى ﷺ: **"إنى لأدخل فى الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى؛ مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه"** (شمائل النبى، ﷺ، ص: ٨٦ حديث ٢٨٥).

لعل أظهر ما ينكشف للمتأمل لطبيعة الإسلام، هو جوده العجيب بما لا يحصى من علامات التيسير والرفق والرحمة، حتى استقر وصف المصطفى ﷺ بأنه رحمة للعالمين. وربما صح من طرف آخر، الإقرار بأن الرفق بالخلق والرحمة بهم، حاكم على العبادات حقيقة لا مجازًا.

وهذا الحديث شاهد على ما نقرره، فقد بدأ بجملة خبرية مؤكدة بأن؛ توسلًا لحملها على الجد والحقيقة، وهى جملة: إن + ى + ل التوكيد + أدخل فى الصلاة (خبر إن)، النبى ﷺ هنا إمام يملك البيان والبلاغ والتشريع؛ مما يعنى ضرورة اتباعه فى مسلكه الرحيم بالخلق، وجاءت جملة خبر إن فعلية فعلها مضارع؛ للدلالة على التجدد؛ مما يعنى أنه كان سلوكًا متجددًا منه، وهى جملة تعين على استحضار الموقف وتمثله، وجاءت جملة الحال: وأنا أريد إطالتها، داعمة لسلوك الرحمة بالصغير وأمه، وهما من أعلى، ما يمثل مناطق الضعف الإنسانى، ولمن يحتاجون لها أخلاق الرعاية، وهو ما يعنى تحوله ﷺ بعد إذ عزم إطالة الصلاة إلى تخفيفها، مما يعنى أن فعل التخفيف أقرب لله تعالى من فعل إطالة الصلاة، وهذا نوع فقه عزيز مراد، يرجى انتشاره فى الأمة.

والملاحظ أن جمل الحديث جميعًا جمل خبرية؛ لأن المقام مقام تشريع، يرسى قيم الإنسانية النبيلة.

وفى الحديث نوع حفاوة بالإطناب تجده فى:

١- استعمال إن ولام التوكيد فى الجملة الأولى: إنى لأدخل.

٢- استعمال أشباه الجمل مذكورة مع أفعالها، متممة لمعانيها، بما هى من متعلقاتها، فى مثل: أدخل فى الصلاة / أتجوز فى صلاتى / من بكائه.

٣- استعمال جملة الحال: وأنا أريد إطالتها.

٤- العطف بالفاء تعيينًا؛ للدلالة على سرعة استجابته لما يحقق التخفيف عن الصغير وأمه.

وفى الحديث نوع تواضع، دال على رفقه ورحمته ﷺ، تجده فى استعمال الضمير المتكلم للمفرد: أنا / والياء.

والحديث حريص على استعمال الأفعال جميعًا مضارعة (أدخل / أريد / وأسمع / وأتجوز / وأعلم)، والمضارع مسكون بدلالات مهمة فى هذا الباب، أظهرها: التجدد والاستمرار، وهو ما يعنى أن مطلب التخفيف على الضعاف، استجابة لضعف الإنسان ابتداء وانتهاءً.

والحديث حفى بالتعريف من طرق متنوعة:

١- حفى بالتعريف بال؛ طلبًا للعموم والاستغراق فى الصلاة؛ حملًا للناس على أن مطلب التخفيف قرين أى صلاة أو أى عبادة.

٢- وحفى بالتعريف بالإضافة فى: (إطالتها، وبكاء الصبى / وصلاتى / ومن شدة وجد أمه / ومن بكائه)، وهو ما يحمل على الوعى اللازم عند الصلاة، والتنبه لمقامات رعاية الضعاف (وليدًا / وأمهات) فى أثناء إتيانها.

٣- وحفى بالتعريف باستعمال الضمائر فى: أنا (الظاهر مرتين) (والمستتر خمس مرات)، والياء (مرتين)، وهو أمر يحمل على تنزيل سلوكه ﷺ منزلة الأوامر الشرعية الواجبة؛ لأنه النبى المبلغ عن ربه ﷺ. وفى: ها (مرة) والهاء (مرتين)، واستعمال ضمائر الغياب، توسع المراد، وتعمم الأفراد حضورًا وغير حضور، وهو ما يعنى أن هذا الخلق ثابت مستمر، من دون الارتباط بأعيان كانت حاضرة فى الموقف القديم.

٤- وفى الحديث نوع استثمار مهم لنوع من خصائص نصوص الأحكام، وهو استصحاب التعليل، وهو ما نلحظه من استعمال شبه الجملة: مما أعلم، فمن سببية،

واستعمالها هنا مفسر كاشف عن سر تحول النبى من قرار إطالة الصلاة إلى قرار تخفيفها؛ طردًا لتمزق الوجدان، ومحاصرة لأحزان الأم على وليدها، ورحمة بها وبه.

٥- وفى الحديث كنايات ظاهرة، فهو كله كناية عن رحمته ورفقه ﷺ، وفيه كناية إرادة محاصرة الأحزان والمتاعب، وفيه كناية عن إرادة تحقيق انسجام النفس، وعدم توترها وتمزقها، وفيه كناية عن طلب البهجة وقرار النفس، وفى الحديث نوع طباق بين إطالتها / وأتجوز، ونوع سجع خفى بين فى الصلاة وفى صلاتى.

إن هذا الحديث الوارد فى شمائله ﷺ عنوان على باب عريض، يكاد يغطى الشريعة كلها.

وفى الحديث علامات يمكن استثمارها دعويًا من مثل:

أولًا: ضرورة التنبه لمقام الأخلاق فى الخطاب الدعوى المعاصر.

ثانيًا: ضرورة التنبه إلى مقاصد العبادات، وتحكيم هذه المقاصد فى الفتوى المتعلقة بها.

ثالثًا: تكرار العناية بالفقه الخادم للمعانى الإنسانية الرحيمة المترفقة المتسامحة، والتنبيه لحق المرأة فى ارتياد المساجد والأماكن العامة، وتهيئتها لتناسب طبيعتها.

وفى الحديث عدد من العلامات التى يمكن استثمارها حضاريًا:

أولًا: جمع الأدلة الشرعية من سيرة النبى وشمائله ﷺ؛ لضبط الكتابة فى الموضوعات التى تعرف العالم بالإسلام.

ثانيًا: ضرورة التوسع فى خدمة العوامل المانعة من التوتر وعدم الانسجام، فى الأوساط الإنسانية المختلفة.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب فى تطبيقات العناية بقضايا الأمومة والطفولة تعيينًا، والتوسع فيها فى جوانب الحياة المختلفة.

***

الفحش مع الناس باب الورود على النار !

عن عائشة، رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: قال: رسول الله ﷺ: **"يا عائشة متى عهدتنى فحاشًا؛ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره"** (شمائل النبى ﷺ، ص:١٠٧ حديث ٣٧٥).

لقد مثلت المنظومة الأخلاقية واحدًا من أهم ما ميز الإسلام العظيم، لدرجة أن كثيرًا جدًّا من النصوص أوحت بقصر وظيفة النبى الكريم ﷺ، فى إتمام الأخلاق، والفضائل، ورتبت الشريعة على حسن الخلق ما لم ترتبه على غيره.

وهذا الحديث العجيب رأس فى هذا الباب، وهو يجمع بين الأسلوب الإنشائى فى جملته الأولى، والأسلوب الخبرى فى جملته الثانية، وهذا التنويع داعم لخطر قضيته؛ إذ يتأتى إليها من الطرق المختلفة.

بدأ الحديث بجملة نداء لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، مكونة من: يا (حرف نداء) + منادى، مشعر بإرادة التعليم، والتنبه إلى جلائل الأمور، وجاءت الجملة على التمام النحوى؛ لأن النص يعالج قضية مهمة، يخلص إلى خدمتها من أصرح طريق وأوضحه، وجملة: متى عهدتنى فحاشًا؟ جملة إنشائية تردها إلى مقام الإنكار، واستعملت الجملة الاستفهامية الفعل الماضى؛ لتوسيع الزمان؛ ليفتح لها مجال استدعاء حادثات الزمان؛ لتعينها ذلك على الجواب المفضى إلى إنكار أن يقع منه ﷺ نوع فحش، واستعمال الفعل "عهدتنى" يحمل فى دلالته ما يشير إلى توكيد نفى الفحش عنه، بردها إلى ما لا يطلع عليه غيرها من شأن خلقه وتصرفه ﷺ، ويدعم ذلك استعمال المفعول به ضمير المتكلم المفرد (الياء)، الدال على الإخبات لله تعالى، والتواضع للناس.

واستعمل الحديث صيغة: فحاشًا وهو من الصيغ الشائعة السماعية، أى: متى عهدتنى صاحب فحش، ولا يمكن أن يسبق إلى الخاطر أنها من صيغ المبالغة، معاذ الله تعالى. والنفى المحقق بهذه الجملة الإنشائية يشمل فحش الأقوال والأفعال جميعًا، ولا يصح لأحد أن يعزب فيتصور الفحش سوء خلق أو سوء فعل؛ ذلك أن اللغة تسمى الغلظة فى

الجواب فحشًا، وهو ما يعنى أن النبى ﷺ ينفى عنه غلظة الاستقبال والجواب وما فوقهما!

ثم جاءت جملة جواب النداء خبرية صريحة حاسمة، فى دعم ما تقرره جملة المفتتح، وهى مكونة من: إن + اسمها (شر الناس) + وخبرها عام (من تركه الناس).

وقد جاءت مؤكدة بإن؛ دفعًا لتوهم حملها على مجاز الترهيب فقط، فهى ترهيب مختلط بحكم واقع فى حق من صدق فيه.

والجملة جمعت عناصر الإطالة من أكثر من باب .. خلوص الوضوح التام المتعانق، مع خطر القضية، والحكم الذى تذيعه بين الناس، وقد تحققت الإطالة بما يلى:

١- استعمال اسم إن معرفًا بالإضافة (شر (مضاف) + الناس (مضاف إليه).

٢- استعمال معمول أفعل التفضيل (شر)، وهو منزلة؛ تمييزًا لها.

٣- استعمال متعلقات (شر)، وهى شبه جملة: عند الله / وشبه جملة: يوم القيامة.

٤- استعمال الخبر اسم موصول (يلزمه جملة الصلة): تركه الناس.

٥- استعمال مقيد من مقيدات الفعل: ترك، وهو المفعول لأجله (اتقاء شره) معرفًا بالإضافة.

وفى الحديث نوع تقديم وتأخير؛ إذ تأخر معمول أفعل التفضيل، وهو التمييز (منزلة)؛ ليقع بعد شبه الجملة (عند الله)، وهو التقديم الذى بالغ فى التشنيع من أمر الفحش؛ بسبب من كونه عند الله تعالى. وهو سمت كلام موصول النسب بالكتاب العزيز فى أمثال هذه المواطن، يقول تعالى: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾[التحريم:١١]، فقد قدمت امرأة فرعون على كلامها طلب الجوار على تعيين المطلوب فى الجنان.

ومما أعلى من خطر القضية ورود التعليل للحكم ببنية نحوية صريحة فى التعليل، هى استعمال المفعول لأجله (اتقاء شره).

إن الحديث كله كناية تدفع إلى حسن الخلق، وتجنب الفحش، وهو يستهدف النهى عن التفحش والفحش معًا، أى: لا تفحشوا ولا تكونوا من شرار الناس، وقد خدم الحديث الأمة ساعة حذرها من مآلات العذاب بسبب سوء الخلق، فكأنه ترفق بها إذ نبهها وحذرها.

وفى الجملتين نوع مراوحة بين إيقاعين؛ **أحدهما:** بطىء فى الجملة الأولى: متى عهدتنى فحاشًا بسبب من المدود، التى تحقق نوع بطء، يعين على الاسترجاع واستدعاء حادثات الماضى؛ لتخلص منها إلى توكيد نفى الأمر عنه.

وثانيهما: سريع التحصيل، مضمون الجملة جميعًا؛ بسبب من خطره وجلاله، وقد أسهم فى صناعة المدى الزمنى الممتد فى الجملة الأولى، استعمال الفعل الماضى كذلك، الذى يلزمه استحضار زمان طويل للحكم على ما وقع فيه من أحداث، هى مناط استخراج الحكم، بإنكار كونه ﷺ صاحب فحش.

وأسهم فى صناعة المدى الزمنى القصير فى الجملة الأخيرة، تصميم الجملة اسمية خبرها عام، والعموم هنا محقق لسرعة تصديق الحكم؛ لشموله الأفراد جميعًا.

الحديث دليل إضافى على المنزلة الكبرى لحسن الخلق فى الإسلام العظيم.

وفى الحديث عدد من الملامح التى يمكن توظيفها دعويًا من مثل:

أولًا: أهمية توجيه نظر الدعاة المعاصرين إلى منزلة حسن الخلق، وعوائده على الأمة، وأثره فى خواتيم الناس يوم القيامة.

ثانيًا: ضرورة استصحاب الوضوح فى التعبير عن القضايا الأخيرة، وهو ما يلزم معه استعمال:

١- معجم واضح وألفاظ غير مستغربة.

٢- تراكيب نحوية تامة.

٣- الاحتفاء بطول الكلام؛ توصلًا للتفهيم.

ثالثًا: أهمية التنويع فى الخطاب؛ تحقيقًا لطرد الملل، وطلبًا لنشاط ذهن جماهير المدعوين.

وفى الحديث أيضًا عدد من الملامح التى يمكن توظيفها حضاريًّا، من مثل:

أولًا: يفتح الحديث الباب أمام التنبه إلى قيمة التاريخ، فى الحكم على الأفراد والأحداث، هو ما يلزم استصحابه فى التعليم، والتقاضى، والطب، والعلاقات الأسرية الجديدة، وتكوين الشركات ... إلخ.

ثانيًا: الحديث يفتح الباب أمام تأمل النصوص النفسية العالية، فى ضوء برامج النقد القصصى، ومحاكمة هذه البرامج إليها، فقد كشف التنويع فى الحديث بين نوعين من أنواع المدى الزمنى.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام إعادة الاعتبار للتعليم عن قرب، ومجموعات التعليم المصغرة، وضرورة اختلاط المعلم بالمتعلمين، فضلًا عن استصحاب التعليل، والحرص على الإقناع.

***

من علامات السقوط الحضارى

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبى ﷺ، فقال: **"من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها"**. ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: **"من حرق هذه؟"** قلنا: نحن، قال: **"إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار"** (شمائل النبى ﷺ ص: ١٠٠ حديث ٣٥٦).

إن أعلى ما استقر فى النظر إلى الإسلام ماثل فى هذه الرحمة السابقة التى كفلها للعالمين، وقد جاء النص الواضح الصريح، الذى يعلن أن رسول الله ﷺ كان رحمة عامة، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وهذا حديث يقوم دليلًا شارحًا موضحًا لما ورد فى الذكر الحكيم، فى شأن رحمته ﷺ، والحديث يتذرع بالسرد والحكى، والحكى مؤنس للنفس، مناسب لطبيعتها. يبدأ بحكاية الحال التى كانوا عليها بجملة خبرية طويلة، جاء طولها من استعمال العطف بالفاء فى كل أجزائها، للترتيب والتعقيب، وفى ذلك نوع دلالة خلطته ﷺ بصحبه، وفزعهم إليه، ونجدته لهم فيما يمر بهم ويحزبهم.

وفى العطف كذلك نوع بيان للمدى الزمنى القصير الذى استجاب فيه للفرخ؛ رحمة به، وتقديرًا لفزعه، وسرعة فى بعث الاطمئنان إلى نفسه، بالأمر برد ولده إليه، واستعمل الحديث فى جزئه الأولى جملًا قصيرة؛ لأنها تمهيد لما هو المقصود، وما هو كلام النبى ﷺ، وموقفه، وهو بعض ما يفسره الركون إلى استعمال النكران فى مثل: كنا فى سفر / فرأينا حمرة / معها فرخان، وإيثار استعمال الجمل الفعلية دال على الحركة، ومعين على تحقيق استحضار الموثق، وتمثله، وهو ما نراه فى: فانطلق / فرأينا / فأخذنا / فجاءت / فجعلت تفرش.

والجزء الأصيل من النص - الذى هو كلام النبى ﷺ - مكون من جمل إنشائية؛ الأولى استفهامية: من فجع هذه بولدها؟ والثانية أمرية: ردوا ولدها إليها، ولسؤال يطلب جوابا، لتوصل منه إلى أمره برد الولد، وإنكارى؛ بدليل استعمال فصل ذى دلالة غير محايدة، وهو: فجع، والفجيعة معينة على استخلاص معنى الإنكار؛ لأنها الرزية الموجعة، وفى استعمال: (هذه) يوحى بحضورها الموقف، وهو ما يعنى نوع كناية عن شفقته بها؛ بسبب من سرعة قضاء حاجتها.

والجملة الأمرية: طلب حتمى لم يلابسه ما يصرفه إلى الندب، وفيه خلوص عجيب إلى المقصود فى سرعة وتركيز لخطر القضية، وحسمًا لمادة الألم الذى تملكها وسيطر عليها، ثم عاد فاستعمل الجملة الاستفهامية: من حرق هذه؟ وهو إنشاء أيضًا يطلب جوابًا، والإنكار فيه أقل مما كان فى قبله، للفراغ من الأمر، ولعدم وجود ألم قائم فى النفس، كما كان قائمًا فى العصفور أو الحمرة، ثم جاءت الجملة الأخيرة خبرية مؤكدة بإن: (إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار)، وهى جملة خبرية غرضها التحريم والنهى، والتشديد فيه، وفيه النهى المتجدد، بدليل استعمال الفعل: يعذب، وجاء الاستثناء المفرغ محققًا لنوع قصر حقيقى، غرضه تأكيد حكم النهى، والاتقاء بدرجة التحريم؛ لأنه سيكون منازعة لله سبحانه فى بعض ما اختص نفسه به.

الحديث كله كناية بالغة الوضوح عن رحمته وشفقته ورأفته بالخلق، تذرع إليها بإظهار شفقته على العصفور، وما دون العصفور من النمل، بالنهى الصريح عن إيذائها، أو إيلامها، بأى نوع من أنواع الإيلام أو الإيذاء، وفيه كناية عن تشديد النهى فيما يتعلق بالإنسان؛ إذ النهى عن الأذى يحمل نهيًا أشد عما فوقه بالضرورة فى اللسان العربى.

إن تصميم النص الشريف يظهر نوع حسم عجيب، تراه فى قصر الجمل، سؤالًا وأمرًا، يحمل على استشعار غضبته ﷺ لما بدر منهم بإيذاء الحمرة أو النمل، حتى إن لم ينتظر جوابًا على سؤاله: من فجع هذه بولدها؟ فى إشارة إلى أنه قصد إلى أنه ما كان لأحد أن يفجعها بولدها. وهو بعض ما يحققه إيثار تعريفها بهذه، وبالضمير الغائب: ها، وفى تعريفها نوع عناية بها.

وفيه تكرار مقصود، تراه فى: بولدها / ولدها، وتراه فى: النار / رب النار / وهو تكرار يصنع عمادًا يثبت قضية الحديث، ويعين على استرجاع حقائقها.

وفى الحديث نوع إيثار للأصوات المجهورة ذات القمة الإسماعية المرتفعة؛ لتصنع نوع تحذير من هذه الأفعال، ولا سيما أصوات: الجيم، والدال، والذال، والراء والعين وغيرها، وهو ما نلحظه فى: فجع / ولدها / ردوا / يعذب / النار.

إن هذا الحديث العجيب يفتح الباب واسعًا أمام إعادة فحص شمائله ﷺ، واستلهامها فى الواقع المعاصرة، فى المناحى التشريعية والتربوية والاجتماعية تعيينًا.

وهو قادر مع غيره - إن أحسن استثماره - أن يعيد الوجه المشرق لحضارتنا، بعد أن طمس نوره وبهاءه الظلام القادم من بعيد - صلى الله على صاحب الشمائل الميمونة المباركة ﷺ.

وفى الحديث عدد من العلامات المهمة فى الإطار الدعوى، من مثل:

أولًا: ضرورة إعادة الاعتبار لقيم التراحم فى الخطاب الدعوى المعاصر، والاهتمام به، ومنحه مساحة معتبرة.

ثانيًا: ضرورة توسيع أفق الخطاب الدعوى، ليشمل جنبات الحياة جميعًا، بشرًا وغير بشر.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام أهمية تفقد الدعاة لأحوال المدعوين، وتقييم سلوكهم، ومعايشتهم، والكلام فيما يعانونه، ويمرون به فى حياتهم.

وفى الحديث عدد ظاهر من العلامات المهمة فى الإطار الحضارى، بما أن السنة المطهرة مصدر بالغ الثراء من الناحية الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى برامج حماية الحيوان، وتطبيقاتها المعاصرة.

ثانيًا: ضرورة التحول من التخلص من الحشرات، إلى إيجاد نسق ينتفع بها اقتصاديًّا، بدلًا من تحريقها، أو التخلص منها بالمبيدات الحشرية الملوثة للبيئة، والضارة بالإنسان.

ثالثًا: الحديث يفتح المجال أمام دراسة البيئة العربية، وطيورها وأنواعها، وقيمتها البيئية والاقتصادية.

***

الانتصار للمظلومين

عن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"اللّٰهم إنى أتخذ عندك عهدًا لن تخلفينه، فإنما أنا بشر، فأى المؤمنين آذيته؛ شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة، وزكاة، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة"** (تحفة البرار، للقاضى عياض، شرح مصابيح السنة للبغوى ٧/٢، كتاب الدعوات، حديث ٤٤٧-١٥٩٠).

هذا حديث من الأحاديث المصابيح، التى تنير الطريق نحو إرادة تخليص الحياة من الشرور، وصنوف الإيذاء، وأنواع الإرهاق، التى يمكن أن تصيب نفرًا من الناس؛ بسبب من رتبهم المتأخرة فى الطبقات الاجتماعية.

وهو حديث إمام يهدى إلى مراجعة كل مسئول أو قائد أو راع، لمسيرة سلوكه مع من هو مسئول عنهم، أو قائد عليهم أو راعية لهم.

والحديث - وهو يسعى نحو تحقيق غاياته - يعتمد عددًا من الإجراءات البلاغية المتنوعة، والبلاغة منشئة للمعرفة، تقوم على تسويغها، والإقناع بها، مع رعاية لمقامات المنفعة والمتعة الجمالية معًا.

الحديث مفتتح بأسلوب إنشائى طلبى، مكون من جملة نداء، مبدوءة بمنادى محذوف الأداة؛ إسراعًا نحو الإقبال عليه سبحانه، واستعمال صيغة: اللّٰهم، وهى صيغة قديمة جدًّا بشهادة الفيلولوجيا العربية، وهو أمر مقصود منه الوصول إلى المتلقى بما هو معهود عنده جلالة وقدسية.

والحديث بارع فى التنويع فى مطلوبه ودعائه؛ إجمالًا وتفصيلًا؛ قبضًا لمناسبة مقام الهيبة، وسطًا لمناسبة مقام الحب والأنس فى جناب الله تعالى.

والحديث يدخل إلى مطلوبه باستعمال جملة خبرية مؤكدة بإن، وهى جملة: إنى أتخذ عندك عهدًا، وغرضه منها الدعاء والإلحاح على الله تعالى.

والحديث – وهو نص من نصوص باب واسع من فن المناجاة والدعاء – حريص على إظهار الضعف والانكسار والتواضع فى مواجهة السماء المتعالية، وهو ما يفسر سر انتشار ضمائر المتكلم فى: (إنى / أتخذ (أنا) / تخلفنيه / أي بشر آذيته / شتمته / لعنته / جلدته).

والحديث مثال فريد لتصميم أحاديث الدعاء والإقبال على الله؛ بما فيه من الافتتاح بجملة تقوم مقام التمهيد، بإظهار الضعف والعذر بين يديه، وهو الأمر الذى تصنعه جملة: إنما أنا بشر، بما فيها من حصر وقصر؛ لدعم أصول البشرية التى تسكن الإنسان، وتحمله على الخطأ؛ بسبب من دواعى الغضب المفضى إلى التعدى.

والحديث يستعمل الفعلين المضارعين (أتخذ/ تخلف) قاصدًا إظهار الإلحاح فى الدعاء، وهو بعض ما يحققه استعمال المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

وفى الحديث نوع مناسبة عجيبة، مصنوعة من المقابلة بين أفعال: الإيذاء والشتم واللعن والجلد من جانب، وأفعال الصلاة والزكاة والقربة من جانب آخر، وهى مناسبة صانعة لمطلوب الحديث من مكافأة المظلوم بما يرد ظلمه، ويكافئ بما يزيل أثره.

وفى الحديث تنويع بين الانفصال فى جمل: آذيته / شتمته / لعنته / جلدته، وهو فصل مقصود من ورائه تبشيع كل واحد منها على حدة، واستعظام كل فعل منها على حدة؛ مبالغة فى تجريم كل مفردة على حدة، وبين الاتصال أو الوصل المصنوع بالعطف فى: "فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك"، وهو الوصل المنشئ بمنزلة ما ينتظر المظلومين، بما يجمعه لهم من الصلاة أو الرحمة، والزكاة (الكفارة من الذنوب).

الحديث كله كناية عن طلب الإنصاف، وتحرير الحياة من مقابح الأفعال والأقوال، وتخليتها من رهق الظلم والعدوان، باستعمال كلمات الصلاة والزكاة بمعانيها اللغوية من رحمة وطهارة.

والحديث كله كناية لطيفة عن ضرورة مراجعة النفس، وحسابها فى مواجهة من نعولهم أو نسوسهم؛ طلبًا لتحقيق المساواة، ودفعًا للتعالى والطبقية المقيتة، المؤذنة بانهيار الحياة.

الحديث - بما هو حديث من أحاديث المناجاة - حفى بما يصنع السكينة والإخبات، من إيثار الأصوات والمقاطع المحققة للسكينة، فقد أثر الحديث استعمال الأصوات الطويلة؛ صامتة وصائتة، ففيه استعمال الميم المشددة فى: اللّهم / وعدد كبير من حروف المد، وهى خالقة للبطء المشعر بالسكينة.

وفى الحديث نوع حفاوة بحسن تقسيم منشئ لإيقاع جليل، تراه فى تتابع الأفعال بلا وصل فى: آذيته / شتمته / لعنته / جلدته، وتراه فى تتابع: صلاة / زكاة / قربة، بما يحقق من توازن إيقاعى مثير ومؤثر فى النفس.

والتنويع فى استعمال الإمكانات الصوتية والصرفية والنحوية، ما يحيل النص كله فى النهاية إلى قطعة من موسيقى الجلال، ترى ذلك فى تتابع الهمزات فى: (إني / أنا) و(إنما / أنا)، وفى تتابع العين فى: (عندك / عهدا)، وفى تتابع القافية فى: (قربة / تقربه)، وعلى التناغم الذى يصنعه التتابع الوزنى (شتمته / لعنته / جلدته)، وتتابع التنوين بالفتح فى: (زكاة / صلاة / قربة)، وكل ذلك دليل على بلاغة جليلة، زعيمها رسول الله ﷺ.

والحديث وهو يتفاعل مع قضية المراجعة، وتخليص الوجود من صنوف إيذاء الخلق، يلوح منه بعض الإشارات الدعوية والحضارية، من مثل:

أولًا: الحديث يوجه الأنظار نحو ضرورة عناية الدعاة بأهمية الدعاء، ومنزلته فى الإسلام.

ثانيًا: ضرورة استثمار الدعاء، وفحص مقاصده الاجتماعية، وآثاره الإيمانية.

ثالثًا: الحديث يوجه الأنظار نحو ضرورة تربية الجماهير على محاسبة النفس، ورعاية الخلق.

كما يظهر منه إشارات حضارية من مثل:

أولًا: يوجه نحو ضرورة العناية بتراث الدعاء عند المسلمين، نشرا، وتحقيقا ودراسة.

ثانيًا: الحديث يوجه النظر نحو أهمية قيم التواضع،وأثره فى السلام الاجتماعى بين الناس.

ثالثًا: العناية ببيان أثر تخليص الحياة من المظالم، وأنه شرط للتقدم الحضارى.

***

الإسلام وثقافة المرح واللعب !

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: **"كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ، وكان لى صواحب يلعبن معى، وكان رسول الله ﷺ: إذا دخل ينقمعن منه، فيسربهن إلى، فيلعبن معي"** (تحفة الأبرار للقاضى البيضاوى، شرح مصابيح السنة للبغوى ٣٧٤/٢، حديث ٧٥٠-٢٤٢٠، كتاب النكاح، باب عشرة النساء، وما لكل واحدة من الحقوق).

هذا حديث عجيب جدًّا فيما يفتحه من آفاق استكشاف حقيقة الفكرة الإسلامية النقية، التى أصابها غبار كثيف على امتداد التاريخ؛ بسبب من جهل أبنائها.

وهو حديث عجيب جدًّا مرة أخرى؛ بسبب مما يعلنه من أمر رعاية الفكرة الإسلامية لثقافة المرح والبهجة واللعب والترويح، وبسبب مما يعلنه من تقدير حاجة الإنسان إلى مناخ الترويح فى بعض مراحله العمرية، وبسبب مما تعلنه من أن اللعب والمرح من الحقوق، على ما يظهر من إيراد هذا الحديث فى عدد من كتب السنة فى باب عشرة النساء وحقوقهن!

والحديث نمط دال على سمت الكلام الأول، وعلى التأثير البارع للكلام النبوى فيمن خالطه، وارتبط به، وصحبه ﷺ.

والحديث يتذرع إلى قضيته بعدد من الإجراءات البلاغية المنتجة للمعرفة التى يريد إذاعتها بين الناس.

الحديث قصة قصيرة كثيفة، تقوم فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بوظيفة الرواية، وهى الشخصية المركزية فيها؛ بدليل نسبة تكرار ضمير المتكلم العائد عليها فى: كنت، وألعب، ولى، ومعى، وإلى، ومعى، وهو الأمر الذى يجذب المتلقين، بما تصنعه الحكاية من مناخ الأنس والدفء الإنسانى المحقق للانجذاب والتشويق.

والحديث يصدر أمر لعب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فى لوحة متكررة متجددة مستمرة؛ ليقرر أن الإنسان فى حاجة مستمرة إلى الترويح واللعب، الباعث على تجديد النشاط اللازم

لأحوال الجد، وهو ما يحققه استعمال بنية الفعل المضارع الدال على التجدد فى: ألعب / يلعبن / ينقعمن / يسربهن / يلعبن.

والحديث يلح على أن اللعب مسألة لذة وارتياح، وهو سر تكرير فعل اللعب ثلاث مرات فى: ألعب / ويلعبن معى / فيلعبن معى.

والحديث يقرر أن هذا اللعب مباح؛ حيث ذكر الحديث فعل اللعب وحدوثه بحضور النبى ﷺ. لقد كان بإمكان عائشة أن تقرر أمر لعبها مع صواحبها بتعبير "عند زوجى"، ولكنها قالت فى المرتين: عند النبى ﷺ، ورسول الله ﷺ؛ لتؤكد أن قضية اللعب مسألة ترعاها أدبيات الوحى، وأخلاق النبوة الرحيمة.

والحديث ينتقل من التعريف إلى التنكير فى رشاقة عجيبة، تتناغم مع مقاصده، فقد جاءت "البنات" معرفة بال العهدية، أى بتلك الألعاب المعهودة فى هذا الزمان، وهى كما نرى رخصة إذا كانت للعب الصغار، ثم جاءت: صواحب نكرة؛ لتدل على قيمة اللعب الجماعى، من دون النظر إلى تعيين الصواحب؛ لأن الحديث منشغل بقضية اللعب.

والحديث كاشف عن المهابة والإجلال الذى سكن قلوب أبناء ذلك العصر نحو النبى ﷺ، وهو بعض ما يوحى به استعمال الفعل: ينقمعن، وفيه دلالة على المبالغة فى الاستتار والتغيب، فهو كناية عن الهيبة والجلال له ومنه.

وفيه من جهة أخرى دلالة بالغة على رأفته ورفقه، وهو بعض ما يوحى به استعمال الفعل يسربهن، بمعنى يرسلهن ويسرحهن إليها؛ رضًا بلعبهن ورأفة بهن، وهو كناية عن رضاه وموافقته ورأفته ورقته.

والحديث كله كناية عن تقدير النبى ﷺ لأثر اللعب والمرح والترويح، فى التخفيف من عبء الحياة، وكدها، وشقائها، وترخيصه للمرأة المتزوجة أن يكون لها أوقات تروح فيها عن نفسها؛ من أجل استعادة نشاطها عند الانخراط فى الأعمال الزوجية والبيتية الشاقة.

والحديث مثال فريد لاستثمار العناصر الصوتية وتوزيعها توزيعًا خالقًا للإيقاع المريح، فقد كثر استعمال صوت العين، وهو ما يحقق تجانسًا صوتيًّا محببًا فى مثل: يلعبن معى / يلعبن معى، فى نهاية جزأى الحديث.

والحديث حريص على استعمال حروف العطف؛ ليخلق به حالة الوصل المناسب؛ ليحكى مراوحًا بين الواو والفاء، فى: وكان لى صواحب / وكان رسول الله، و: فيسربهن / فيلعبن.

والحديث يستعمل أشباه الجمل استعمالًا بديعًا، يكمل به فضاءات القص، فى: بالبنات؛ ليبين أداة اللعب، وكانت / لى؛ ليبين الحفاوة بعائشة بطلة القصة، ومنه ليقرر أمر المهابة للنبى ﷺ، ويثبتها يقينًا، لا احتمالًا.

الحديث باب جديد يرى قضية العناية اللازمة بثقافة البهجة والمرح، وأنها لصيقة بالفكرة الإسلامية؛ بدليل رعاية النبى الكريم لها.

والحديث وهو يشرح قضيته، يفتح الآفاق أمام استثماره دعويًّا وحضاريًا، ففيه من الأصول الدعوية ما يلى:

أولًا: فتح الآفاق أمام ضرورة العناية بأساليب القص والحكى فى الخطاب الدعوى.

ثانيًا: ضرورة التوسع فى أبواب التلطف والترويح، وربطها بدعوة الناس وتربيتهم وفق الفكرة الإسلامية.

ثالثًا: ضرورة جمع هذه النصوص، وجعلها مادة دعوية موسعة، يتعلم منها الدعاة.

وفى الحديث من الأصول الحضارية ما يلى:

أولًا: ضرورة العناية بصناعات اللعب والبهجة والترويح.

ثانيًا: ضرورة الربط بين الألعاب، ومقررات التربية والتعليم.

ثالثًا: الدعوة إلى إقامة متاحف لتطور الألعاب فى الثقافة الإسلامية؛ دراستها وفحصها.

الإنذار الرهيب

عن عبد الرحمن بن زياد قال: قال رسول الله ﷺ: **"من نظر إلى أخيه المسلم نظرة يخيفه بها أخافه الله يوم القيامة"** [مصنف عبد الرازق ٥/١٣٩، حديث ٩١٨٧].

تبدو فكرة الأمان فكرة مركزية فى التصور الإسلامى، تأسس عليها وجوده، ونطق بها الوحى الكريم نصًّا، ورصد جائزة تترجم ما ادخره الله تعالى للمؤمنين، إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

وهذا الحديث من نصوص الوحى فى نسخته النبوية، التى تؤسس لهذه الفكرة العريقة فى منظومة القيم الإسلامية، فى سعيها لخدمة قضية أمن الإنسانية - يعتمد عددًا من التقنيات البلاغية المتنوعة؛ تأسيسًا للمعرفة، وتجلية لأبعادها.

يبدأ الحديث بلفظ من ألفاظ العموم والشمول؛ بسبب من إيهامه، وهو اسم الشرط المنقول من الأسماء الموصولة: من، وهو صالح للجميع، فردًا وجماعة، ومذكرًا ومؤنثًا؛ ليقرر أن حكم القضية عام فى الناس جميعًا.

ومن جهة أخرى، فقد جاء الحديث معتمدًا بنية الجملة الاسمية، على ما يسكنها من الدلالة على الاستمرار والدوام وعدم الانقطاع الزمنى، وهو ما يجعل قضيتها دائمة باقية على مر الزمان، غير منحصرة فى زمان بعينه، وإيثار الجملة الاسمية فى هذا المقامات، أمر مألوف، وقاعدة مستقرة.

وقد جاء فعل الشرط والجواب ماض؛ للمجانسة الزمنية من جانب، ولصنع يقين يحيط بالقضية من طرفيها، وقد خرجا إلى الدلالة على المستقبل، بقرائن السياق المتمثلة فى جملة "يخيفه"، المتممة لمعنى جملة فعل الشرط، والمتمثلة فى ظرف الزمان "يوم القيامة".

وفى الحديث حفاوة بالإطناب، وإطالة الكلام، وهو أمر مقصود، يترجم عن خطر القضية التى يعبر عنها، وهو الأمر الذى تحقق بمتعلقات الفعل ومقيداته، وهو باب مثمر من أبواب علم المعانى.

فقد جاءت شبه الجملة: إلى أخيه متعلقة بالفعل نظر؛ ليتمم معناه، ثم زاد الحديثن فقيد الأخ بالنعت بالمسلم، ثم زاد فقيد الفعل بنوع مفعول مطلق مبين للنوع؛ بسبب من جملة النعت: يخيفه بها، ثم تعلق حرف الجر "بها" بالفعل يخيفه؛ طلبا لإحكام الفعل.

وهذه المتعلقات والمقيدات صنعت نوع تعيين لطبيعة النظر المذموم المرفوض المشنع عليه؛ تمهيدًا للعقاب عليه، وتهيئة للنفس لاستقبال الجواب وتفهمه وقبوله.

وفى الحديث تركيز يعتمد المعجم؛ ليتوصل إلى مقصوده من تبشيع الفعل، فقد استعمل الحديث لفظة: أخ مضافة إلى الضمير العائد على الفاعل المستتر فى الجملة؛ ليقرر من وراء هذا الاستعمال بشاعة صدور نظرة التخويف من الأخ إلى أخيه، الذى تربطه به علاقة تفوق علاقة الأرحام والدماء.

وفى استعمال جملة (يخيفه) تابعة للمفعول المطلق المستعمل على وزن المرة، تحقيق لأمرين هما:

أولًا: بيان تجدد الحكم واستمراره، تبعًا لتجدد الفعل واستمراره.

ثانيًا: تحقق العقاب المرصود فى الجواب، وتنزله على أقل قدر من تحقق النظر المخيف، ولو كان لمرة واحدة؛ بدليل استعمال مصدر المرة.

وافتتح الحديث جملة جواب الشرط بالفعل أخافه ماضيًا؛ ليؤكد تحققه فى حق من أتى مثله فى الدنيا، وفى استعماله نوع مشكلة لفظية؛ إذ تخويف الإنسان أخاه لا يمكن أن يرقى إلى تخويف الله سبحانه العبيد الذين يخيفون الخلق فى الدنيا، لا فى النوع ولا فى الدرجة، وهذه المشاكلة حققت تفهيمًا يقرب المعنى إلى الأذهان من جانب، ويخلق نوع إيقاع مؤثر فى النفس ترهيبًا لها من جانب آخر.

وقد جاءت جملة الجواب على التمام، فذكر الفاعل سبحانه ليعلو بمقام التخويف الصادر منه، وليحيطه بمقامات الجلال والتعظيم؛ طلبًا لروع نفوس من تحدثهم نفوسهم بالإقبال على تخويف الناس فى الدنيا، وذكر المفعول به عامًّا، متمثلًا فى ضمير الغائب الذى أخلص؛ ليدل على العموم، بدليل عودة على الضمير "هو" فاعل "نظر" المستتر فى أول جملة الحديث، وجاءت شبه الجملة يوم القيامة - بما هو زمان غيب؛ ليثير الرهبة فى النفوس؛ منعًا لها من الإقدام على ما يحذر منه الحديث؛ إذ النفوس مجبولة على الخوف من الغيب والانفعال به؛ بسبب من ارتباطه بالمخيلة.

الحديث كله نص فى الترهيب من ترويع الإنسانية، ونص فى التحذير والإنذار من عواقبه، وهو وإن جاء جملة شرطية فغرضه النهى عن الترويع، والإنذار بين يدى الآخرة، والإنذار نوع رحمة، بتقدير رعاية المآلات. وفى الحديث تأكيد لقضيته بالتكرار والجناس، ويبقى الإسلام العظيم أعظم قانون رعى انسجام الوجود، ورحمة الخلق والعطف عليهم.

وفى الحديث نوع عناية ببعض الأبعاد الدعوية التى ينبغى استلهامها؛ خدمة للخطاب الدعوى المعاصر، من مثل:

أولًا: تنبيه الحديث على أهمية الجانب الأخلاقى فى التصور الإسلامى، وهو ما يفرض على الدعاة المعاصرين ضرورة العناية به بدرجة كبيرة، فى ظل التشويه المرعب الذى أصاب النفوس الإنسانية.

ثانيًا: الحديث ينبه على مركزية الأمان فى التصور الإسلامى، وهو ما يفرض على الخطاب الدعوى المعاصر، التفتيش عنه فى مقاصد العبادات ومقاصد المعاملات، وفى أحداث الإسلام الأولى.

ثالثًا: الحديث يفتح العيون على أهمية تصميم الخطاب الدعوى، فى تفضيل أساليب العموم والوضوح والإحكام، فيما يتعلق بالقضايا الخطيرة.

وفى الحديث نوع عناية كذلك ببعض الأبعاد الدعوية التى ينبغى استلهامها فى العصر الحديث، من مثل:

أولًا: دعم قضايا المساواة والمواطنة، ففى الحديث حفاوة بالعموم فى "من"، الذى يصلح فى إطلاقه على الناس جميعًا، وفى أحوال مختلفة متنوعة.

ثانيًا: دعوة الأجهزة الإدارية فى الأنظمة المعاصرة إلى الإفراط والتوسع فى تأمين الناس، بمحاربة المهددات البشرية والمادية التى تهدد أمن الناس، بالتوسع فى ملاحقة المجرمين، الذين يمثلون خطرًا يتهدد أمن الناس، وبالتوسع فى خدمة التأمين للطرق والمساكن والمؤسسات ... إلخ.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام الحاجة إلى التوسع فى دلالات الأساليب؛ فقد ظهر استعمال الشرط للتحذير والإنذار والترهيب، واستعمل المفرد المعرف للاستغراق والشمول، وهى دلالات ندر النص عليها فى برامج النحو والبلاغة عند العرب.

***

نحو سلام اجتماعى فاعل !

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: **"تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وحر الصدر، ولا تحقرن جارة لجارتها ولو بشق فرسن شاة"** (تحفة الأبرار للقاضى البيضاوى، شرح مصابيح السنة للبغوى ٢/٣١٣، حديث ٩٦٠-٢٢٥٠، من حساب باب العطايا من كتاب المساقاة والمزارعة).

هذا حديث دال على رعاية الفكرة الإسلامية للسلام الاجتماعى، وهو حديث دال كذلك على أن الأفكار العظيمة لا تهمل التطبيقات الصغيرة، ما دامت ترعى حقيقة الفطرة الإنسانية.

الحديث مثال فريد على نبوة محمد ﷺ فى نطقه العبقرى الكاشف عن الوعى بطبيعة النفس الإنسانية، وميلها الفطرى، وما جبلت عليه مما تحبه وتركن إليه.

والحديث - وهو يسعى للتناغم مع هذه النفس الإنسانية؛ طلبًا لسلامها وسوائها النفسى - يتذرع بعدد من الإجراءات البلاغية:

الحديث يتخذ من الجملة الإنشائية الطلبية محورًا ومرتكزًا؛ ذلك أنه يبدأ بالفعل تهادوا، وهو فعل أمر مشحون بدلالات كثيرة؛ مشحون بالعموم الوارد من صيغة المفاعلة التى صيغ عليها الفعل، والوارد من استعمال الفاعل واو جماعة، ومشحون بالمبالغة والكثرة؛ إذ إن طول الصيغة الفعلية مع استحضار الصيغة المقاربة لها، وهى: أهدوا، دال على ما نقرره، ثم هو مشحون دلاليًّا بإرادة التقارب الإنسانى، وتحبيب التفاعل، والتداخل فى العلاقات، وهو بعض دلالات صيغة المفاعلة.

والأمر صالح لأغراض كثيرة، فهو صالح للوجوب عند الوقف عليه، وصالح للإرشاد والنصح بقرينة التعليل الواردة فى جملة: فإن الهدية تذهب وحر الصدر.

وجملة إن الهدية تذهب وحر الصدر، جاءت تذييلًا تعليليًّا وإقناعيًّا فى الوقت نفسه، وهو بعض وظيفة التوكيد المستكن فى: إن، واستعمال الهدية معرفة، صالح التأويل

بالاستغراق، إذا حملت "ال" على الجنسية، وبالعهدية إذا حملت "ال" على العهد الذهنى، أى تهادوا بأى شىء وكل شىء، أو تهادوا بما هو مألوف فى أوساط حياتكم.

والحديث حفى ببنية الفعل المضارع فى (تذهب / تحقرن)؛ إشارة إلى ضرورة أن يكون هذا الفعل متجددًا مستمرًّا، يرجى له أن يستحيل عادات وسلوكًا فاعلًا فى أوساط الجماعة الإنسانية.

ومفتتح الحديث مثال لبلاغة الارتياح؛ ذلك أن استثمار معجم الهدية المنتج للمعرفة فى أوله فى (تهادوا / الهدية) باعث على التلطف واللين، ومشعر بمودة ظاهرة، وفى استعمال: وحر الصدر استعارة بديعة؛ إذ الوحر فى المعجم دويبة سامة مجرمة، لا تصيب شيئًا إلا وحرته، ونفشت فيه السم المهلك، ثم توسع معناها من إضافته إلى المصدر ليكون غلًّا ووغرًا وغشًّا ووسوسة مؤلمة؛ لأن الطعام الذى وحرته الوحر يصيب آكله بحركة البطن وسهولته مما قد يفضى إلى الهلاك، وهو صورة مؤلمة جدًّا، يذهب بها ويطيبها إهداء الهدية.

وهذه الاستعارة نوع استثمار نبوى كريم، يستهدف إقناع المتلقى العربى ابتداءً، والعبارة كلها كناية عن طلب سلامة الصدر، وهدوء البال، وتحقيق السواء النفسى.

وفى الجملة الأخيرة من الحديث – وهى إنشائية طلبية – كذلك مكونة من: لا الطلبية الناهية + والفعل المضارع المؤكد بالنون، والنهى صالح للتحريم، وصالح للنصح والإرشاد، وحمله على التحريم أولى؛ إذ احتقار المرء لغيره محرم أصلًا، وفى هذه الجملة كناية عن التبسط، وقبول عطاء الإنسان لأخيه من دون النظر إلى وزنه المادى، وهو المعبر عنه بالتعبير الدال على القلة: ولو بشق فرسن شاة، وفرسن الشاة – بادى النظر – شىء تافه لا قيمة له؛ إذ لا قيمة ما يقابل الظفر من الإنسان أو الحافر من الدواب، لكن الحديث يقول إن التافه فى باب استقامة الصدر، والتهادى لا يقال له تافه!

والحديث حريص على التناسب، حيث ناسب بين الأمر والنهى والعرض واحد، وناسب فاستعمل واو الجماعة، ثم عاد فاستعمل فاعل تحقرن مؤنثًا؛ لكيلا يتوهم أحد أن النصح والأمر خاص بالذكر من دون النساء.

الحديث مثال فريد فى تقدير قيم العطاء والتهادى، وقد فطن عدد من المحدثين، فخرجوه فى باب المساقاة والمزارعة؛ مما يدعم قيم التكافل المادى، واستنقاذ الضعفاء الذين لا يجدون طعامًا بالإهداء إليهم.

وما تزال السنة الشريفة تثبت – مع دوام الفحص والتحليل – كيف كان النبى ﷺ رحمة عامة للعالمين ﷺ.

والحديث - وهو يطمح نحو تفعيل السلام الاجتماعى، واستنبات السواء النفسى فى أنفس الجماعة الوطنية - يشير إلى عدد من الأصول الدعوية والحضارية، منها:

أولًا: الحديث يفتح الباب أمام الدعاة إلى ضرورة استثمار المعرفة البيئية فى خطاب الجماهير.

ثانيًا: الحديث يفتح الباب أمام تنبه الدعاة إلى العناية بالقضايا الاجتماعية، والسلام الاجتماعى، والمقاصد الاجتماعية للعبادات.

ثالثًا: ضرورة التوسل بالآثار السلبية للظواهر الاجتماعية الرديئة؛ من أجل إقناع المدعوين بالتخلى عن هذه السلبيات.

ومن الأصول الحضارية التى يشير إليها الحديث ما يلى:

أولًا: ضرورة العناية بتنظيم العمليات الإدارية فى أنظمة العمل؛ للتقارب بين العاملين فى المؤسسة الواحدة؛ دعمًا لعمليات التواصل الاجتماعى، من مثل: الاجتماع على الإفطار فى المناسبات الإسلامية، وغير ذلك.

ثانيًا: ضرورة دعم أهمية صناديق التكافل والزمالة فى المؤسسات المختلفة، ودعم أنشطته؛ سعيًا لتحقيق السلام الاجتماعى بين العاملين فى المؤسسة الواحدة لمحاصرة المشكلات التى قد تتولد بسبب الخلافات فى العمل.

ثالثًا: ضرورة العمل ثقافيًّا على دعم ثقافة التكافل، وتطوير أفكار التكافل، بإحياء صوره الشعبية الموروثة فى الأعمال الثقافية والدرامية المتنوعة.

فى ثقافة السرور !

عن أبى هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضى عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا "** (الحديث متفق عليه).

إن فحص التصور الإسلامى للحياة يعلن عن حرصه على البهجة، وطلبه نشر الفرح فى جنبات الوجود الإنسانى. ولا أدرى لمصلحة من يغيب هذا البعد الإيجابى فى الثقافة المعاصرة، أو يشوه لدى قطاع من دعاة الإسلام المعاصرين!

الحديث جملة خبرية، تكونت من: مبتدأ معرف بالإضافة (أفضل+ الأعمال)، وخبره مصدر منسبك من (أن المصدرية + وفعل مضارع منصوب بها)؛ وهى تهدف إلى إثبات الحقيقة التى تحملها، ومجىء الخبر على ما نرى، يستهدف تجدد الفعل واستمراره وتنوعه. والجملة - وإن جاءت خبرية - تستهدف: الندب والنصح والحث، بدليل هو تذرعها واعتمادها على المشتق: أفضل، الذى هو رأس فى باب الترغيب والإغراء؛ امتداحًا للأمور المحمودة، ودفعًا إلى التخلق بها.

وثمة تفضيل مطلق ورد إلى الحديث من عدة جهات هى:١- استعمال أفضل فى تركيب إضافى من الدرجة القصوى. ٢- استعمال مضاف إليه لفظًا عامًّا منفتحًا غير مقيد الدلالة، وهو الأعمال. ٣- استعماله المضاف إليه معرفًا بال التى تفيد العموم والاستغراق من جانب، أو تفيد الأعمال المعهود فيها الخيرية والبر، بدليل: أفضل!

واستعمال الفعل المضارع: تدخل متعديًا، مقصود؛ لتجديد النية والقصد والإرادة، وقد اكتمل معناه بذكر متعلقه: على أخيك المؤمن، وذكره مفعوله: سرورًا، وهذه المتعلقات والمقيدات تهدف إلى ضبط حركة العطاء، وتوجيه مساراتها لدعم الفكرة الإيمانية. وفى تجسدها فى المؤمنين، تحبيب لفعل الإيمان، وتحبيب للارتباط به، ومنع من مودة غير الصالحين، وإبهاجهم.

وفى الحديث حقائق وكنايات، فهو نص فى الدعوة إلى إدخال السرور والبهجة، من أى طريق كانت، بدليل: التنكير فى: سرورًا، وربما كان كناية عن إعانة الصالحين على

التزويج؛ إذ من معانى السرور اتخاذ الزوجة الصالحة؛ لأن المرأة مادة للفرح والبهجة فى الثقافة العربية.

واستعمال لفظ: الأخ معرف بالإضافة إلى كاف الضمير، مقصود منه الحث على المندوب إليه، بسبب من هذه الصلة الحميمية، فقد اجتمعت للمأمور بإسعاده كل الصفات المشجعة على إسعاده ماديًّا ومعنويًّا؛ ماديًا بإثبات أخوته، ومعنويًّا بإثبات وصف الإيمان له.

ولعل فى استعمال: "أو" هنا ما يفيد إرادة التفسير لما جاء عامًّا مجملًا فى جملة الحديث الأولى، وتكون الجملة الأولى بعد "أو"، وهى: تقضى عنه دينًا، والأخرى بعد "أو" أيضًا، وهى: تطعمه خبزًا، قد وردت على سيبل التفسير والتحشية والتفصيل لما جاء مجملًا فى المفتتح، لا الحصر أو العد. والتوجه إلى الأمرين المذكورين مشعر بإرادة الإسلام محاصرة مسببات الأحزان والهموم والعموم؛ من دين، أو ضيق حياة، فقد تواتر فى الثقافة الإسلامية النظر إلى الدين على أنه هم بالليل ومذلة بالنهار، كما تواتر النظر إلى ضيق الحياة، ووقوع الجوع على أنه نوع ضياع للإنسانية وسقوط بها.

وفى الحديث كنايات ظاهرة، فجملة: تقضى عنه دينًا، ظاهر منها طلب السرور والبهجة ومحاربة المذلة، وفى الحديث أنواع مجازات ظاهرة، فى مثل: سرورًا، التى قد يقصد بها اتخاذ الزوج؛ لأن المرأة باب مسرة فى الحياة، وفى تطعمه خبزًا كناية عن حفظ مادة الأبدان، ربما فهم من استعمال "خبزًا" نكرة معانى متعددة، وردت إلى الحديث من المعنى المعجمى للكلمة المحتمل لمعنى: الخبز المعروف الذى يأكله الناس، ولمعنى الثريد، وهو ما يعنى التوسع فى رعاية ما به قيام أبدان الناس، وربما دلت بالتضمن على معنى إطعام اللحم؛ إذ لا ثريد بغير لحم وهى جميعًا متلبسة بالأفعال المضارعة الداعية لتجدد المعانى واستمرارها.

الحديث باب عجيب للقيام بواجب حياطة الإنسان من جانبى تكوينه؛ روحًا بإدخال البهجة والمسرة عليها، وبدنًا بإطعامه وصيانته وإسعاده.

والحديث يمثل حاشية موسعة على ما تواتر فى الذكر الحكيم من رعاية مقام الإطعام وتخفيف الأحزان عن الناس، أليس الله هو القائل فى معرض المنة على خلقه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش]، وقد افتتح الإسلام للناس مسارات، تعين على تحقيق مطلوبه من إسعاد الناس، وتأمين حياة أبدانهم، فأمر بوجوب الإنفاق، وبوجوب الإطعام لمن استرعانا، ورغب وندب إلى الأضاحى والعقائق والتوسعات على الأهل والمجتمع فى متواتر الأيام، حتى غدا مطلب إطعام الناس وحفظ مادة أبدانهم وإسعادهم أصلًا أصيلًا فى بنية الثقافة الإسلامية فى كل أبوابها، وعلى عموم أحكام الشريعة فيها.

وفى الحديث نوع حفاوة بالإطناب المتحقق له من باب: ١- التمام النحوى. ٢- ذكر متعلقات الأفعال. ٣- ذكر مقيدات الأفعال من المفاعيل. ٤- التعريف. ٥- ذكر بعض التوابع.

وهذا الإطناب مقصود لخدمة قضية الحديث، ومناسب لها؛ إذ البهجة باعثة على الأنس، والأنس باعث على إطالة الكلام، وهو من الأمور المعهودة فى حياة الناس فى مواسم المسرات والبهجة، وهو بعض أثر للانفعال السعيد على بنية تصميم الكلام، وهو بعض ما يفسر تراجع نسبة استعمال أصوات المد؛ طلبًا لتدفق الكلام وسرعته. وفى الحديث نوع توزيع صوت الخاء مثلًا بسماته المعروفة، وإيثار صوت الفاتحة بما فيها من اتساع لمجرى الهواء، مناسب للدعوة إلى التوسعة، وداعم لها.

وتظل الفكرة الإسلامية مع مرور الوقت تثبت شوقها الجارف إلى بهجة الحياة، وفى الحديث علامات تبعث على استثمارها دعويًّا، من مثل:

أولًا: تنبيه الدعاة إلى منزلة تأمين حياة الناس، فى ذات أبدانهم؛مما يستوجب التوسع فى دلالة الناس على مسارات تحقيقه.

ثانيًا: تنبيه الدعاة إلى منزلة البهجة، وإعادة تصحيح الصورة المغلوطة عن العاملين فى المجال الإسلامى، من أن الالتزام قرين الحزن، وهو ما تضافرت الأدلة على رفضه.

ثالثًا: ضرورة توسع الخطاب الدعوى المعاصر فى بيان الآثار الإيجابية للسعادة، والبهجة فى البناء النفسى للإنسان، وفى البناء الاجتماعى للأمة، ولا سيما مع تزايد ضغوط نمط الحياة المعاصرة.

وفى الحديث علامات تبعث على استثماره حضاريًّا، من مثل:

أولًا: الدعوة إلى التوسع فى برامج تيسير الزواج على الشباب.

ثانيًا: الدعوة إلى التوسع فى صناعات الأغذية والأطعمة، والتوسع فى التخفيف عن الفقراء، بالتوسع فى برامج الإطعام.

ثالثًا: الدعوة إلى التوسع فى الصناعات الثقافية والفنية المبهجة؛ غناءً وتمثيلًا ورسمًا، فقد نبه الحديث الشريف - من طرف خفى - على أهمية السرور فى البنية النفسية والاجتماعية فى الحياة، ساعة جعلها أفضل الأعمال.

***



في بلاغة التنمية
قراءات في التحليل البلاغي
لأحاديث الصدقة والمال

أفضل الصدقة

عن سعد بن عبادة قال: قلت يا رسول الله: أى الصدقة أفضل؟ قال: **"سقى الماء"** [أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، والنسائى فى سننه].

لقد استقر فى الوعى الذى رعاه التصور الاسلامى، المنزلة الرائعة للعمران، حتى غدا فى تنظير عدد من الأصوليين المعاصرين عمادًا مع عمادين آخرين، هما: التوحيد والتزكية، تشكل جميعها المقاصد العليا لهذا الدين العظيم (على ما ورد فى طرح الدكتور جابر العلوانى الصولى المعاصر).

ومراجعة الكتاب العزيز تكشف عن نوع عناية بالماء، بما هو نعمة من نعم الله الكبرى على الحياة جميعًا، تؤسس - بعمق - لعمران الوجود الحى فى الاتجاهات المختلفة.

وفى الحديث العجيب نوع بيان عن هذه المنزلة التى يحتلها الماء فى التصور الإسلامى وتأسس كثير من مفردات التعبير والأخلاق على هذه المكانة:

الحديث يدعم فكرة أن السنة المشرفة معلمة، من حيث إنها بيان للرسول ﷺ الذى بعث معلمًا، فقد تصمم على هيئة سؤال وجواب؛ السؤال جملة استفهامية موجزة، تخلص إلى مطلوبها من أقصر طريق، وهى وإن جاءت جملة إنشائية طلبية، تسعى نحو طلب العلم المسئول عنه، تمهد لتحويله إلى طاقة عمل وحركة، تتوخى نفع الإنسانية؛ إذ الصدقة نوع منفعة، ترجو تعدى النفع من قادر راغب إلى محتاج ساغب، فإنها توحى بلهفة المجتمع إلى الخير والصدقة، بموجب تحليلها المعجمى للفظة دالة على:

١ - العطية الممنوحة فى ذات الله تعالى.

٢- وعلى قصد مناطق الضعف بتقويتها؛ إذ الصدقة تفترض مسكينًا وتتطلبه.

٣- وعلى نوع اختيار للجيد تعيينًا، واس.تبعاد الردىء.

وجملة السؤال تفتح الباب على استخلاص عدد من المعانى المهمة، يلزم تصورها فى الجواب، وهذه المعانى ماثلة فيما يلى:

أولًا: تعيين طلب الأفضلية المطلقة فيما يتوقع الجواب به؛ ذلك أن السؤال يطلب هذا التعيين، مستعملًا: أفعل التفضيل الإطلاقية التى وقعت مبتدأ مؤخرًا؛ بسبب من وجوب تقدم الخبر وجوبًا؛ لكونه من ألفاظ الصدارة فى برامج النحو العربى.

ثانيًا: صحة توجه الجواب إلى الوجوب والاستحسان معًا؛ بسبب من صلاحية إطلاق الصدقة على معنيين، هما: الزكاة الواجبة، والصدقة المندوبة المستحبة!

صحيح أن السياق اللغوى يميل بها نحو معنى الصدقة لا الزكاة، لكنه لا يمنع من إمكان إنفاق أموال الزكاة فى سقى الناس والحيوان والأرض!

وقد أفاد التقديم، مع كونه واجبا، نوع إشعار بأهمية تعيين ما هو أفضل فى باب الصدقة، فكان التعيين أولى؛ ولذا توجه تقديمه.

وقد جاءت جملة الجواب اسمية محذوفة المبتدأ؛ اعتمادًا على سبق ذكره فى جملة السؤال، وهذا الحذف الاختيارى كان استجابة لمقام السائل المتلهف الطالب للجواب، وفى هذا الحذف نوع شفقة بالسائل من المجيب ﷺ، تحققت بالإسراع فى تلبية سؤاله، بالإجابة عن مطلوبه، والتقدير: أفضل الصدقة سقى الماء.

والخبر المذكور فى الجواب عبارة عن تركيب إضافى من: سقى مضاف، وهو مصدر أفاد الحدث المجرد؛ مما يعنى التوجه نحو تحبيب العملية، وتحبيب التصدق بأدواتها والتصدق بإنباط المياه، وشق الترع، وتفجير عيون الماء، وتدوير الماء، وتنقيتها، وتحليتها، وصناعة أوانى استخراجها، وحفظها.

ومن الماء مضاف إليه، وقد تحقق بها نوع توسيع لباب التصدق؛ إذ سقى الماء ممكن، يستطيعه كثير من الناس، واستعمال الماء معرفًا بال صالح لأن يكون مصروفًا للماء المعهود العذب النقى المستعمل فى شرب الناس، ويكون فى ذلك نوع كناية عن طلب قوة الناس ونضارتهم، على ما جاء فى كتب الأدوية المفردة فى الحضارة العربية الإسلامية.

واستعمالها معرفة كذلك صالح لأن يكون مقصوده تحقيق الاستغراق والشمول، بمعنى الندب إلى سقى الكائنات جميعًا بالماء؛ إنسانًا وحيوانًا ونباتًا، وفيه كناية عن الاقتصاد وحسن الاستثمار بتوجيه الماء لخدمة قضايا الحياة والعمران.

والحديث كله كناية عن الحث على الإحياء، ونضارة الحياة، وقوة البشرية، والاشتغال بالنافع المحقق لعمارة الأرض، وترقية جوانب الحياة فيها.

وفى الحديث نوع إعانة على استدعاء الذكر الحكيم فى التأسى بأصول الصالحين، من مثل ما صنع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنى شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فى قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ﴾ [القصص:٢٤].

وفى الحديث بيان لقيمة عبادة صلاة الاستسقاء؛ بما هى قربة إلى الله تعالى، مستقرة فى شرائع السماء جميعها.

وفى جملة الحديث نوع انسيابية عجيبة جاءته من إيثار نوعين من أنواع المقاطع الصوتية المتقاربة، وهما:

١- المقطع الثالث، المكون من: ص + ح ق + ص فى سق / يل.

٢- المقطع الثالث، المكون من: ص+ ح ط + ص فى: ماء، عند الوقف عليه، وهو جائز فى العربية فى هذه الحالة.

وهى الانسيابية المناسبة لتخيل جريان الماء وانسيابيته فى عمليات السقيى.

إن السنة تبرهن - بما هى مصدر من مصادر الحضارة - على عظمة التصور الإسلامى الراعى للحياة وعمرانها.

وفى الحديث أبعاد دعوية مهمة، من مثل:

١- التنبيه على أهمية التعليم فى الدعوة المعاصرة.

٢- التنبيه على أهمية التوجه لخدمة قضايا الحياة، التى تمس مشكلات المجتمع الإنسانى، وتدعم وجوده وحياته وبدنه.

٣- أهمية تحصيل البيان ووضوحه وجمالياته.

وفى الحديث دلالة على عدد من الأبعاد الحضارية المهمة، من مثل:

١- ضرورة التوجه إلى صناعات المياه؛ إنباطًا وتحلية وتدويرًا وتنقية.

٢- ضرورة التوجه إلى استعمال المياه فى الطب والعلاج.

٣- ضرورة التوجه إلى التوسع فى استصلاح الأراضى، باستعمال المياه المنقاة والمدورة؛ منعًا من هدرها وضياعها.

***

فى أصول التنمية

عن أبى بردة بن نيار، قال: قال رسول الله ﷺ: **"أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل الرجل بيده"** [رواه أحمد والطبرانى الكبير].

إن الذين رأوا فى السنة المشرفة أصلًا لقيام حضارة المسلمين، محقون إلى أبعد مدى، ومن الحق أن يفحصها كل علم بحثًا عن أصوله فيها؛ نهوضًا بواجب بناء الأمة، ولإقالة عثرتها، وإنعاشها من غيبوبتها وسقوطها.

وهذا الحديث البديع كاشف عن أصلين راسخين من أصول التنمية والتقدم، والاقتصاد، وهما:

أ- أصل الإنتاج والعمل.

ب- أصل البيع والشراء

وهذان الطريقان هما أسمى ما به يكون نماء الثروة، وتناميها، ودوران حركة الحياة الاقتصادية، وما يستتبعها من تنمية الحياة والبشر جميعًا.

الحديث جملة اسمية خبرية، مكونة من:

مبتدأ (معرفة بالإضافة) + وخبر طويل؛ بسبب من قيد الوصف والعطف.

(أفضل+ الكسب) + (بيع + مبرور (نعت) + معطوف على ما قبله).

واستعمال الجملة اسمية، مقصود من ورائه تقرير دوام الحكم الذى تحمله وتتضمنه، بتخليتها من القرائن الزمنية، ومقصود من ورائه تأكيد حقيقة القضية التى يعبر عنها، والحديث يثير روحًا من البهجة، بالتأثير الإيجابى فى نفوس المتلقين، من خلال استعمال ألفاظ لها هوامش دلالية إيجابية فى الثقافة العربية والإنسانية التى يرتضيها الكسب والبر، وينعشها ويدفعها لحب الحياة.

واستعمال المبتدأ مركبًا إضافيًّا - جزؤه الأول: أفعل التفضيل الإطلاقية - باعث على الارتقاء بجملة الخبر؛ بسبب من ترقية منزلته، وتعالى درجته، وهو نوع حض على طلبه والتمسك به؛ بسبب من امتداحه ورفعه مقامه.

واستعمال لفظة بيع تستدعى تحبيب مقابلتها، وهى الشراء؛ إذ لا بيع بغير شراء، ولا تحقق لهما بغير إنتاج وحركة وعمل، وهو ما يشير إلى نوع تكرار خفى؛ إذ العمل متحقق ظنًّا واستنباطًا بالبيع وامتداحه، ومتحقق نصًّا بذكر اللفظة الدالة عليه صراحة فى قوله ﷺ: وعمل الرجل بيده، وتقييد البيع بالنعت مبرور، مقصود منه الإلزام باستصحاب هذا الوصف فى عمليات البيع والشراء دائمًا؛ إذ النعت ثابت فى حق موصوفه. وهو لفظ جامع للخير يحيط به من جوانبه، وهو بعض الدليل على حيازة النبى ﷺ لجوامع الكلم، فالبيع المخبر عنه يلزمه أن يكون حلالًا، لا شىء فيه، ولا غرار، تحوطه السماحة من جوانبه، ولا مغالاة فى ثمنه، ولا ناتج احتكار، وهى جميعًا من مقتضيات معنى البر!

وجاءت جملة العطف: وعمل الرجل بيده، زيادة فى الوضوح؛ إذ فيها رزح وظيفة التفسير والتوكيد معًا، فالبيع يلزمه وجود عمل منتج يسبقه، ولكن الحديث لم يقنع بهذا الاستنباط، فكشف عنه، ففسره وأكده.

واستعمال الرجل هنا صالح للعموم، فتكون "ال" للجنس، فتحيل معنى الرجل إلى الإنسان، أو يكون فيه نوع تخصيص لمناسبة الأعمال للرجال الصالحة، وهنا يكون فيه نوع رحمة بالمرأة، بابها التخفيف عنها.

وجاء شبه الجملة "بيده"؛ حملًا للإنسان العربى ابتداء على تغيير نظرته السلبية إلى الأعمال اليدوية؛ ذلك أن الإسلام جاء وقد ورث ثقافة تمتهن العمل اليدوى، وتؤخر رتبة الذين يمتهنون أعمالًا يدوية، ومراده تغيير هذه الثقافة المخاصمة لإنجاز الحضارة.

الحديث كله - وإن جاء جملة خبرية - يدفع فى اتجاه العمل والحركة الإيجابية فى الحياة؛ طلبًا لتنميتها وتقدمها وعمرانها، فهو خبر غرضه الحث والحض والإغراء، بقرائن الكسب والبر فى معجم الحديث، وفيه كناية عن امتداح العمال، أصحاب المهن، بقرينة استعمال عمل الرجل معطوفًا على خبر يخبر به عن الكسب المتناهى فى الفضل.

وفيه نوع تمثيل خفى يرقى برتبة العمال بأيديهم، من خلال استحضار ما أخبر به النبى ﷺ عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فى باب امتداحه بأنه كان يأكل من عمل يده.

وتأمل النص الشريف يكشف عن إيثار الوضوح الوارد من جهتين، هما:

أ- الوضوح المعجمي.

ب- الوضوح الناشئ من التمام التركيبى النحوى.

وهذا الوضوح مقصود لجلال قضية الحديث وخطرها، ووقوعه فى الصميم من حركة الناس فى الحياة. وهو حديث مثال فى تصميم نصوص الأحكام والتشريع والإعلان معًا. وفيه حسن تقسيم بتقسيم الحديث إلى ثلاثة أجزاء، تكاد تكون متساوية، تعين على قراءته قراءة موقعة منسجمة: أفضل الكسب / بيع مبرور / وعمل الرجل بيده.

وهو نص فى حسن التأتى للنفس معجميًّا وتركيبًّا، معجميًّا بإيثار مفردات بعينها، تشيع أجواء من السرور فى النفس، وتركيبيًّا بإيثار الوضوح والتمام النحوى.

وفى الحديث نوع عناية ببعض الأبعاد الحضارية المهمة، من مثل:

أولًا: تنبيه الأمة إلى نوع من الاقتصاد، القائم على تدوير الأموال، بما يحقق نماءها وتناميها، وفتح فرص للناس لتغيير مراكزهم المالية، وهو بعض ما تحققه اقتصاديات الإنتاج والعمل.

ثانيًا: تنبيه الأمة إلى التوسع فى بيان مخاطر الربا أو اكتناز الثروات، وعدم تداولها.

ثالثًا: ضرورة التنبه إلى تغيير العادات السلبية، بالتوعية فى اتجاه إزالتها، والسنة المشرفة تملك منهجية رائدة فى هذا الاتجاه، تتوزع على ثلاثة محاور، هى:

- تكثيف النصوص فى اتجاه إسقاط العادة السلبية، بامتداح ضدها، على ما جاء من امتداح العمل اليدوى والمهنى؛ سبيلًا لإسقاط النظرة السلبية نحو المهنة.
- امتداح أعيان العاملين أعمالًا مهنية؛ تحفيزًا وتشجيعًا للآخرين، على ما جاء فى الحديث النبوى، الذى ورد فيه امتداح يد العامل، بأنها يد يحبها الله ورسوله.

- قيام النبى ﷺ بأعمال يدوية أمامهم، من مثل المشاركة فى حفر الخندق، والاحتطاب عند حضور وقت الطعام.

وفى الحديث نوع عناية بعدد من الأبعاد الدعوية المهمة، من مثل:

أولًا: الحرص على الوضوح فى عرض القضايا المهمة الخطيرة.

ثانيًا: الحرص على استعمال ما به تكون بهجة النفوس، ومسرتها؛ إذ (الملافظ سعد) كما يقول المصريون!

ثالثًا: الحرص على الواجبات العملية؛ إذ الإسلام دين عملى إيجابى.

رابعًا: الحرص على تغيير القناعات السلبية، وإحلال الإيجابى مكانها.

***

مراتب فضل النفقة فى سبيل الله

عن ثوبان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله، ﷺ: **"أفضل الدنانير دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه فى سبيل الله"** [صحيح الإمام مسلم].

إن قضية قيام الإنسان بواجبه فى الحياة، تمثل مسئولية إيمانية وأخلاقية بامتياز فى التصور الإسلامى، وهو قيام بواجب يستهدف عمارة الوجود، وانسجامه وتقدمه وترقيه.

وفى هذا الحديث الشريف دلالة على مجموعة من علامات القيام بهذا الواجب الإيمانى والأخلاقى معًا؛ خدمة لمطالب ترقية الحياة الإنسانية.

الحديث جملة خبرية مطولة، تتكون من مبتدأ معرف بالإضافة (أفضل + الدنانير)، مقصود من ورائه تعيين درجة الأفضلية المطلقة فى باب الإنفاق، والقيام على مسئولية الإنسان نحو الحياة المادية، بجوانبها المختلفة، التى استرعاه الله تعالى عليها.

ومن خبر هو دينار، متبوع بجملة نعت فعلها مضارع .. هذه الجملة الخبر تستهدف إثبات حقيقة تعالى فضل الإنفاق على العيال؛ حفظًا لمادة أبدانهم؛ إطعامًا وكسوة ومعالجة وسكنًا، وحفظًا لمادة عقولهم ووجدانهم؛ تربية وتهذيبًا وتزكية وتعليمًا. وقد تحقق من هذه الجملة الخبرية ثلاثة أغراض على الأقل، هى:

١- إثبات فضل الإنفاق على العيال فى نفوس المتلقين

٢- تجدد هذا الفضل بتجدد الإنفاق، وهو بعض ما يوحى به استعمال الفعل(ينفقه) مضارعا

٣- الحث والحض على الإنفاق؛ إذ المبتدأ من أشهر التراكيب المستعملة فى باب الترغيب بالإحصاء والاستقصاء.

والحديث حريص على الإطناب المتحقق بطرق متعددة، هى:

أولًا: طريق التمام النحوى، بذكر عناصر الجملة وأركانها جميعًا بلا حذف.

ثانيًا: طريق استعمال النعوت جملًا فعلية، متبوعة بمتعلقاتها التى يتم معانيها، وهو الأمر الذى يتحقق باستعمال أشباه الجمل، فى: على عياله / وعلى دابته / وعلى أصحابه، وهى جميعًا متعلقة بالفعل ينفق فى كل جملة.

ثالثًا: التكرار لعناصر لغوية، تمثل مركزًا فى الحديث، وهو ما نلحظه فى تكرار: دينار، والرجل، وفى سبيل الله.

وفى الحديث نوع حفاوة بالتنويع فى باب التنكير والتعريف، فقد تكرر استعمال دينار نكرة، ثلاث مرات؛ ليوقع فى النفوس فضل الإنفاق مع القلة، وحمل النفوس على الإنفاق، وعدم الامتناع بسبب من قلة المتوقع إنفاقه، وقد ورد عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تتصدق بحبة عنب، وتقول: أليس فيها مثاقيل كثيرة؟! وهو نوع فهم عزيز نفيس عن الله تعال،ى الذى ندب إلى الإخراج والإنفاق ولو بمثقال حبة، أو ذرة؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة:٧].

وهو حريص على تعريف العناصر، من مثل: الرجل؛ توسعة للمقصود منه، إذ "ال" فيه للجنس، وبهذا يكون فى الحديث نوع حفى بالإنسان عمومًا، وفيه تعريف، للعيال، والدابة، والأصحاب، بالإضافة إلى الضمير العائد على الفاعل؛ تشجيعًا وحثًّا على الإنفاق؛ لأنه جعل مضافًا منها بعضًا من الفاعل، وهو ما يسهل تصور الإنفاق؛ إذ حقيقته أن الإنسان ساعة ينفق على هؤلاء، فهو ينفق على بعضه.

وفى تكرار استعمال: فى سبيل الله؛ تذكير بالغاية، وتجديد للنية، واستجلاب للأجر والثواب، وتوسعته لمفهوم الجهاد، وتصحيح للمفاهيم مما عساه يحمل على البخل فى هذه السياقات والمجالات.

والواو التى ربطت بين جمل الحديث محتلة لمعنى الجمع، بمعنى أنه بند لتغطية هذه المجالات بالإنفاق عليها، على غيرها، مما يشبهها أو يتصل بها بسبب، وربما كانت محتملة

للترتيب، وهو نوع تربية على الأولويات فى إدارة شئون الحياة اقتصاديًّا، وربما كانت محتملة للتنويع والتوسيع فى عمارة الحياة فى ذات الأسرة، وترقى قوة البلاد، وطلب انسجام المجتمع وسلامه الاجتماعى.

والحديث يحقق بالتكرار - فى دينار / وينفقه / والرجل - مجموعة من الوظائف البلاغية المهمة، من مثل: توكيد قضيته الأساسية، وترسيخها فى نفوس متلقيها، ومن مثل: تماسك جمله جميعًا وترابطها جميعًا فى نظم واحد، يحليها وحدة واحدة، لا يتصور انفكاك بعضها عن النص.

وهذا التكرار - بتوزيعه فى مناطق بعينها من كل جملة - يحقق إيقاعًا، يمنح الحديث نوع سلاسة وانسيابية؛ إذ يلاحظ وقوع "دينار" فى موقع واحد من كل جملة، ويلاحظ وقوع "ينفقه" ثانى عنصر بعد "دينار" من كل جملة، وهذا التراتب محقق لحسن التقسيم، وحسن التوقيع الموسيقى؛ بسبب من التكرار للعناصر نفسها، وهو جناس تام، متداخل مع اتفاق السجعات. وفى الحديث نوع حفاوة بالأصوات المجهورة ذات القمم الإسماعية العالية، فليس فى الحديث غير أصوات مهموسة فقط، هى: الهمزة والتاء والسين والفاء والقاف والهاء بنسب منخفضة، على حين استعمل فيه: عشرة أصوات مجهورة؛ بنسب تكرارية مرتفعة جدًّا، ولعل ذلك مناسب لخطر القضية التى يعالجها الحديث الشريف.

وفى استعمال الرجل بديلًا للمرء أو الإنسان - مع أنهما محتملان فى بعض التأويل - تأكيد على الأصل المستقر فى التصور الإسلامى، الذى يجعل الإنفاق من واجبات الرجل بحكم قوامته، وبحكم منظومة المروءة فى الثقافة العربية الإسلامية، التى تجعل إنفاق الرجل بعضًا من محددات مروءته، ونبله.

إن الحديث كله كناية موسعة لطلب ترقية الحياة ماديًّا ومعنويًّا، وكناية عن إرادة الإسلام تطوير الحياة تطويرًا إيجابيًّا، وفى كل جملة كناية عن معنى جليل يحتاجه عمران الوجود، فالجملة كناية عن طلب رعاية الأسرة، وحياطتها بما يحفظها ويرقيها.

وفى الثانية كناية عن رعاية مطالب قوة الوطن وتقدمه وصيانته والبذل فى سبيل رفعته فى مواجهة أعدائه وخصومه، والثالثة كناية عن رعاية حقوق الأخوة (الصحبة)، وحفظ السلام الاجتماعى.

إن التصور الاسلامى يعيد بناء التصورات الاقتصادية على هدى من مقاصده النبيلة، التى يرجو إشاعتها فى الحياة.

وفى الحديث بعض رعاية لعدد من الأبعاد الدعوية من مثل:

أولا- تنبه الخطاب الدعوى المعاصر إلى أهمية مؤسسة الأسرة، ولا سيما بعد عدد كبير من المخاطر التى تسربت إليها، وهددتها فى أصل وجودها.

ثانيا- تنبيه الخطاب الدعوى المعاصر إلى أهمية العناية بقضايا الشأن العام، وتقدم الوطن.

ثالثا- تنبيه الخطاب الدعوى المعاصر إلى أهمية العناية بالسلام المجتمعى، وإشاعة أجواء الألفة، وما به يكون حفظ التآخى.

وفى الحديث بعض ما يمكن استثماره فى الأبعاد الحضارية، من مثل:

أولا- أهمية الاستثمار المادى فى تربية الإنسان؛ باعتبار أن تنمية الإنسان من أعلى قيم التنمية.

ثانيا- أهمية التوسع فى تحقيق القوة للأمة، فى المجالات المتنوعة.

ثالثا- الحديث يفتح الباب أمام أهمية استثمار أموال الزكاة فى خدمة المشروعات الحضارية المادية، من مثل: مد طرق المواصلات، وتحسين شبكات النقل وصيانتها، وتحديثها.

رابعا- الحديث ينبه إلى أهمية تحديث معدات الجيوش الوطنية للدول الإسلامية؛ لتكون على استعداد دائم لمواجهة المخاطر التى تحدق بالأمة من جانب عدوها.

* * *

في مواجهة حصاد السنين !

عن عدى بن حاتم قال: قال رسول الله، ﷺ: **"ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة"** [صحيح البخارى].

مما لا تخطئه العين رعاية الإسلام لمقام الآخرة، وتقدير منزلتها فى ضبط السلوك الإنسانى؛ بما هى المآل الختامى لحركة الإنسان على الأرض، وبما هى ميدان التقييم لحصاد السنين.

ونصوص هذا الدين العظيم حريصة على بناء الوعى بقيمة الآخرة، وتقديرها؛ طلبًا للعمل من أجل تحقيق النجاة فيها ساعة الإقبال عليها.

الحديث يبدأ بجملة خبرية تقرر الشمول والاستغراق الوارد إليها، من استعمال النكرة: "أحد" فى سياق النفى، وهو مع ذلك مؤكد بمن الزائدة؛ تحقيقًا لنصح الجميع من جانب، وتحذيره وإنذاره من جانب آخر، ووارد إليها كذلك من استعمال الاستثناء المفرغ الذى أخلص الجملة للشمول والاستغراق، من طريق بيان الحصر، وفى تقديم شبه الجملة: منك، نوع رعاية للمخاطبين؛ لأن القضية تمس البشرية، وفى الخطاب تحقيق لنوع إقبال عليهم، مشعر بالتقدير وعدم الإعراض؛ رحمة وحنوًّا.

واستعمل الحديث الجملة: سيكلمه ربه، مضارعة، اتصلت سين الاستقبال بالفعل؛ لإخلاصه للمستقبل؛ بثًّا لروح الأمل فى أماكن تعديل مسارات الحياة للنجاة فى الآخرة، واستحضار للصورة بالخيال إعانة على تقدير أمر الآخرة، وجلال الوقوف بين يدى الله سبحانه، وذكر الفاعل: ربه، بهذا اللفظ، بما يحمله من مادة الإنعام والتفضل؛ تشجيعًا على الإقبال عليه بموجب معنى التربب أو العطاء المركوز فى دلالة الكلمة معجميًّا.

واستعملت جملة: ليس بينه وبينه ترجمان، نافية وساطة أحد بين العبد وربه، والتقديم والتأخير، مشعر بقيمة الإنسان المخاطب، والنكرة فى سياق النفى دالة على العموم، بما معناه أنه لا توسط من أى نوع، وقد دفعت هذه الجملة توهم أى تصور، يحيط بالقضية المخبر عنها من كلام الله تعالى عبيده، مما يمكن أن يحيط بها من عوارض الأسئلة المتعلقة بلغة الحوار أو الكلام.

ثم يدخل الحديث إلى ما يشبه أن يكون غرضه الأساسى، وهو تقدير قيمة العمل الذى يحصله الإنسان فى دنياه، وأنه معيار تقدير مصيره فى الآخرة، فيقول: "فينظر عن أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدمه من عمل، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم". واستعمال الفعل ينظر تعيينًا؛ دفعًا لتوهم أى من صور الإدراك الأخرى غير المتعينة بالنظر، وفيه نوع استعارة، جسدت أعمال الإنسان فى صورة مادية منظورة، وتجسيد الأشياء أو الأعمال أعون على إدراكها، وتحصيلها، وفى الجملتين استعمال الاستثناء المفرغ، نوع حصر، دال على أن الأعمال - والأعمال وحدها - هى ما سوف يحيط بالإنسان فى هذا المشهد الرهيب، واستعملت الجملتان نوع طباق بين: أيمن / أشأم؛ لتحقق استغراق الجهات، ومحاصرة الأعمال لصاحبها، وطباق الاستغراق باب عجيب من أبواب صناعة العموم باستعمال الأضداد. وجاءت جملة: "وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه"؛ ليبلغ الحديث قمة الإنذار والتخويف من التفريط فى أعمال الإيمان والخير، واستعمال التعبير بين يديه مكان "أمامه"، مشعر بعدم إمكان توقى النار، أو تجنب الورود عليها، واستعمال تلقاء، محقق للمعنى نفسه، ثم أضاف هذا الظرف إلى الوجه؛ قصدًا إلى ما فى الوجه من معانى الشرف والعزة؛ بسبب من أن الوجه فى الثقافة العربية هو دليل الإقبال والمواجهة، والتعرض له بالغبرة أو النار ترسيخ لمعانى الإهانة والذلة.

وكل هذه الجمل الموصولة بالعطف بالفاء، جاءت خبرية؛ لأن للحديث مرادًا، أن يحصله الإنسان، بأن الحقائق تقع متسارعة، لا نصيب للمجاز فيها؛ حملًا للبشرية على الاستعداد للموقف الرهيب. ثم ختم الحديث بجملة إنشائية مبدوءة بالفعل الأمر: فاتقوا، وهو أمر للوجوب، غرضه النصح والإشفاق وطلب رحمة الخلق ببيان ما به

نجاتهم. والفعل: اتقوا شهير جدًّا فى باب التوقى والحماية والصيانة والامتناع وصناعة الحواجز، وكل ذلك مراد، وذكرت النار مفعولًا به معرفة بال؛ تحقيقًا لمعنى العذاب جميعًا، وقمة تجسدها فى الجحيم، واستعمال "لو" معادلة على التضليل، وقد تعلق أمر النجاة من النار ببذل الخير فى أدنى صوره، المتمثلة فى صدقة شق التمرة، وفيه كناية عن أن الخير طريق النجاة، وهو حلو معنوى مستمد من حلاوة التمرة وهو حلو مادي، وفيه نوع بيان لحيازة الكرامة؛ بسبب من كرامة بذل التمر، وهو ثمر كريم من شجرة كريمة فى الثقافة العربية. الحديث كله كناية عن الجد فى طلب النجاة من العذاب وتوقيه، وصيانة النفس من الوقوع فيه، والحديث حفى بالتكرار المؤكد لفكرة العذاب لقدر من انسيابية إيقاعه؛ بسبب من تكرار عناصر لغوية بعينها على مسافات بعينها على ما نرى فى: بينه / وبينه / وينظر ثلاث مرات فى أول كل جملة / ويرى ثلاث مرات بعد "إلا"، وقدم ثلاث مرات بعد "ما" الموصولة.

الحديث باب واسع من أبواب رحمة النبى ﷺ بالخلق جميعًا؛ إذ النذير قائد إلى النجاة.

وفى الحديث ما يفيد الخطاب الدعوى، بما فيه من العلامات الدعوية التالية:

أولًا: ضرورة تنبه الدعاة إلى ربط الأعمال فى الدنيا بهدف النجاة فى الآخرة، والتوسع فى ذلك؛ طلبًا لنجاة الناس.

ثانيًا: الحديث يلح على أهمية الوضوح والإفهام، وإطالة النفس؛ ترطيبًا لخواطر الناس، وطلبًا لأمانهم.

ثالثًا: ضرورة استثمار صور الآخرة استثمارًا إيجابيًّا يدفع إلى العمل، ولا يقترب بالناس من حدود اليأس والإحباط.

وفى الحديث كذلك مما يمكن استثماره حضاريًا، بما فيه من علامات يمكن استلهامها حضاريًا، من مثل:

أولًا: أهمية التوسع فى نشاط الترجمة بين اللغات؛ طلبًا للتواصل بين الشعوب والثقافات، بما يمكن أن يحققه من تقارب بين الناس على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم.

ثانيًا: الدعوة إلى التوسع فى صناعات الأطعمة والأغذية؛ حرصًا على حياة أبدان الناس.

ثالثًا: الدعوة إلى التوسع فى الزراعات التنموية التى لها عوائد اقتصادية وحضارية متعددة؛ كزراعات النخيل، بما يعود منها على الناس فى طعامهم وصناعتهم المختلفة، وأثرها فى حفظ التوازن فى البيئة، وتثبيت التربة، وما إليه.

* * *

حرمة الاحتكار !

عن معمر بن عبد الله بن نضلة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من احتكر فهو خاطئ" [تحفة الأبرار، شرح مصابيح السنة للبغوى، للقاضى البيضاوى، كتاب البيوع، باب الاحتكار، من الصحاح (٢/٢١٦ رقم ٦٣٦-٢١٢٣)].

عجيب أمر هذا الدين العظيم فى حرصه على سلام الحياة، وعلى أمن العالم، وعلى تأمين الإنسانية فى أصل وجودها، وهو حفظ بدن الإنسان.

ومبعث العجب فى نفوس من يدرسون هذا الدين من هذه القضية، يتأتى من حياطة البدن الإنسانى بصنوف الرعاية والحماية والتأمين وعدم الإيذاء.

وهذا الحديث الصحيح الجليل - وهو يدخل إلى ضبط التشريع المنظم للحياة الإنسانية النافرة من التضييق على الخلق - يتأسس على عدد من التقنيات البلاغية المتناغمة مع غرضه ومراده:

الحديث جملة اسمية خبرية شرطية، تتأسس من معجم منفتح عام متسع، مقصود من ورائه انفتاح دلالته؛ ليغطى كل من يتورط فيما ينهى عنه، ترى ذلك من افتتاح النص باسم الشرط العام "من"، وهو متوجه لكل أحد ذكرًا أو أنثى، فردًا أو جماعة.

واستعمال الفعل "احتكر" على هذه الصيغة، يشير إلى ما يسكن هذه البنية من اعتساف الفاعلين وتكلفهم، وتحايلهم، وارتكابهم الطرق من أجل حيازة ما به غناهم، وما به التضييق على الناس، واستعماله ماضيًا، فيه إشارة إلى ما قدم من تورط فريق من البشر فى الانحراف عن معايير الأخلاق، وما فيه إشارة إلى الرحمة التى تسكن الشريعة، فى توجهها إلى التخفيف على الناس من آثار الضيق المتوارث القديم، وحذف المفعول يفتح أفق إنتاج المعنى، فيتوجه إلى رفض الاحتكار، وإلى كل ما من شأنه التضييق على الناس فيما يحتاجونه، ويقيم حياتهم. صحيح أن الاحتكار هو: جمع الطعام وحبسه؛ تربصًا لغلاء الأسعار، وتشوفًا للمكاسب المرتفعة – لكن حذف المفعول به مؤذن بأن الشريعة تمنع من احتكار الطعام، وما تقوم به حياة الناس مما هو كالطعام، أو من جنسه.

وجملة احتكر قصد إلى قصرها؛ فتحًا لباب ذمها من غير قيد، وهو قصر أريد به منع أبواب التحايل؛ توصلًا إلى التورط فى بعض أنواع الاحتكار.

ثم جاءت جملة الجواب: "هو خاطئ" خالصة لجواب الشرط، بدليل اقترانها بالفاء، وقد جاءت الجملة اسمية؛ تخليصًا لها من شبهات التوقيت، أو ربطها بأحد الأزمنة، وهو أمر مقصود منه تأبيد الحكم على الزمان.

إن الجملة هذه وهى تجعل الحرمة ثابتة دائمة مؤبدة لكل محتكر، يعمل على إحراج البشرية والتضييق عليها - من باب خفى من أبواب التوكيد.

إن هذا الحديث مثال ظاهر على تقدير السنة النبوية لنصوص الأحكام، وحياطتها بسمات الفقه والإتقان، والخلوص إلى الحكم من أقصر طريق.

لقد أرادت الشريعة تحريم الاحتكار، فتوجهت إلى تصميم نص عام، يصيب كل محتكر، ونص مؤبد يغطى الزمان، وهو ما يبعث على الإيمان بأن الشريعة منحازة إلى التخفيف والتيسير على الناس، ومنع مادة التضييق عليهم، وهو ما يبعث كذلك على الإيمان بأن الشريعة منحازة إلى تحبيب الحياة إلى الناس، وهو آية من آيات رحمة الشريعة، وتصميمه على بنية التعليق، يجعله خبرًا صالحًا للتنبيه والتحذير والنصح، ولا مانع منها جميعًا.

والإخبار عن "هو" بكلمة "خاطئ" نكرة، يجمع لها القدر الأعلى من تكريهها إلى النفوس، وفى استعمالها مكان حرام فضل مبالغة؛ إذ ربطها بالخطيئة فقبحها فى النفوس، وربطها بالخطأ الوارد فى الذكر الحكيم، مقترن بقتل الأولاد فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء]، فضلًا عن اشتقاقه من الفعل اللازم؛ تكريهًا لتحديث النفس.

ثم إن استعمال هذه المفردة وهى مشتقة - والمشتقات مسكونة بدلالة الانتقال والتوقيت - يفتح الباب على إمكان التحول عن الخطأ بالتوبة، وهو ما يبعث فى النفوس

نوع أمل، يعين على الابتعاد عن ممارسات الاحتكار، وهذا نص فريد دال على أن نصوص الشريعة مصممة على تزاحم المعانى.

فى الحديث طاقة مكتنزة عن التنفير من فعل الاحتكار، وكثافة تبعث على الرعب من نتائج هذه الجريمة، بما يفتحه تصميم الحديث الخالى من أية قيود لغوية؛ ليستقر فى نفوس الخلق جميعًا التنفير من كل أسباب التضييق على الناس، وجلب المشقة على حياتهم.

إن الحديث إضافة جديدة تدلل على أن النبى ﷺ، مثل وجوده على الأرض المثال الفريد للرحمة العامة.

والحديث بتصميمه وانفتاحه وتحريمه لممارسات الاحتكار، والتخفيف عن الخلق جميعهم من غير استثناء ولا تقييد وباستثمار عدد من التقنيات البلاغية - يفجر عددًا من الأصول الدعوية والحضارية، فيما يلى:

أولًا: الحديث يختطط طريقًا للدعاة، أن يركزوا على ما به التوسعة على الخلق، ويفتح أمامهم آفاق استلهام ما به يخففون على الناس.

ثانيًا: الحديث يفتح آفاقًا جديدة لما ينبغى أن يكون عليه الخطاب الدعوى، من التركيز على الكليات التى تصحح واقع الحياة المأزوم.

ثالثًا: الحديث يهدى إلى رعاية مقامات التحديد، والخلوص إلى المراد من أقصر طريق، بلا إملال ولا جلب كآبة على المتلقين.

والحديث يشتبك مع عدد من الأصول الحضارية يدعمها ويؤكدها من مثل:

أولًا: ضرورة توجه الأنظمة فى البلدان الإسلامية إلى العناية بصناعة الأطعمة، وما به حياة الناس.

ثانيًا: ضرورة توجه هذه الأنظمة إلى ضبط الأسواق، ومراقبتها، وتنظيم حركتها.

ثالثًا: ضرورة ضبط قوانين منع الاحتكار، وتأسيس الأجهزة المنفذة لها.

* * *

طريق اليمن وطريق الشؤم

عن رافع بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"حسن الملكة يمن، وسوء الخلق شؤم، والصدقة تمنع ميتة السوء، والبر زيادة للعمر"** (تحفة الأبرار للقاضى البيضاوى، شرح مصابيح السنة للبغوى ٢/٤٢١، حديث ٧٩٠-٢٥١٤، كتاب النكاح، باب النفقات وحق المملوك).

هذا حديث من الأحاديث الجامعة، أو أحاديث الكليات؛ ذلك أنه يؤسس لكليات اليسر فى الحياة، ومتعتها، ويبصر بطريق النور والسعادة، ويحذر من طريق ما يضيق الحياة، وينغصها.

وهو حديث يتناغم مع الفطرة الإنسانية، وما جبلت عليه من الميل والتعاطف مع الخير واليمن والبر والبركة.

والحديث وهو يسوق حقائقه الواضحة، صُمم تصميمًا بديعًا، مستثمرًا عددًا من الاجراءات البلاغية الموزعة على علومها جميعا:

الحديث - بما هو إقرار لقواعد وقوانين أخلاقية، والقواعد والقوانين الأخلاقية بطبيعتها ثابتة - تذرع باستعمال الجملة الاسمية فى جمله الأربعة جميعًا، حسن الملكة يمن / سوء الخلق شؤم ... إلخ، والمقصود أن يستقر فى ذهن المتلقى حقيقة ثبات هذه المعانى الجليلة على امتداد الزمان، وأنه لا ينال من دوامها شىء يقطعه.

والحديث حفى باستثمار الطباق فى: حسن / فى مقابلة: سوء، وفى: يمن / فى مقابلة: شؤم، ومقصوده بعد توضيح منزلة كل واحد منها، أن يرقى بدرجة الحسن، فيجمله فى النفوس، وينحط بدرجة السوء، فيقبحه فى النفوس.

الحديث فى جملته الأولى يقرر أن رعاية من تحت أيدينا من الرعية، محققة لليمن والبركة، جالبة لتعاطف الرعية مع راعيها.

والحديث فى جملته الثانية، يقر أن الفحش للشؤم، والبغض والنفور، خالق للتباغض واللجاج.

الجملتان خبريتان غرضهما الأمر فى الأولى، والنهى فى الثانية، وهما صالحتان للنصح والإرشاد، ودالتان على الرفق والشفقة بالخلق.

والحديث فى جملتيه الأخيرتين الخبريتين، يأمر بالصدقة، ويحض عليها ناصحًا مرشدًا.

والحديث ينوع الأخبار اتساعًا فى جانب ما تميل إليه النفس، وتحبه من اليمن، وزيادة العمر، وصون النفس من ميتة السوء، وتضييقًا مما تنفر منه النفس من الشؤم.

والحديث يكثف من معجم الخير فى اليمن، ومنع ميتة السوء، وزيادة العمر، فى مواجهة محاصرة معجم الشر، المتمثل فى جملة الشؤم، وهو أمر مقصود من ورائه إشاعة روح البركة والنعمة.

إن الحديث يقرر أن الإحسان إلى الرعية والملكة، وأن الصدقة التى تحيى النفوس المفتقرة، وبذل عموم الخير الذى هو عين البر - أمور تنتج نوعًا بديلًا من جنسها، وهو ما يبعث عن الاطمئنان إلى ناتج بذلها والتضحية بها.

فى الحديث أربع كنايات، عن طريق ما به يكون اليمن والبركة، وما به يكون الشؤم وانعدام البركة، وما به صيانة النفس من ميتة السوء، وسوء المصارع، وما به زيادة الأعمار؛ حقيقة وكيفًا.

والحديث حفى بحسن التقسيم، ولا سيما بين جملتيه الأولى والثانية؛ مما يخلق إيقاعًا جليلًا ناشئًا من تساوى كلمات الجملتين عددًا ووزنًا، وبينهما نوع سجع خفى من اختتام الجملة الأولى بصوت النون، والثانية بصوت الميم، على ما بينهما من تقارب واضح جدًّا.

وفى الحديث استثمار رائع لبلاغة الوقف، الذى يتحقق على رأس كل جملة، والوقف هنا مفيد فى الإعانة على تأمل معنى كل جملة، باعث على فحص الحقيقة المتضمنة فيها، معين على تمثلها وتصورها، وتحصيل معانيها.

والحديث – وإن استعمل المبتدأ فى كل جملة معرفة، مرتان معرفًا بالإضافة، ومرتان بالألف واللام – جاءت عامة كلية؛ تيسيرًا على تحصيلها بأى طريق، فحسن الملكة عامة، وسوء الخلق عام، والصدقة عامة، والبر عام، وهو محاولة للأمر بكل ما من شأنه تحقيق الخير فى الحياة، والنهى عن كل ما من شأنه أن يسىء إلى الحياة، وفيه استثمار لبلاغة التقديم، حيث افتتح بما يبعث على التفاؤل.

الحديث نص جامع فى الدلالة على عموم ما هو خير، والتحذير من عموم ما هو سوء خلق؛ ليفتح الباب أمام تأمل منزلة الأخلاق من جديد فى بناء الفكرة الإسلامية.

والحديث - وهو يدعو إلى الإحسان وينفر من سوء الأخلاق - يفتح الآفاق نحو عدد من الأصول الدعوية والحضارية، من مثل:

أولًا: توجيه الدعاة إلى العناية بالبعد الأخلاقى فى الشريعة، ومنزلته الراقية فى موازين التعبد لله تعالى.

ثانيًا: توجيه الدعاة إلى العناية بالوزن النسبى لما يصيب الإنسان فى جانب البشرى، والإكثار من التحفيز على الجوانب الخيرية فى الإنسان.

ثالثًا: توجيه الدعاة إلى التركيز على الكليات والحقائق المستقرة المتجاوبة مع الفطرة؛ حفزًا للنفوس على إتيانها والتزامها.

أما الأصول الحضارية، فتتمثل فى الحديث فيما يلى:

أولًا: توجيه العناية إلى ما به تحسين حياة الناس وتجويدها، سعيًا نحو جودة الحياة.

ثانيًا: توجيه الأنظار نحو دعم سياسات البر، وتنويعها، والتحفيز عليها، وتوسيع آفاقها؛ لكى ينخرط الجميع فى برامجها، ولا سيما أن كلمة البر – بحكم معناها – هى جوامع الخير.

ثالثًا: ضرورة دعم ثقافة العمل التطوعى، وتيسيره، والتشجيع عليه فى أوساط الشبيبة الإسلامية؛ ليتحول سلوكًا دائمًا مستقرًّا، ينهض بالأمة.

* * *

الوقت وتنمية الدنيا والآخرة

عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"من احتبس فرسًا فى سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه، وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة"** (تحفة الأبرار للقاضى البيضاوى، شرح مصابيح السنة للبغوى ٢/٦٠٢، كتاب الجهاد، باب إعداد إلى الجهاد، حديث ٩٥-٢٩٢١).

هذا حديث من أحاديث الرجاء والأمل، بل هو من أرجى الأحاديث، وأكثرها تعزيزًا لروح الأمل فى النفوس الإنسانية.

وهو حديث يحسن التأتى للنفوس من الباب الذى تحبه؛ إذ النفوس مجبولة على الاستبشار، ومجبولة على حب المكافأة، وترقب الأجر العظيم.

والحديث مشغول بخطاب التعميم؛ توسيعًا لشريحة الذين يمكنهم أن ينالوا هذا الأجر الكريم، وحفزًا لطاقات المجتمع كله؛ لينعم بأثر ما ينفقه من خير فى سبيل الله تعالى، وهو بعض ما تؤديه "من"؛ بما يسكنها من عموم.

والحديث مشغول بتقدير أى شىء يقدمه الواقف أو المحتبس أو المتصدق، ولو كان صغيرًا تافهًا بمقياس الناس، وهو بعض ما يحققه استعمال: فرسًا نكرة فى هذا السياق.

والحديث مشغول بتتميم الكلام، عن طريق استثمار أشباه الجمل، التى تصنع نوع إطالة لكلام، مقصود من ورائها بيان الغايات، فالاحتباس مقيد بضرورة كونه أن يكون: "فى سبيل الله"، والإيمان مقيد بكونه: "بالله"، والتصديق مقيد بكونه: بوعده سبحانه.

والحديث يؤكد أثر الاحتباس وأجره بإن؛ دفعًا لتوهم المجاز أو المبالغة، وحملًا للكلام على الحقيقة؛ ليستقر أن الله سبحانه ضامن للأجر، مكافئ على الاحتباس فى سبيله، بأوفى ما يمكن أن يتصور العبد يوم القيامة.

والحديث كله جملة خبرية، غرضها الحض والحث على فعل الخيرات، والتحبيس فى سبيله سبحانه، وهو كذلك نصح وإرشاد للأمة جميعًا نحو ما ينفعها فى الآخرة.

والحديث حفى بالإطناب الذى يصنعه بمجموعة من التقنيات البلاغية واللغوية المتمثلة فى:

١- إيثار العطف بالواو فى مثل: إيمانًا وتصديقًا، وفى: شبعه وريه، وروثه وبوله.

٢- وتتميم الكلام باستعمال أشباه الجمل، فى مثل: فى سبيل الله، وبالله، وبوعده، وفى ميزانه، ويوم القيامة.

٣- وباستعمال المكملات، التى تعلل طبيعة الاحتباس المرجو من العبد، فى مثل استعمال المفعول لأجله فى: إيمانًا / وتصديقًا.

٤- وبإيثار التراكيب الإضافية فى: وعده / شبعه / ريه / روثه / بوله / ميزانه / يوم القيامة.

٥- وبإيثار التفصيل بعد الإجمال، فى الأفعال التى هى نواتج الاحتباس من الشبع والرى وغيرهما، وهذه الإطالة مقصود من ورائها الترطيب على قلوب المنفقين، وزرعًا للطمأنينة فى نفوسهم، على الأثر الكريم الموعود به من الله سبحانه.

والحديث بعد ذلك كله يغذى الفطرة الإنسانية، التى تحب العطاء الجزيل، وهو بعض ما يصنعه التفصيل فى (الشبع والرى والروث والبول)، مع أنها من لوازم الاحتباس، وهو بعض الدلالة على كرم الله سبحانه مع عباده الطائعين.

وفى الحديث كناية عن تفضيل الاحتباس القابل للنمو؛ حيث إنى أرى فى النص على الفرس، وهى أنثى الحصان، إشارة خفية إلى تفضيل تحبيس ما يقبل النمو والزيادة؛ استدامة للخير، ونشر المنفعة.

والحديث وهو مصمم من جملة اسمية، يديم الأجر مع الزمان، ويؤبد الحكم على امتداد الأجيال؛ حتى لا يقنط جيل من الارتباط بشريعة الوقف فى سبيل الله سبحانه.

وفى الحديث نوع طباق خفى بين: شبعه وريه من جانب / وبين روثه وبوله من جانب آخر، وغرضه بيان أن الله يجازى بالخير المحتبس الواقف على ما أوقفه فى كل وقت، وعلى كل حال من أحوال الموقوف فى سبيله سبحانه.

والحديث حفى بنوع بلاغة صوتية، ناشئة من إيثار أصوات الصفير، من السين فى احتبس / ورسا، وسبيل، والصاد فى تصديقًا، وفيه حسن تقسيم فى عدد من مقاطع الحديث، وفيه إيثار لنوع سجع داخلى من إيثار صوت الهاء فى خواتيم الكلمات والجمل.

الحديث يفتح بابًا واسعًا للدعوة إلى تنمية الدنيا بالأوقاف، وتنمية الآخرة بالجزاء المدخر فى الميزان.

وفى الحديث إشارات لعدد وافر من الأصول الدعوية والحضارية الجليلة، يظهر من أصول الفرع الأول ما يلى:

أولًا: الحديث يوجه الأنظار نحو ضرورة العناية بتربية الجماهير على العبادات الاجتماعية.

ثانيًا: الحديث يوجه الأنظار نحو ضرورة تعليق العباد بالآخرة، ودعم قضية الإيمان بالغيب.

ثالثًا: الحديث يوجه الأنظار نحو ضرورة تنمية الوعى بقيمة الإيمان الإيجابى المتعدى.

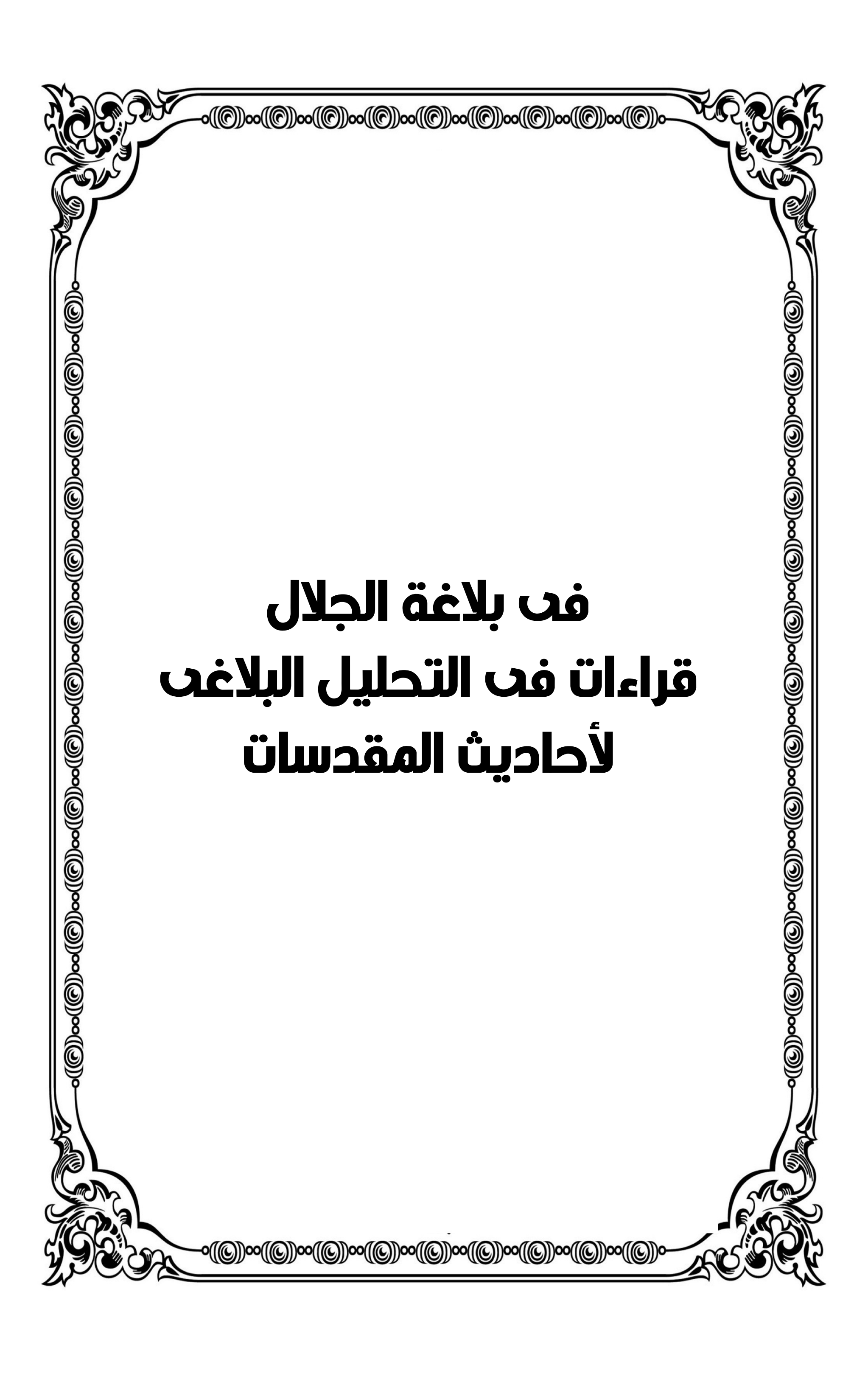
كما يظهر فيه من أصول الحضارية ما يلى:

أولًا: ضرورة تنمية الأوقاف الإسلامية، والتشجيع عليها، ونشر ثقافة الوقف، وأثرها فى بناء المجتمعات.

ثانيًا: الحديث يوجه نحو ضرورة استثمار الأوقاف؛ طلبًا لتكاثرها، ونمائها، ووضع الخطط الإستراتيجية لذلك.

ثالثًا: الحديث يوجه الأنظار نحو الاستثمار فى التغذية، وتربية الحيوان، وتشجيع البحث فى الحيوان؛ علمًا وتربية وطبًّا ... إلخ.

***



فى بلاغة الجلال
قراءات فى التحليل البلاغى
لأحاديث المقدسات

مصر لن تهون!

عن شريك بن عبد الله، أنه قال: سمعت أنس بن مالك، يقول: "ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به فى السماء فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب، فإذا هو مسك أذفر قال: ما هذا جبريل؟ قال الكوثر الذى خبأ لك ربك" (صحيح البخارى ١٣/ ٤٧٨، حديث ٥٧١٧، والابتهاج فى أحاديث المعراج لابن دحية ٤٧٩).

هذا حديث يرقى - بسبب هذا الزمان - لأن يكون من أحاديث الوقت؛ لأنه يعلن عن بعض منزلة مصر التى غفل عن فضلها كثير من أبنائها.

وهو حديث عجيب لما يصل سببها بسبب أعز ما فى الوجود وأغلاه! والحديث يوشك أن يكون دعوة ملحة لإكبار مصر، وتقدير أمرها، وأمر كرامتها، **وهو يدخل إلى ذلك جميعًا معتمدًا عددًا من التقنيات البلاغية:**

الحديث جاء فى هيئة حوار بين سائل ومجيب، والسائل كريم ﷺ، والمجيب لا يجيب عن تجربة أو خبرة وإنما عن وحى، وحى، وهو مفطور على فعل ما يؤمر به، يرد على قمة من قصدتهم الآية الكريمة ويفعلون ما يؤمرون، والجواب نوع فعل، فصح أنه أمر به!

ومقام الحوار - ولا سيما بين هذين السائل والمسئول تعيينًا - باعث على تقدير أمر قضيته؛ ارتقاء بجلالها، وفى استعمال اسم الإشارة (هذان)، واسم الإشارة بطبيعة مزدوج الدلالة، التى هى دالة على الشىء ومشيرة إليه، دلالة على المعاينة، بما يجعل أمر النهرين حقيقة، تدخل فى درجة اليقين العالية، وفى استعمال (النهرين) بدلًا أو نعتًا، توكيد للمقصود منهما، ودفعًا لتوهم ادعاء غيرهما.

وفى استعمال (يا جبريل) وتكراره نوع أنس به، وبيان كرامة للنبى ﷺ؛ بسبب من الصحبة والخدمة.

وقد جاء الجواب: هذان النيل والفرات عنصرهما، وهى جملة جواب مثالية ذكر فيها أركان الجملة على التمام والوفاء؛ تأكيدًا لحقيقة المعاينة، وفيه كناية عن شرفهما بسبب من نطق جبريل باسميهما، ومعاينته مع النبى ﷺ لهما، وجريان وانتظام ذلك الجريان فى الجنة وفيه نوع من أسلوب الحكيم؛ حيث زاد (عنصرهما)، والعنصر: أصل الشىء، وهو ما يعنى امتداد سبب هذين النهرين فى الأرض بأصلهما فى السماء أو فى الجنة، وفى ذلك كناية موسعة عن ضرورة العناية بهما، وتقدير أخطرهما، والجملة خبرية، فرضها حياطة النيل بالكرامة، وتقدير الأرض التى يجرى فيها، ورعاية فضلها، وقد صح أن الله سبحانه فضل بعض المكان على بعض، مما يلزم بنوها أن يعاودوا تأمل ذلك الفضل الموهوب من الله سبحانه.

والحديث بتصميمه منشئ للمعرفة، يريد تأسيس الوعى بقيمة هذين النهرين، اللذين يحتملان أن يكونا كنايتين عن موصوفين، هما مصر والعراق، وهو التأسيس الذى ينبغى أن نفرط فى تأويله وتأمله، اقتصاديًّا وسياسيًّا وإستراتيجيًّا وحضاريًّا.

وفى الحديث ربط لهما بنهر آخر بالغ النص فى الحفاوة به، وهو: الكوثر، وفى استعمال الصيغة دليل على الكثرة الفائقة، وهو معنى الصيغة دائمًا، وقد جاءت المبالغة من استعمال أشباه الجمل (عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد) الموصولة بالعطف، وهذه المحددات التى صنعت الطول، مقصود به تشريف هذا النهر؛ توصلًا لتشريف النبى ﷺ، وفى جملة: خبأ لك، كناية عن تفرد مقام النبى ﷺ، وموفور ما أعده لكرامته.

وفى الحديث كنايات متتابعات، خادمة للتقنية المعرفية والتشريعية، ففى جملته: عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، كناية عن فرادته ونفاسة معدنه، مع ما فى الجملة من قصر صنعه التقديم والتأخير، ومع ما فيها من تنكير قصر، مقصود به الارتقاء بشأنه، وبيان علوه، وفى جملة: ضرب يده: كناية عن حيازته، وإعلام بحصوله على المكانة المرموقة.

وهذا الحديث يفتح بابًا يمكن أن يسمى باسم بلاغة الجلال، تهجم عليك من الأناقة فى بيان مسرح الحادثة، وهى السموات الممتدة من الدنيا المذكورة إلى السابقة المحذوفة، بدليل نصوص أخرى، تجعل النيل من أنهار الجنة فى السماء السابقة، وتهجم عليك من

هذا الاستعمال؛ للإشارة بمعانيها من تحقق ناتج من المعاينة، ويهجم عليك من هذا الحشد للأحجار الكريمة، بما تبعث به من معانى الوفرة والغنى والنفاسة، ولا سيما الزبرجد واللؤلؤ، وهى معادن محاطة بالنبل والسمو والخير فى تراث مصنفات الأحجار فى الثقافة العربية، ويهجم عليك من هذه الروائح الشديدة بالغة العطرية الماثلة فى المسك، سيد المشحومات عند العرب، وفى قيام الرب سبحانه عليها متنعمًا متفضلًا بها.

الحديث كله يفتح الباب أمام دعوة المصريين فى هذا الزمان وما بعده، أن يحسنوا إلى الأرض التى يجرى أو يطرد فيها النيل، الموصول بأصله فى السماء العالية.

إن خير مصر متجدد دومًا؛ بدليل "يطردان"، والاطراد جريان بانتظام، وفى ذلك باعث على التفاؤل وعدم اليأس، وفى ذلك دافع على العمل، ولا سيما والأمل فى الترقى قائم يلوح فى الأفق.

والحديث يفتح الباب أمام مجموعة من العلامات الحضارية والدعوية المهمة، يمكن تأملها:

فمن جهة ما يخص الدعوة، فإن فيه العلامات التالية:

أولًا: الحديث ينبه إلى مسارات كثيرة لخدمة القضايا الإقليمية والمحلية، وأن ذلك من صميم الفهم الراشد للإسلام.

ثانيًا: ضرورة ربط الخطاب الدعوى بمشكلات الواقع التنموية والجغرافية.

ثالثًا: ضرورة التوسع فى موضوعات الدعوة، والتجديد فيها.

ومن جهة ما يخص البعد الحضارى، فالحديث ناطق ببعض علاماته، من مثل:

أولًا: ضرورة العناية بانبساط الأرض، وتمهيدها، والعناية بهذا.

ثانيًا: ضرورة العناية بالبيئة، ونقائها، وحفظ المياه، والعناية بالموارد الطبيعية التى تمدنا بها.

ثالثًا: ضرورة التنبه لصناعات التعدين، وتوظيفها اقتصاديًّا وإنشائيًّا وطبيًّا، ولا سيما أن تراث الأحجار عند العرب يربط بينها وبين بعض التطبيقات الطبية.

توفيق الفطرة

روى ثابت عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، أن رسول الله ﷺ قال: **"أتيت بالبراق، وهو دابة، أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يقع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء فيه خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال: جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء"** (شرح مصابيح السنة للبغوى ٢٨٢/٦، رقم ٤٥٧٨).

هذا حديث جليل جامع لعدد من أمهات المسائل الاعتقادية والإيمانية والعبادية والتاريخية والوطنية.

الحديث يتكلم عن رحلة تأسيسية فى استكمال أركان هذا الدين، بالنظر إلى صاحب البلاغ ﷺ، وما تلقاه فيها من تكاليف، وتأسيسية فى طبيعة الأمة الخاتمة وخصائصها الجامعة، وتأسيسية فى طبيعة الوطن الذى ينشده!

والحديث وهو يدخل إلى ذلك جميعًا يعتمد إجراءات بلاغية صانعة لفكرته، والبلاغة مؤسسة للمعرفة / منشئة للفكر، والامتاع معًا:

الحديث مثال للحدب والعناية بالعقل الإنسانى، وهو بعض ما يكشف عنه التعريف بالبراق؛ قطعًا لانصراف المتلقى إلى البحث عن دلالته ومعناه، إن جملة: وهو دابة، أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، صنعت هذه الرعاية لمقامات التواصل، ودفعًا لاحتمالات الانفصال؛ رعاية لعدم تشتيت المتلقى.

والحديث يراوح فى القص بين الوصف وفعل الرواية؛ وفاءً لإتمام تفصيلات الحادثة، وتحمل الأفعال لضمائر المتكلم العائدة إلى جنابه الرفيع ﷺ، يشيع جوًّا من الجلال، الباعث على التعاطف مع القصة وأحداثها، وهو بعض ما صنعه استعمال التاء المضمومة فى: أتيت / وركبته / وأتيت / وربطته / ثم دخلت / فصليت / ثم خرجت / فاخترت،

وهذه الكثافة لضمير المتكلم تجعل منه الشخصية المحورية فى القصة؛ طلبًا للارتباط بها من جمهور المتلقين؛ لمنزلته فى النفوس، فضلًا عن جو الألفة المختلطة بالهيبة؛ بسبب من تواضعه الجليل.

واستعمال الفعل المضارع فى: يقع / يربط، محقق لتمثل الحادثة، واستحضار التجدد الذى يصاحبهما، واستعمال الماضى فى بقية الأفعال صانع لليقين فى وقوع الحادثة، ولا سيما بعد أن جاء زمن شغب فيه نفر على الحادثة، وشغب على أمر وقوعها بالجسد!

وصممت جملة المفتتح على البناء للمجهول فى: أتيت؛ للخلوص إلى نقطة المركز فى القصة، وربما مع ذلك للعلم بالفاعل.

والإطناب فى تعريف البراق - بما يسمى فى برامج طرق شرح المعنى فى المعجمية، بالتعريف المحكم المعتمد على استجماع السمات الفارقة للمعرفة - هدفه صرف النظر عن الانشغال المفضى إلى الانصراف عن مركز القصة.

والإطناب فى بقية الجمل فى الحديث، خالق لأغراض متنوعة، منها التلذذ والارتقاء بقيمة بيت المقدس، وهو بعض ما يحققه تكراره فى لفظة المسجد، وهو بعض ما يحققه ذكر اللبن مرتين!

والحديث حفى بالتعريف فى البراق، والمسجد، و(ال) فيهما للعهد بنوعيه، وحفى بالتعريف بالمتضايفين فى: بيت المقدس؛ إعلانًا بمنزلته، ورعاية لمقامه.

وتقوم أشباه الجمل بدور فاعل فى هذا الإطناب لأغراض مختلفة، ففى: فوق الحمار ودون البغل، كان الغرض إنشاء معرفة مفضية للتواصل مع قضية الحديث الأساسية.

وفى: بالحلقة، وبها، وفيه، كان الغرض تمام الكلام من جانب، والتلذذ بذكر تفصيلات بيت المقدس، وما بورك حوله من أرض من جانب آخر.

وفى الحديث كنايات متوافرة: ففى جملة: يقع حافره عند منتهى طرفه، كناية عن شرف الدابة، وسرعتها، وفرادتها، وهو نوع مناسبة لشرف من سيركبها ﷺ.

وفى جملة: أتيت بيت المقدس، كناية عن ضرورة العناية بهذا المكان الجليل، ومع أنها جملة خبرية، صح أن تكون لغرض الأمر برعايته بسبب من هذه الزيارة، وهو بعض فهم فى استنباط الفقهاء من أمر وجوب تحريره.

وفى جملة: ربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء، كناية عن الأصل الجامع بين الأنبياء جميعًا، وأنهم إخوة، وأن ما جاءوا به يخرج من مشكاة واحدة.

وفى استعمال اللبن: نوع استعارة كاشفة عن قيمة الفطرة، وتجسدها فى النقاء، وفى ما يزيد فى الصحة، وينمى الذكاء والعلم.

إن الحديث بما يشيعه من أجواء جليلة تعين على تمثل الحادثة، يتحول كله إلى كناية موسعة للعناية بمحددات نقاء الفطرة، وتنمية العلم النافع.

والحديث مع كل ذلك يكشف عددًا من العلامات الدعوية والحضارية التى يمكن استلهامها فتنفع الحياة المعاصرة.

ومما يمكن استلهامه دعويًّا من وراء هذا النص الشريف:

أولًا: التأكيد على أهمية القصة فى الخطاب الدعوى المعاصر.

ثانيًا: ضرورة التأكيد على أهمية توافر محددات التواصل الفعال، ومحاصرة كل ما من شأنه قطع الاتصال بالجماهير.

ثالثًا: العناية بالإفراط فى التفهيم، وأن يكون للداعية حظ من المعارف العلمية والتقنية.

ومما يمكن استلهامه حضاريًّا - مما يسكن جمل هذا النص الشريف:

أولًا: أهمية العناية بوسائل المواصلات الجماعية وهو (دابة أبيض طويل)، وهو ما قد يسهم فى حل مشكلات الارتباك المرورى.

ثانيًا: أهمية فحص تأثير اللون الأبيض بيئيًّا ومناخيًّا، وهو بعض ما ينبه إليه وصف البراق بالأبيض!

ثالثًا: أهمية التوسع فى صناعات الأغذية، ولا سيما المتعلقة بما يمثله اللبن من مكونات غذائية.

***

كربة الزمان !

عن أبى هريرة رصى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: "لقد رأيتنى فى الحجر، وقريش تسألنى عن مسراى، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربًا ما كربت مثله، فرفعه الله لى أنظر إليه، ما يسألوننى عن شىء، إلا أنبأتهم به" (شرح مصابيح السنة، للبغوى/٦/٢٢٨، رقم٤٥٨١).

هذا حديث من الأحاديث التى يحتاج إليها، ولا سيما عند تراجع العناية بمشكلات الأمة، وعند غياب تحكيم رعاية مقامات الدعوة فى كربتنا فى الحياة.

والحديث - وهو يدخل إلى قضيته الأساسية المنتصرة لرفع راية الإسلام، وتثبيت دعائمه بين الناس - يتذرع بعدد من التقنيات البلاغية المتنوعة الموزعة على علومها جميعًا:

فى الحديث حفاوة بالقص والحكى، ملمح أسر بما فيه من مغازلة للنفس الإنسانية التى ترتاح إلى الحكى، وتأنس به ولا سيما والنبى ﷺ يقوم بوظيفة الراوى، وهو بعض ما يفسره النسبة المرتفعة لاستعمال ضمير التكلم فى: رأيتنى / تسألنى / ومسراى / وسألتني / وأثبت / وكربت / وما كربت / ولى / وأنظر / ويسألننى / أنبأت.

والحديث حفى بالوصف، وهو بعض ما يعين على استحضار المثال، والاستحضار أعون على المثيل، بما يحققه من اتحاد المتلقى مع قضية الحديث، وهذا بعض ما يفسره ظهور الأمكنة الجليلة التالية: الحجر / بيت المقدس.

وفى الحديث تطبيق عملى للتشويق الناتج من استثمار بنية القص، من البدء الماثل فى جملة: لقد رأيتنى فى الحجر، ومن التصعيد وصولًا إلى الذروة أو الأزمة: فكربت كربًا ما كربت مثله، وهو ما يحبس الأنفاس معه؛ من جراء ما يمكن تصوره، من انكسار الفكرة، وشغب المشركين السائلين، وسكوت النبى ﷺ، وعدم إجابته، ومن لحظة التنوير والانفراج الماثلة فى: فرفعه الله لى أنظر إليه، ما يسألوننى عن شىء إلا أنبأتهم.

وللقصة فى الحديث النبوى آثار جبارة فى الإقناع والجذب والتشويق؛ سعيًا نحو تحقيق المراد الإيمانى.

والحديث يراوح فى استعمال الماضى والمضارع؛ تحقيقًا لغرضين جامعين، هما:

أولًا: تحقيق اليقين من استعمال الماضى فى: رأيتنى / وسألتنى / وكربت / رفعه.

وفيه ملمح يشير إلى أن ذلك الكرب مضى، ولا سبيل إلى دعوته بعد الانتصار للدين، وعلو أمره.

ثانيًا: تحقيق الاستحضار، وتجدد معايشة ما به سعادة المؤمنين، وهو الأمر الذى يصنعه استعمال المضارع فى: تسألنى / أثبته / انظر إليها / يسألوننى / أنبأتهم، ومسألة استحضار التمثل مسألة عجيبة فاشية فى سمت كلام النبى ﷺ؛ غرضها تحقيق ربط الأمة المسلمة على امتداد التاريخ بالعصر النبوى الكريم.

وفى الحديث كنايات متضافرة خادمة لقضيته الإيمانية الدعوية، ففى: قريش تسألنى، كناية عن شوقها ورغبتها وتعجبها، وفى: كربت كربًا ما كربت مثله، كناية بالغة، لا عن حزنه فذلك واضح، وإنما عن خوفه من انكسار أمر الدين بسبب من الأشياء التى لم يثبتها من بيت المقدس، وعن تعالى أمر التعلق بالدين: ما كربت مثله، وفى: رفعه الله لى أنظر إليه، كناية عن مكانة النبى ﷺ عند ربه، ونصرته له، وكناية عما حازه من دلائل النبوة، وكناية عن القدرة الإلهية المعجزة فى تجاوز الأمكنة، ثم إن الحديث كله كناية عن تعظيم أمر نبينا ﷺ، والتسرية عنه بذهاب الهموم عنه، وإرادة نصرته، ثم هو كناية كاملة عن تحقق الإسراء بالجسد!

وفى الحديث عناية بالموسيقى التى تخدم القص، والتى يحققها مجموعة أمور متداخلة من مثل: تكرار استعمال صوت السين على مسافات إيقاعية مناسبة فى تسألنى / مسراى / سألتنى / المقدس ... إلخ، ومن الجناس الناقص، الذى يتجلى فى استعمال تصاريف السؤال، ومن استعمال إيقاع التكرار؛ بسبب من توظيف الراء على مسافات متناسبة فى: رأيتنى / الحجر / قريش / مسراى/ كربت كربًا ما كربت / أنظر، ثم من حسن توظيف السكت الذى تعانق مع ما سبق؛ ليخلق بالنحو موسيقى تعين على تحقيق مراد الحديث.

وفى الحديث إلحاح على تكثيف لغة القص تحقيقًا لانفتاح مخيلة المتلقى، وجذبه للاتحاد مع قضية الحديث بسبب من دعوته؛ لملء فضاءات النص، عن طريق إتاحة الفرصة أمامه لاكتشافها وتعيين معانيها، وهذا التكثيف ظاهر فى عدة ملامح، منها:

أولًا: إيثار العموم المتحقق باستعمال ألفاظ بعينها، من مثل: وقريش تسألنى عن "مسراى"، فمسرى مصدر، أو غير مصدر، لفظ عام هنا، يحتوى على عدد كبير من التفصيلات، مع العموم المتحقق أسلوبيًّا فى مثل: ما يسألوننى عن شىء؛ ذلك أن الفكرة فى سياق النفى دالة على العموم.

ثانيًا: إيثار استعمال الضمائر فى: أثبتها / ومثله / فرفعه / وهذا التوظيف للضمائر يعين على تنبيه المتلقى، وحمله على متابعة المقصود بهذه الضمائر.

ثالثًا: استعمال الحذف فى جملتى البناء للمجهول: كربت وما كربت، وفى البناء للمجهول خلوص إلى المقصد من جانب لأهميته، وتقدير للسبب المباشر الماثل وراء الكرب، وهو ما لم يثبته النبى ﷺ من أمر تفاصيل بيت المقدس، عندما سئل عنها، وتنزيه الله سبحانه من أن يذكر كربًا؛ بما هو خالق الكرب سبحانه، فالحديث مثال فريد لتقدير أمر العناية بمستقبل الدين فى مواجهة خصومه.

فى الحديث علامات كثيرة ظاهرة للاستثمار الدعوى والحضارى، نوجز منها:

أولًا: ضرورة التنبيه إلى أثر الحكى والقص فى دعم خطاب الدعاة؛ لما له من أهمية بالغة فى جذب الجماهير، وتشويقها، وإقناعهم.

ثانيًا: ضرورة التنبيه إلى أهمية تواضع الدعاة فى تعاملهم مع الجماهير، وهو بعض ما يثيره استعمال ضمائر التكلم بكثرة ظاهرة فى الحديث.

ثالثًا: ضرورة التنبيه إلى أهمية استعمال الوسائل المعينة فى الخطاب الدعوى، فليس من مانع من استعمال الصور والرسوم والخرائط والمجسمات.

ومن جانب آخر يفتح الباب أمام مجموعة من الملامح الحضارية، التى يمكن دعمها بهذا الحديث، من مثل:

أولًا: الدعوة إلى التوسع فى استعمال الأشكال المادية فى عمليات التثقيف والتعليم.

ثانيًا: الدعوة إلى التوسع فى توظيف الدراما بأنواعها المختلفة لخدمة القضايا الفكرية. وقضايا التنمية المختلفة.

ثالثًا: الدعوة إلى التواصل مع الآخر، وتقدير سؤالاته ومخاوفه، والتعاطى معها، بما يذهبها ويحقق الأمان والطمأنينة الفكرية لهذا الآخر؛ احترامًا لعقله ووجدانه.

* * *

الرفق بالخلق !

عن خالد بن معدان، قال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى رفيق، يحب الرفق، ويرضى به، ويعين عليه ما لا يعين على العنف، وعليكم بسير الليل، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، وإياكم والتعريس على الطريق، فإنها طرق الدواب ومأوى الحيات" (الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من القمل من السفر ٦١٢، والابتهاج فى أحاديث المعراج لابن دحية ١٣١-١٣٢).

هذا حديث من أحاديث الوقت، تفرض العودة إليه طبيعة المرحلة التى تمر بها بلادنا فى الوقت الراهن.

وهو حديث وثيق الصلة بأحاديث المعراج، وهو سر تخريج ابن دحية له فى كتابه الابتهاج فى أحاديث المعراج (ص١٣١) نصحًا لأمته، فإنه: "كما سار ليلًا أمر أمته بسير الليل"، والنصح منه ﷺ بعض وظيفته الجليلة والنبيلة على الأرض.

والحديث - وهو يدخل إلى قضيته - يتذرع بعدد من الإجراءات البلاغية المؤسسة والمنشئة لأفكاره فيما يلى:

الحديث معنى بالتوكيد؛ تحقيقًا لما يقرره من معرفة فى: إن الله تبارك وتعالى رفيق، وفى: إن الأرض تطوى بالليل، وأنها طرق الدواب، والغرض من ذلك كله حمل المتلقى على إنزال حقائق الحديث منزل الجد، لا منزل التهويل؛ حتى لا تفوته حقيقة القضية، وينتفع بها.

والحديث – وإن احتفى بالجمل الخبرية فى: إن الله رفيق / ويحب الرفق / ويرضى به ويعين عليه ... إلخ – يستهدف أغراضًا كثيرة، منها: النصح والإرشاد والالتزام بهذه النصائح، وربما كان الغرض هو الأمر بهذه المطلوبات، وتوكيد هذا الأمر بالعدول إلى الإخبار؛ توسعة لشريحة المأمورين فى الزمان والمكان.

وفى الحديث نوع إغراء ملموح فى عبارة: وعليكم بسير الليل!، ترغبنا فى فوائده من طلب تخفيف مشقة السفر وعذاباته، وفيها كناية عن سابق خبرة، استفادها من رحلته الإسراء.

وفى الحديث نوع تحذير وإنذار فى: إياكم والتعريس، وغرضه الشفقة بالأمة من أن يلحقها أذى بسبب من النزول بالليل.

والحديث فى كل مطلوبه حريص على التعليل؛ دعمًا للمطلوب، وإعانة على الاقتناع به، وهو الأمر الذى ظهر بعد: عليكم بسير الليل، فى جملة: فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، ويصل إياكم والتعريس فى جملة: فإنها طرق الدواب.

وفى الحديث حفاوة ظاهرة بالوصل تكثيفًا لقضيته، وهو الناشئ من استعمال العطف بالواو، الذى يصنع من التكرار، واستعمال المكملات نوع إطناب يناسب موضوع الحديث.

وقد قام البديع بعدد من إجراءات الدعم لقضية الحديث، بما بثه من جماليات صوتية، ومعنوية، تراها فى الجناس بين: رفيق / ورفق / وطرق، وتراها، فى الطباق بين: الرفق العنف، ولا سيما السلبى منه فى: يعين عليه / ما لا يعين، وتطوى بالليل / ما لا تطوى بالنهار، وهذه المحسنات تدعم المعنى، وتصنع شفافية دلالية ظاهرة.

وفى الحديث عدد من الكنايات التى ترغب فى قضية الرفق، وقضية التيسير على الخلق، بدلالتهم على ما يخفف من عناء حياتهم، فجملتا: يحب الرفق ويرضى عنه، دالتان على نفع الرفق ومنزلته، وفى جملة: يعين عليه، كناية عن يسره وسهولته، وموافقته لأصل الخلقة.

وفى الحديث كناية موسعة عن استحباب التيسير على الناس، وفيه كناية موسعة عن أمانة البلاغ منه ﷺ؛ إذ حرص على نقل ما جربه من سفر الليل فى الإسراء.

وفى الحديث عناية باستعمال المعرفة "بال" فى الرفق والعنف والأرض والليل والنهار والطريق، والدواب، وهو استعمال يستهدف العموم والاستغراق؛ إذ هى فيها جميعًا للجنس؛ تحقيقًا للأمر بكليات ما ينفع، والنهى عن كليات ما يضر، فالحديث يدفع نحو

كل ما يسمى رفقًا، لين الجانب، ولطف محل، وينهى عن كل ما يسمى عنفًا، جفاء نفس، وقسوة فعل.

والحديث يلمح إلى نوع من سلامة الحياة، وحمائية المخلوقات جميعًا، بعدم التضييق على الإنسان، بتجنيبه ما يمكن أن يعرضه لأذى الحيات، أو هوام الدواب. وفى الحديث كذلك نوع مجاز مرسل فى الحيات؛ إذ المراد التحذير من كل هوام الأرض، فأطلق بعض أنواعها وأراد جميعها، وإنما فعل ذلك استعمالًا للمشهور منها.

والحديث مثال رائع لما يعرف فى البلاغة النبوية بالخلوص الى القصد، وهو ما تجلى فى كثرة التعليل؛ حملًا للمتلقى على قبول القضية، والتعليل هنا تحقق بجمل خبرية كثيرة، وتحقق باستعمال الجملة الفعلية المبنية للمجهول فى تطوى بالليل، ما لا تطوى بالنهار!

الحديث عنوان مستقر لمراد مركزى يحرص الإسلام عليه، وهو الرفق بالخلق؛ ليبقى ما جاء به النبى ﷺ هو العنوان الأسمى لخير الإنسانية.

والحديث وهو يستعمل البلاغة تأسيسًا لنوع معرفة وحضارة راقية، يلمح إلى عدد من العلامات الدعوية والحضارية.

ففيما يخص البعد الدعوى يظهر الحديث ما يلى:

أولًا: ضرورة العناية بالمنظومة الأخلاقية العملية والسلوكية، وترسيخها فى المجتمع.

ثانيًا: ضرورة العناية بمحددات تهذيب النفس وتزكيتها، بما هى الأساس الأعلى فى التصور الاسلامى، وباعتبارها غاية.

ثالثًا: وجوب تصوير الفكرة الإسلامية فى يسرها، ورفقها بالناس.

وفيما يخص البعد الحضارى تتكشف من تحليل الحديث العلامات التالية:

أولًا: ضرورة العناية بمؤسسات الرعاية، ودعم ثقافة الرفق واللطف، والتسامح.

ثانيًا: ضرورة دعم بحوث علوم الزمن وعلوم المكان؛ سعيًا نحو التسيير على الناس.

ثالثًا: ضرورة التوسع فى عمليات العمران، وإنشاء الطرق، وخدمتها صحيًّا وأمنيًّا وعمرانيًّا.

***

الكرامة المتوافرة للنبى ﷺ !

عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **"فرج عنى سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله بما زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه فى صدرى، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى، فعرج بى إلى السماء"** (شرح مصابيح السنة للبغوى ٦/٢٨٤، رقم ٤٥٧٩).

هذا حديث عجيب فيما يثبته من كرامة النبى ﷺ، وفيما يذيعه من شرف سابغ أحاط بمقامه ومنزلته ﷺ.

والحديث - وهو يكشف عن هذه الكرامة - يتذرع بعدد من الإجراءات البلاغية المتنوعة الموزعة على علومها جميعًا:

يدخل الحديث إلى موضوعه بنوع مناسبة أو تناسب؛ إذ تصميمه فى صورة قصة قصيرة؛ لأنه يحكى حادثة جليلة، وقعت فى الزمان، وتعلقت بها أفئدة المسلمين، فكان اختيار القص لمناسبة مواجهة حادثة يحتاج إلى سردها؛ تحقيقًا لأنس متشوف إليه من المتلقى المسلم على امتداد الزمان.

وقد تحققت عناصر التشويق بدءًا من المفتتح المثير، المتمثل فى عبارة أفرج عنى سقفى وأنا بمكة، حيث صنع بهذا المفتتح إثارة مرتفعة الإيقاع، ثم أعقبها بعناصر التنوير، بداية من جملة: فنزل جبريل، ففرج صدرى / ثم غسله، ثم جاء بطست ... فأفرغه، ثم أطبقه ... ثم أخذ بيدى، فعرج بى إلى السماء.

وقد كان الإسراع بلحظة التنوير؛ تحقيقًا لمقام طمأنة نفوس المتلقين، بعد إذ بدا من المفتتح ما يمكن أن يمثل فزعًا على مقام النبى الكريم ﷺ.

وفى الحديث حفاوة بالغة بالوصل؛ سعيًا نحو تقديم قصته متكاملة، تذوب فيها تفصيلات الأحداث؛ لتصنع حدثًا كليًّا، يقوم بالوفاء بالمراد منه، وهو الوصل الذى تحقق بالمراوحة بين استعمال الفاء وثم العاطفتين.

وفى النص نوع إطناب جلى، صنعه الحرص على مثالية التراكيب، واستكمال عناصرها جميعًا، فضلًا عن العناية بذكر الأماكن التى صنعت جلالًا، يتسرب إلى النفوس؛ بسبب من قدسيتها أو تعاليها، وهو بعض سر ذكر: مكة وزمزم والسماء!

والحديث حفى باستعمال الفعل الماضى تحقيقًا لمسألتين جامعتين، هما:

أولًا: تأكيد حقيقة وقوع شق الصدر، ووقوع العروج به ﷺ.

ثانيًا: تحقيق استحضار الحادثة بتفصيلاتها الدقيقة، إعانة على معايشتها واستشعار جلالها.

وفى الحديث كنايات متوافرة ومتضافرة مقصودة، ففى: فرج عنى سقف بيتى، كناية عن علوية الحديث، وارتباطه بمراد الله العلى سبحانه.

وفى غسله بماء زمزم كناية عن تنقيته من حظوظ الدنيا، ومن احتمالات إصابته بما تصاب به قلوب الخلق من آثام أو ذنوب!

وفى: أفرغه فى صدرى، كناية عن امتلاء قلبه ﷺ بالوحى ومقتضياته من العلم والحكمة والربانية، وفى: استعمال الذهب، كناية عن تمام الملك فى وفرة الثروة والغنى. وفى: أطبقه، كناية عن دوام هذه وحفظها، وعدم تعرضها للضياع. وفى: أخذ بيدى فعرج بى، كنايتان متداخلتان عن إرادة السماء تشريف مقامه ﷺ وتكريمه.

ثم فى الحديث استعارة تؤسس معرفة وتنشئها فى جملة الحديث: ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، بما يجعل من الحكمة والإيمان مواد نفسية متجسدة. وفى الجملة نوع إشارة إلى أهمية حفظ المعرفة والحكمة، وعدم التهاون فى أمر هذا الحفظ، والعناية بمواد حفظه، بدليل الطست الذى من مادة الذهب!

وفى الحديث نوع انسيابية وسلاسة، مبعثها تعاقب الأحداث المعبر عنها بأفعال ماضية ثلاثية فى الغالب، ومن باب فعل فى الغالب كذلك، وهو سر هذه الانسيابية؛ بسبب من سهولة توالى حركات الفتحة القصيرة فى: نزل / وفرج / وغسل / وجاء / وأخذ / وعرج.

والحديث يلح على العناية بمحددات التصوير البصرى؛ إعانة على معايشة الحدث؛ ذلك أن الأفعال المستعملة مسكونة بدلالات حركية خالصة لهذا التصوير البصرى المختلط بقيم صوتية سمعية، فى: فرج / نزل / وغسل / وأفرغ / وأطبق / وعرج، ولا سيما مع تمثل شخصية الراوى ﷺ بكل جلال الحادثة، واقتناصها مجسدة من عمق التاريخ، وهو بعض ما يكسبها حيوية وتدفقًا.

إن الحديث بتصميمه ولغته وتقنية السرد فيه، مثال فريد على الإمكانات التى يمكن أن يؤديها القص للمعرفة، إنشاءً وتأسيسًا وإقناعًا، والحديث مع كل ما مر، يفتح آفاقًا رحبة لاستثماره حضاريًا ودعويًا؛ ذلك أنه يقدم مجموعة من الأبعاد الدعوية يمكن استلهامها من مثل:

أولًا: التنبيه على أهمية الحكاية والقصة فى الخطاب الدعوى المعاصر؛ دعمًا لجذب الجماهير، وتشويقهم؛ ليرتبطوا بمضامين الخطاب.

ثانيًا: التنبيه إلى أهمية الفنون والأجناس الأدبية للدعاة؛ بما تقدمه من إمكانات ترقى بعمليات التواصل مع الجماهير، ولا سيما الفنون المتداخلة مع الدراما والمسرح.

ثالثًا: ضرورة العناية بموضوعات الدعوة؛ سعيًا نحو تحقيق المناسبة أو التناسب؛ ذلك أن بعض الأزمان يناسبه بعض أنواع الموضوعات التى تخلق تهيئة ذاتية.

ومن جانب آخر يفتح الحديث الباب أمام عدد من الأبعاد الحضارية المادية، من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى العناية بالأعمال القصصية والدراسية؛ خدمة للمفاهيم الإسلامية، تنويعًا واستجابة لروح العصر، بما هو عصر صورة بامتياز.

ثانيًا: ضرورة التنبيه إلى إيجاد صيغة معاصرة لتحويل قصص السيرة والسنة النبوية المطهرة إلى أعمال درامية ومسرحية بطرق جمالية آسرة، وتقنيات جودة عالية؛ خدمة لتربية الجماهير على قيم الإسلام وتاريخه ورموزه الشخصية والمكانية.

ثالثًا: ضرورة التفكير الجدى فى تطعيم مقررات الدراسة فى مراحل التعليم العام بنصوص السنة المطولة، التى تستعمل تقنية القص، وتحليلها نقديًّا وأدبيًّا وجماليًّا، بما يناسب لغة العصر وطبيعته.

* * *

معجزة خالدة

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** ﷺ: **"لما انتهينا إلى بيت المقدس، قال جبريل بأصبعه، فخرق بها الحجر، فشد به البراق"** (شرح مصابيح السنة ٣٥٦/٦، حديث ٤٦٣٧).

هذا حديث عجيب فيما يقرره، وفيما يثبته من حقائق، وهو بعض ما يحتاج إليه النظر المعاصر، الذى تصور فيه بعض الناس أنه عصر غير مسبوق، فيما وصل اليه من العلم وتطبيقاته.

لقد أورده غير واحد من المحدثين فى باب المعجزات، وهو باب ممتد الأثر، ممتد الوظيفة على تعاقب الزمان، ولا سيما أن مقامات الشك قائمة فى كل عصر.

والحديث وهو يدخل إلى بيان قضيته المنتصرة للتدليل على كرامة النبى ﷺ، وما أحاط به من علامات هذه الكرامة فى غير ما حادثة أو موقف - يعتمد عددًا من الإجراءات البلاغية:

الحديث يعتمد تقنية القص، يقوم فيها النبى الكريم ﷺ، بدور الراوى، وهو مبعث الجلال الذى أحاط بالكلام، فجذب إليه المتلقين، وهو بعض ما يوحى به الابتداء بلما الحينية المشفوعة بالفعل الماضى انتهينا، وهو بعض ما يملأ النفس بتخير زمان يشغل حيز الوقت قبل الوصول الى بيت المقدس، وهو الفراغ الذى يعين على تمثل الحادثة واستحضار عناصرها، وتخيل حركة شخصياتها، وفضاءات أماكنها، فتزداد جلالًا إلى جلالها.

والحديث يذكر نقطة نهاية رحلة الإسراء، بدليل إلى التى لانتهاء الغاية، مما يعين على تمثل نقطة البداية من البيت الحرام، واستعمال الفعل مسند إلى نا الدالة على الفاعلين، تستهدف بيان جماعة المشاركين فى الرحلة .. شخص النبى ﷺ وجبريل عليه السلام والبراق.

وفى الحديث نوع مجاز وتوسع من استعمال قال، بمعنى أخذ أو أشار، والمعجمية العربية تقرر أن الفعل قال يستعمل فى معان كثيرة تجوزًا وتوسعًا، والذى كشف عن هذا التوسع هو استعمال شبه الجملة بأصبعه، بما فيها من توظيف للباء الدالة على الاستعانة، وفيها كناية عن النور الخارق الذى انطلق من أصبع جبريل، بدليل جملة فخرق بها الحجر.

والحديث حريص على متابعة شغف المتلقى، حريص على الاستجابة لمحددات أنسه بالحكى، وهو ما يكشف عنه استعمال حرف العطف الفاء، الدال على السرعة والمتابعة والترتيب، على ما يظهر من: قال بأصبعه، فخرق بها الحجر، فشد به البراق.

والحديث بهذه الفاء صنع وصلًا لطيفًا، جعل منه قطعة واحدة متتابعة الأحداث سريعة الإيقاع، وهى سرعة مناسبة لسرعة وقوع الرحلة الميمونة العظيمة، ولعل تتابع الأصوات الشفوية والشفوية الأسنانية، يصنع نوع سرعة فى الحكى، وهو بعض ما يفسر النسبة الإحصائية لتكرار صوتى الباء والفاء.

والحديث حريص على الإطناب الذى يصنعه استعمال محددات بلاغية متنوعة، من مثل:

١- الحرص على الذكر، وبناء الجملة بناء نحويًا مثاليًّا مكتمل الأركان، حيث جاء جملة جميعا مبنية للمعلوم، والذكر هنا يحقق أيضا الأنس بالمذكورين لجلال مقاماتهم.

٢ – الحرص على ذكر متعلقات الأفعال، وهى أشباه الجملة الكثيرة فى: إلى بيت المقدس، وأعانت على تمثل المعجزة التى حدثت.

ومما ينبغى التنبه إليه التنويع فى استعمال الضمائر، من التكلم إلى الغياب، تحقق نوع حيوية متدفقة، انسربت فى أوصال القصة، وميزت بين الرواية والوصف.

الحديث كله نمط من بلاغة الجلال، يكشف عن حياطة المقام النبوى الكريم بصنوف المعجزات؛ دعمًا لنبوته، وتثبيتًا لجنانه، وتسلية لروحه، وإسكاتًا لخصومه، وتنقية لصفوف الذين أعلنوا متابعته، وهو بعض ما يحتاج إليه المجتمع المعاصر فى مسيرة الإيمان به ﷺ، وبما جاء من وحى نبيل.

ومع هذا التحليل البلاغى الكاشف عن حقائقه والمؤسس لمضامينه، يلوح منه بعض الأبعاد الدعوية والحضارية التى يمكن أن تكون منارًا على الطريق.

وفيما يلوح من أبعاده الدعوية ما يلى:

أولًا: تنبيه الدعاة إلى أهمية استعمال القص فى دعوة الجماهير؛ جذبًا لنفوسهم، وتأثيرًا فى وعيهم.

ثانيًا: ضرورة التنبه إلى أهمية الغيب، بما هو مفردة أصيلة فى البناء الايمانى والاعتقادى للمسلمين، وإسهامًا فى التخفيف من أعباء الحياة، وضغوط الدنيا.

ثالثًا: أهمية التأكيد المستمر والدائم على مراجعة دراسة السيرة النبوية، وفق مطالب كل جيل.

وفى الوقت نفسه يفتح هذا الحديث وأمثاله الباب أمام عدد من العلامات الحضارية المهمة من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى استعمال الفنون المختلفة فى عمليات بناء الوعى وتغيير المدركات.

ثانيًا: التوسع فى بحوث الأشعة والضوء، وتوظيف ذلك لتذليل المادة.

ثالثًا: التوسع فى بحوث الثروة الحيوانية، وتنوعها.

رابعًا: التوسع فى تطبيقات النقل النظيفة.

خامسًا: التوسع فى تطبيقات استعمال الأحجار، والتصنيع منها.

سادسًا: التوسع فى المنجزات المادية الحضارية التى تصنع من المادة الطبيعية.

* * *

إيذاء الخلق طريق لإحباط الأجر !

عن أبى هريرة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبى ﷺ، قال: "المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف" [صحيح مسلم حديث ١٣٧١، وأحاديث فضل المدينة، ص ٧٣، حديث ١٧].

هذا حديث يصح أن يوصف بالإمام؛ لأنه بفتح الباب أمام حقيقة مستقرة، طالما ألح الإسلام على العناية بها ورعايتها، تتمثل فى سد المنافذ فى مواجهة إيذاء الخلق، وحسبانه طريقًا لإحباط العمل، وسقوط الإنسان الذى يركن إلى إيذاء الناس!

صحيح أن الحديث مروى فى أبواب فضل المدينة المنورة، لكن حقيقته عامة، تتعلق بالإنسانية جميعًا، وإن زادت درجته، وارتفعت منزلته فى تقدير فضل هذه البقعة الطاهرة.

والحديث - وهو يسعى إلى خدمة هذه القضية التشريفية - يستثمر عددًا من الإجراءات البلاغية؛ من أجل تأسيس المعرفة التى يحملها:

فتصميم الحديث قائم على اتخاذ الجملة الاسمية: (المدينة حرم) محورًا ومركزًا، يمثل عمود صورته، وأساس بنائه، واستعمال المدينة معرفة بال صنع إطلاقًا عينها به، وجددها، فصارت علمًا لا سبيل للشغب عليها، وجاء الخبر عنها: (حرم)، متضمنة معنيين ظاهرين جمعًا لها: معنى الحرمة والمنع، معنى الطهر والقداسة؛ باعتبار الأصل المركوز فى الجذر اللغوى.

وهذه الجملة الخبرية فجرت عددًا من الأغراض البلاغية المكتنزة، فهى أسست حقيقة أمرها، وهى حضت وحثت ودفعت إلى تشريفها والتعلق بها، والحنين إليها بما جمعته لها من الجلال والطهر، وهى تستهدف الأمر؛ إذ تأمر أن يرعى حرمتها السامعون، وهى كناية بعد ذلك كله عن المنزلة الرفيعة التى تحوزها، ومن ثم صح أن تكون الجملة الخبرية متوجهة إلى النصح والإرشاد إلى مقامات وحياطتها ورعاية شرفها.

ثم تأتى الفاء فى جملة: فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا؛ لتصنع وصلًا، يقع بمنزلة التعقيب الشارح لجملة المفتتح، وهو تعقيب تذرع بالشرح لأجل توكيد حقيقة حرمة المدينة، والعطف بأو حقق نوع تزاحم للمعنى، فهى محمولة على التخيير، وهو ما يعنى أن ارتكاب أحد الجرمين كفيل بتنزل اللعنة، وهى صالحة للجمع غير الإحصائى، وهو ما يعنى ترتب اللعنة على أى أحد يرتكب أى شكل من أشكال إيذاء الخلق، إيجابيًّا بالعمل أو سلبيًّا بتقديم المعونة.

وفى استعمال: "من" الشرطية، حرص على الاتساع فى منع الإيذاء الصادر من الأفراد أو الجماعات من الرجال أو النساء، وهو بعض ما يحققه معنى العموم المركوز فيها، وقد حرص الحديث على بناء الحديث على تمام جمله، وهو ما يسمى بالبناء المثالى، بمعنى الحرص على ذكر عناصر الجملة جميعًا، فجاء الفعل والفاعل (وهو ضمير مستتر للعموم) والمفعول به، وهذا التمام النحوى مقصود منه دفع التوهم؛ ذلك أن استعمال الفعل أحدث بلا مفعوله، ربما ينصرف إلى معنى آخر غير المقصود هنا، ومقصود منه تمام الإيضاح لجلال الموقف، وخطر القضية.

ثم جاءت جملة الجواب مقترنة بالفاء: فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، وفى استعمال إسراع حرف الجواب، وفى التقديم والتأخير استجابة لشأن المتلقى المنشغل بالنتيجة، واستعمال حرف الجار: على مفيد فى استغراق اللعنة، وتسلطها الكامل على من تحق عليهم، وفى إضافتها إلى لفظ الجلالة تضخيم، وتخويف من أمرها.

وفى العطف بالواو زيادة فى التخويف منها، واستعمال "ال" فى تعريف الناس هنا إما للجنس، بمعنى أن ذلك لا يكون إلا من استحق الوصف بالإنسانية لتعقله وسلامة فطرته، وإما للعهد، بمعنى أن الناس الذين يلعنون الأشرار هم المؤمنون الصالحون المستجيبون لله تعالى.

وقد خلصت الواو العاطفة لمعنى مطلق الجمع، ولم تخرج إلى غيره بقرينة استعمال كلمة "أجمعين" حالًا.

وقد ختم الحديث الشريف بتعبير اصطلاحى، وهو: "لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف"، يدل على محق الأعمال جميعًا الصادرة ممن يتوجهون إلى المدينة أو أهلها بالإيذاء أو المعاونة على الإيذاء، وقد تحقق هذا الشمول من استعمال نوع عزيز من الطباق، يسميه بعض رواد الدرس اللغوى المعاصر باسم: طباق الاستغراق، وهو الظاهر من استعمال العدل والصرف متجاورين؛ بقصد نفى قبول أى عمل صادر من المحدثين،/ أو من يعينهم بشكل عام، وفى استعمال الفعل: يقبل مبنيًّا للمجهول؛ تنزيهًا لمقام الله تعالى أن يذكر فى سياق هو إلى العذاب والغضب أقرب، وفى استعمال الفعل نفسه مضارعًا إمارة استمرار وتجدد، يحيط بكل الأشرار الذين عناهم الحديث الشريف.

والحديث حفى باستعمال عدد من التقنيات البديعية المعينة على تحقيق مراده؛ ففيه نوع سجع خفى لطيف، يأتى من الوقف على نهايات الجمل المنونة فى: حرم / وحدثا / ومحدثًا، وفيه نوع جناس بين أحدث، وحدثًا، ومحدثًا، وهو - فضلًا عما حققه من جماليات إيقاعية مؤثرة فى النفس من طريق السمع - حقق نوع توكيد، بتركيز القول فى نوع الإيذاء المنهى عنه؛ حملًا للذهن على تأمله عن طريق التكرار.

إن الحديث يعالج قضية دائمة، وغير مؤقتة، ولا يصح أن يفهم منه انحصاره فى أمر المدينة المنورة، وأهلها فقط. إن الحديث يعلى من حرمة المدينة، وشرفها، وحياطة من لجأ إليها بالرعاية الكاملة بدرجة أساسية، لكنه لا يغلق الباب على ما دونها من أرض الله تعالى من البلدان التى يسكنها أهل الإسلام، أو غيرهم من أهل الزمان.

والحديث وهو يخلص فى خدمة قضيته، بما رأيت من أمر هذا التصميم اللغوى المحكم، يفتح الباب أمام عدد من العلامات الدعوية والحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى المعاصر بقضية تأمين الخلق؛ باعتبارها من المقاصد الكلية، وإعطائها وزنًا نسبيًّا مرتفعًا فى المحاضن الدعوية المختلفة.

ثانيًا: ضرورة تحصيل الدعاة للمعرفة اللغوية، وتنوعها، والفروق المهمة فى تكوين النصوص تبعًا لموضوعاتها.

ثالثًا: ضرورة تعلم الدعاة لطرق الأداء المؤثرة والمقنعة معًا، والمستصحبة للجماليات الموسيقية الفطرية.

رابعًا: الحديث يفتح الباب أمام فحص تاريخ تكون المدن الإسلامية، وفلسفة حمايتها من المجرمين.

خامسًا: حاجة المجتمعات المعاصرة إلى تطوير منظومة القوانين التى تتشدد فى أمر تحقيق الأمان للناس، وملاحقة المحدثين والمتعاونين مع المحدثين ومطاردتهم.

سادسًا: ضرورة التوسع فى دراسات التخطيط العمرانى على هدى من مراعاة التأثير النفسى الإيجابى للمواطنين، بما يحقق راحتهم وأمنهم وسكينتهم.



العمران مشغلة الانبياء !

عن أبى هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **أن النبى** ﷺ، **قال: "اللّٰهم إن إبراهيم خليلك ونبيك، وإنك حرمت مكة على لسان إبراهيم، اللّٰهم وأنا عبدك ونبيك، وإنى أحرم ما بين لابتيها"** (سنن ابن ماجه، حديث ٣١١٣، وأحاديث فضل المدينة، ص ٧٥، حديث ١٩).

هذا حديث مثال فى تأتيه لمطلوبه وسعيه لمراده، مثال فى احتشاده بالوسائل المختلفة؛ طلبًا لحج غايته الأساسية التى يستهدفها، ويتطلع إلى الحصول عليها.

وقد جاء الحديث فى تصميم بديع، جمع صنوف الأدلة، وأنواع التعطف لله سبحانه من أجل الظفر بسؤله ومطلبه.

وقد اعتمد الحديث الشريف على قائمة متنوعة بين الوسائل البلاغية الموزعة على علومها المختلفة؛ من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة:

الحديث يدخل إلى مطلوبه بجملة إنشائية دعائية، استعملت لفظ الجلالة منادى محذوف الأداة؛ للإشعار بالقرب منه، والإشعار بمعرفته سبحانه، وقد زاد الأمر جلالًا استعمال صبغة قديمة عريقة للفظ الجلالة، على ما يقرر علم اللغة المقارن، وعلى ما يقرره علم الساميات!

وغرضه هنا التأتى لمطلوب، وإحسان التوجه لله تعالى، ثم جاءت جملة: إن إبراهيم خليلك ونبيك: خبرية مؤكدة بإن، طويلة الخبر بالعطف، وهى من أندر الأساليب الخبرية، التى تأتى للاستعطاف بدليل سياقى حققه الافتتاح بالدعاء، ومثل ذلك تحقق بجملة: وإنك حرمت مكة على لسان إبراهيم، متعطف إليه سابقة تشريعية أسندها إليه سبحانه؛ ليقرر أن مطلوبه القادم حبيب إلى الله تعالى، مستقر فى شريعته القديمة، فتحقق بجملة الإخبار هذه التلطف للمطلوب، بسوق ما يحبه الله تعالى من الأمر بين يدى الرجاء والدعاء بتأمين المدينة، وتحريمها.

وفى تكرار إبراهيم مزيد استعطاف، وإعلان يشبه التوسل بمقامه الجليل فى مفتتح المطلوب، وفى استعمال أن مرتين مع الفعل المضعف العين الماضى: حرم، فضل تقوية وتوكيد، يجعل المطلوب القادم أمرًا مألوفًا أحرى بالاستجابة له. وربما حذفت جملة جواب الدعاء للعلم بها، واستبطانها فى جملة: إن إبراهيم خليلك، وإنك حرمت مكة، وهو نوع حذف مناسب لمقام الإقبال على الله تعالى، وفى إسناد فعل التحريم إلى الله تعالى باستعمال "تاء" المخاطب؛ ترقية للمطلوب وحسن تأت له، وقد تكررت العناصر اللغوية الدالة على الإقبال على الله تعالى بصورة كاملة، فادعاء واستعمال كاف الخطاب فى خليلك، ونبيك، وإنك، والتاء فى: حرمت، قرائن لفظية، تدعم ما نقرره.

ثم يعود الحديث فيستعمل الجملة الإنشائية المفتتحة بالدعاء باللفظ العريق: اللّٰهم مرة أخرى فى جزء الحديث الأخير؛ توكيدًا لمعنى الاستعانة واللجوء إليه سبحانه فى مطلوب المرء وسعيه، وجاءت جملة: وأنا عبدك ونبيك جملة خبرية، بالغت فى الانكسار والاستعطاف بين يديه سبحانه، وأدلة الانكسار بادية من الفصل بين لفظ المنادى والجملة بالواو التى لم ترد فى مثيلها فى جزء الحديث الأول، وفى استعمال ضمير المتكلم الظاهر مفردًا غير مؤكد، وفى تقدم لفظ: عبدك قبل نبيك، وقد خرجت الواو هنا من مطلق الجمع إلى الجمع والترتيب بقرينة المقام.

وقد صممت الجملة على ما ترى؛ توصلًا للمطلوب، بإظهار الافتقار إلى الله تعالى، بإظهار الذلة له، والانكسار بين يديه، وتمام الخضوع بإعلان العبودية له.

ثم جاءت جملة المركز، التى كان كل ما سبق تمهيدًا لها، وسعيًا إليها، وهى جملة: وإنى أحرم ما بين لابيتها؛ وقد جاء التوكيد لتحقيق الإلحاح فى الدعاء والطلب والرجاء، وقد ظهر واحد من آداب الدعاء فى هذه الجملة، وهو الدعاء بكل ما هو عام، وهو ما يتجلى من استعمال: "ما" اسم موصول دال على العموم؛ ليشمل مطلوبه بحرمة المدينة كل ما فيها من بشر وطير وحيوان وحجر على امتدا جغرافيتها؛ سهولها أو جبالها.

وقد تكرر استعمال ضمائر التكلم الإفرادية؛ لتثبيت معنى الانكسار، وهو ما حقق استعمال ياء المتكلم فى: إنى، والضمير المستتر "أنا" فى أحرم.

وقد حرص الحديث فى بنائه اللغوى على تقنية، حققت ما يلزم فى نصوص المناجاة والابتهال من بطء وهدوء وسكينة، وهى: ارتفاع نسبة استعمال حروف المد، بما تخلقه من بطء الإيقاع فى: اللّهم / وإبراهيم / وخليلك / ولسان إبراهيم / وإنا / وإنى / ولابيتها، كما تخلق بإيثار استعمال الأصوات المشددة، والتشديد نوع إطالة بتطويل مدة الزمن والمكث فى نطق الأصوات فى: اللّهم / زان / وحرم / وأحرم / وقد تعانق هذان الملمحان فى تغذية أجواء السكينة التى هى من خصائص لغة نصوص المناجاة والابتهال.

وقد ساعد على ذلك أيضًا إيثار نوع تكرار، تراه فى تكرار اللّهم / ونبيك / وحرم / وأحرم ... إلخ.

إن هذا الحديث الشريف مثال عجيب لشىء مستقر فى تاريخ النبوات على الأرض، ألا وهو الانشغال بعمران الأرض، وطلب أمان الوجود، وترابط أجيال الأمة فى تواجهها نحو هذا المطلوب.

إن هذا الحديث الشريف مثال عجيب فيما يكشف عنه من أمارات التعطف والانكسار بين يدى الله تعالى؛ سعيًا نحو نجاة الخلائق جميعًا على اختلاف أنواعها فى لغة قديمة بمحددات السكينة والجلال.

والحديث - وهو يصور هذه المشغلة التى شغلت تاريخ الأنبياء جميعًا - يكشف عن عدد من الدروس الدعوية من مثل:

أولًا: ضرورة استصحاب المعرفة التاريخية فى الخطاب الدعوى المعاصر؛ لما فى ذلك من تحقيق للإقناع والتأثير.

ثانيًا: ضرورة وعى الدعاة المعاصرين بأساليب الإقناع، وطرق التأتى لكل قضية أو موضوع؛ ذلك أن التنويع الأسلوبى منهجية مستقرة لازمة؛ بطبيعة تنوع الموضوعات، وتنوع الناس.

ثالثًا: ضرورة استصحاب الدعاة للآداب الإسلامية المختلفة، وتعليمها للناس، مقرونة بأدلة شرعية، وأمثلة صحيحة من السنة الشريفة.

كما أن الحديث الشريف يكشف عن عدد من الدروس الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى دراسة خصائص النصوص، وسماتها المختلفة؛ حيث إن خصائص نصوص المناجاة والابتهال لم تحظ حتى اليوم بما تستحقه من التقدير، ومتابعة الفحص والدرس.

ثانيًا: ضرورة التوسع فى استدعاء التاريخ القديم، والتوسع فى توظيفه للأغراض التربوية والعلمية.

ثالثًا: ضرورة تطعيم برامج التربية والإعلام والفنون الموسيقية بنتائج فحص السنة الشريفة؛ فهذا الحديث يدعم فكرة الدعاء بالجوامع فى الخير، ويدعم التوجه نحو صناعة موسيقى مناسبة للنفس العربية، ومتأثرة بطبيعتها.

رابعًا: الحديث يشير إلى أهمية حفظ البيئة، على ما يتضح من استعماله (ما) التى تدل على غير العاقل، وهو ملمح مهم فى كل أحاديث تفضيل مكة والمدينة والقدس.

***

كرامة المدينة !

عن أنس بن مالك، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال النبى ﷺ: "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقى إلا عليه الملائكة صافين، يحرسونها، فيأتى سبخة الجرف، فيضرب رواقه فيها، ثم ترجف المدينة ثلاث مرات رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق" (صحيح البخارى ٤/٩٥، حديث ١٨٨١ و ٩٠/١٣، حديث ٧١٢٤، وصحيح مسلم حديث ٢٩٤٣، وأحاديث فضل المدينة، ص ١٢٠، حديث ٤٣).

وهذا حديث من أحاديث الأمل فى بقاء مناطق آمنة عند اشتداد فتن الزمان عمومًا، وكثيرًا ما يضطلع الاستثناء بوظيفة صناعة الأمل فى نفوس الناس، خلال ما يوحى به فى النصوص التى يسهم فى معمارها.

والحديث - وهو يسعى نحو الدلالة على كرامة المدينة المنورة، صلى الله على ساكنها - يعتمد عددًا من التقنيات البلاغية المؤسسة للمعرفة التى يحملها إلى الناس:

الحديث كله كناية موسعة عن كرامة المدينة المنورة على الله تعالى، بدليل حمايتها من فتنة الدجال فى عداد الأحاديث التى ترصد بعض كرامات المدينة المؤقتة بحياة النبى ﷺ فيها. والحديث يبدأ بجملة خبرة منفية مؤكدة بمن الزائدة، هى: ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، وهو النفى الوارد فى سياق يغذى الارتقاء بشرف المدينة؛ بسبب من استثنائها من فتنة عامة تضرب الجميع، واستعمال بلد نكرة فى سياق النفى، دليل عموم واستغراق، والاستثناء المفرغ هنا صنع نوع قصر، يمهد لبيان كرامة البلدين الكريمين، مكة والمدينة. ثم جاء الاستثناء بإلا الثانية بلا فاصل؛ للإسراع فى بث الأمل فى النفوس، بالإعلان عن بقاء هاتين البقعتين طاهرتين من نجس الدجال، آمنتين من فتنته وفتنة تابعيه، وهنا بعض

تجليات الاستثناء التى صنعت الأمل والبشرى، ومن ثم يمكن أن يكون غرض هذه الجملة الخبرية الكشف عن شرف المدينة، بنفى وطء الدجال لها.

ثم يثنى الحديث بجملة جديدة منفصلة عن أختها، غير موصولة بها بأى من حروف العطف أو الصلة أو غيرها، وهى: ليس له من نقابها إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، والنفى هنا مشعر بالعموم؛ بسبب من استعمال نقب نكرة فى سياقه؛ مما يعنى استغراق حمايتها من مواطن المخاوف جميعًا، وجاء الاستثناء مرة أخرى؛ ليحقق الحصر المفضى إلى الإعلان عن حمايتها وشرفها، وقد جاءت الملائكة معرفة؛ لتحقيق الاطمئنان بالإشعار بالكثرة المستفادة من (ال) الجنسية، أو القوة المستفادة من (ال) العهدية، التى تعنى حينئذ ملائكة مخصوصين، عهد إليهم أمر الحراسة.

وقد نوع الحديث فى استعماله حالين، الأول منهما مشتق هو: صافين، والأخير جملة فعلية، هو: يحرسونها، وهو التنوع الدال على دفع التوهم، والاستعداد للحراسة والتجدد والاستمرار، بدليل مجيئه فى صيغة المضارع.

والحديث حفى بالحكى والقص؛ طلبًا لتعلق قول بالمتلقين بأمر قضيته، وهو ما يتجلى فى متابعته السرد باستعمال الفاء التعقيبية؛ إسراعًا نحو تلبية ما يطمئن مخاوف السامعين، وقد كان استعمالها مرتين فى: فيأتى سبخة الجرف، وهو مكان أرضه مالحة وفى: فيضرب رواقه فيها، ربما دلت الجملة الأولى على ارتباطه بالهلاك، والثانية على إرادة الاستقرار والمكث. وقد دل الاستعمال المضارع هنا على التوقيت والانقطاع بدليل سياقى ماثل فى استعمال حرف العطف "ثم" وما بعهدها، وهو هنا قد دل على الانقطاع، أى انقطاع بقائه فى المكان الطاهر من المدينة.

وجملة: ترجف المدينة ثلاث رجفات: خبرية دالة على حقيقة تأمين المدينة من فتنة الدجال، ودالة على انقطاع أثره فيها، وسرعة ذلك؛ بدليل جملة: فيخرج الله كل كافر ومنافق، وقد احتفى الحديث بأمارات كثيرة، منسوبة إلى باب الذكر لأغراض بلاغية

تأسيسية، فذكر المدينة، وهى فاعل ترجف، مقصود تعيين طهارتها، وذكر لفظ الجلالة فاعل يخرج؛ لطمأنة المتلقين بأنه سبحانه القائم على أمر تطهيره، وذكر المفعول به: كل كافر ومنافق؛ لتوكيد أمر هذه الطمأنة، وبتعيين العموم والشمول من تنقية المدينة من الدجال وغيره من أهل الفتن بالإطلاق، وفى استعمال ترجف كناية ظاهرة عن الزلزلة؛ بما هى من أشراط الساعة.

والحديث حريص على عدد من محددات الإطناب، صنعها الوصل بحروف العطف حينًا، وبأشباه الجمل حينًا، وبإيثار استعمال الجمل على التمام سعيًا نحو تغذية شغف المتلقين بالإحاطة بمعلومات، هى من الغيب المحض الذى يحتاج إلى فضل بيان.

وقد أعان على تحقيق هذا البيان - رعاية لمقام المتلقين الشغوفين بإسكات صوت الغموض المحيط بقضية غيبية - استعمال الأسماء معرفة، فقد جاء الدجال، ومكة والجرف والمدن من قائمة الإعلام، وجاءت الملائكة معرفة بال، وجاء: رواقه / ونقابها / وكل كافر معرفة بالإضافة، وهو نوع مناسبة؛ للتخفيف من غموض أمر الدجال بحسبانه من الغيب.

والحديث حريص على نوع سلاسة، تحققت له من تتابع الحكى، ولإيثار استعمال الفاء العاطفة بخصائصها الشفوية، وتوازن فى حجم الجمل، وتوازن فى تصميمها، فى مثل: ليس من بلد فى أول الحديث، ثم: ليس له من نقابها بعدها.

وهنا ملحظ عجيب، يتمثل فى تنامى نسبة أصوات الصفير الخادمة لبعض قضايا الحديث التحذيرية، فقد تكررت السين مثلًا خمس مرات، وبجوارها جاءت الصاد والثاء، فضلًا عن تنامى استعمال صوت الراء بقيمتها التكرارية، حيث استعملت ثمانى مرات، بالإضافة إلى الإلحاح على استعمال الأصوات المجهورة ذات القمة الإسماعية المرتفعة.

إن هذا الحديث الشريف - بتصميمه المعتمد بنية السرد والقص - يفتح بابًا أمام نوع من بلاغة الأمل فى استبقاء الله تعالى لعدد من المواطن آمنة ترطب على قلوب العباد.

والحديث - وهو يتذرع الحكى لبيان كرامة المدينة المنورة - يلمح إلى عدد من الأبعاد الدعوية من مثل:

أولًا: الحديث يشير إلى إسهام حكى القصة فى التأثير فى الجماهير، وهو الأمر المعروف فى تاريخ الوعظ فى الثقافة العربية الإسلامية، وهو أمر مقدر رعاه المحدثون، فنقوا ساحته من الأحاديث المكذوبة التى توضع للقصاص، من مثل: تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، للسيوطى، والتوجه للتحذير من كذب القصاص، معناه استبقاء مادة القص، والاعتراف بسهمته فى التأثير على الجماهير فى الأصل.

ثانيًا: الحديث يؤكد أهمية البيان والتفهيم والشفقة بالمتلقين، ولا سيما عندما يتعرض الدعاة لعدد من الموضوعات الغامضة أو الصعبة.

ثالثًا: ضرورة الحرص على صحة المرويات المتعلقة بالغيب، والتأكيد على صحتها، والرجوع إلى المصادر الوثيقة.

كما أن الحديث يلمح إلى عدد من الأبعاد الحضارية، من مثل:

أولًا: الحديث يلح على أهمية الأعمال الدرامية، من مثل: التمثيليات وغيرها فى تطوير التأثير فى الجماهير المسلمة.

ثانيًا: الحديث يلمح إلى أهمية الوعى بجغرافية الأماكن المقدسة؛ لارتباط عدد من الأصول والفروع الاعتيادية بها، فمن المهم معرفة مداخل المدينة، ومعرفة مواضعها، وربط ذلك بمثل هذا الحديث، الذى يذكر سبخة الجرف، وهو مكان معروف إلى اليوم فى شمال المدينة.

ثالثًا: الحديث يلمح إلى نوع من المعرفة النبوية المهمة التى يمكن أن تسهم فى تطوير عدد من المعارف، ولا سيما فى إعادة النظر مثلًا فى الألفاظ العلمية المنتمية لعدد من المجالات، فقد ذكر الحديث لفظة: "سبخة"، وهى لمفهوم جغرافى مستقر للمالح من الأرض.

رابعًا: الحديث يفتح الباب أمام ضرورة التوسع فى العمران، بمعالجة الأماكن التى يتصور الناس ابتداء أنها غير صالحة للسكنى، من مثل الأرض السبخة، فالحديث يشير إلى إرادة إقامة معسكر فيها.

***

الرعب الممنوع !

عن أبى بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبى ﷺ: "لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان" (صحيح البخارى ٤/٩٥، حديث ١٨٧٩ و ١٣/٩٠، حديث ٧١٢٥، وأحاديث فضل المدينة، ص ١٢، حديث ٤٥).

هذا حديث فريد فيما يمكن أن يسمى باسم نصوص البيانات، على ما يشيع أحيانًا فيما يوجه إلى الجماهير،عندما يعرض لهم ما يهدد حياتهم، ويعرضهم للمخاطر.

وهو نوع من النصوص، يحرص على أن يصل لأكبر عدد ممكن من الناس، ويحرص على ألا يطول حتى يبقى مضمونه كاملًا بعد الفراغ من إعلام الناس به.

والحديث - وهو يسعى نحو إعلام الناس بقضية تتهدد وجودهم ومستقبلهم - يعتمد على عدد من الوسائل البلاغية المتنوعة:

الحديث يبدأ بجملة فعلية خبرية منفية بلا، وفى النفى بلا الداخلة على المضارع استدامة للنفى، واستمراره؛ إذ هى غير مقترنة بوقت أو زمان.

وفى استعمال الفعل المضارع دلالة على التجدد والاستمرار، وفيه إعانة على استحضار القضية وتمثلها؛ لتبقى حية، ويبقى نفيها قائمًا فى النفوس، يحدو الأمان مع تجدد المخاوف. وفى الجملة تقديم للمنصوب (المدينة)، وهى منصوبة على حذف حرف الجر، أو منصوبة على الشبه بالمفعول، لمن قدر: يدخل فعلًا لازمًا، وهى منصوبة على المفعولية لمن قدره متعديًا. وفى هذا التقديم بيان لما هو مهم، وبيان لشرفها، ولتأكيد العناية بأمرها، وهو مشغلة الحديث الذى ترجم إلى ما نرى من أمر تقديمها على الفعل، الذى هو: رعب المسيح الدجال، وفى تأخيره تهوين من أمره، يبعث على قدر من الشعور بالأمان.

وفى تعريف المدينة صناعة للإطلاق، جعلتها علمًا على مكان واحد بعينه، معروف عند الإطلاق بقرينة المتكلم ﷺ، وبقرينة السياق اللغوى المطيف بها.

وفى تعريف رعب بإضافته إلى المسيح بالدجال، دفع توهم، يمنع من الخلط بينه وبين المسيح عليه السلام، وهو نوع زيادة واتساع فى البيان، يناسبه مقام بث الأمان فى النفوس، والعبارة كلها كناية عن رحمة النبى ﷺ بالأمة، وشفقته بها؛ لما فيها من بث الطمأنينة فى قلوب المتلقين، فضلًا عما فيها من تأسيس معرفى للعلم بالغيب المحيط بعلامة من علامات الساعة.

ويثنى الحديث بجملة خبرية اسمية، هى: لها يومئذ سبعة أبواب، وفى تقديم الخبر: لها، توكيد للعناية بها؛ إذ هى مشغلة العقول، والعقول متوجهة إلى ترقب ما يحيط بها.

وفى استعمال الخبر: سبعة أبواب، عددًا - كما نرى - ما يدعم قضية تأمينها؛ فعدد سبعة تعيينًا مطمئن فى الثقافة الإسلامية، تحيط به بعض الإشارات التى تبعث على تقديره بشكل ما. وهى جملة خبرية تمثل جزءًا من بواعث الطمأنة؛ إذ الإحاطة بعدد مداخلها حافل على الاحتياط فى حمايتها وحراستها، واتخاذ العدة اللازمة من المخاطر التى تتهددها.

ثم يختتم أمره بجملة اسمية خبرية، هى: "على كل باب ملكان"، بتقديم الخبر على كل باب؛ لما قررناه من أن توجه العناية إلى المدينة اقتضى تقديم ما يشعر بهذه العناية، وفى استعمال المبتدأ: مثنى ما يشعر بتمام الحماية وتقويتها، وهذه الجملة صالحة لأن تعرب نعتًا لأبواب، وتقديره: أبواب محروسة بالملائكة.

والحديث فى تصميمه مدهش من تصميم البيانات التى تستهدف التوجه للجماهير، بما يخفف المخاطر التى تتهددهم، وهو ما تجلى فى مجموعة من الخصائص الظاهرة، من مثل:

١ - تقسيم الحديث إلى جمل سبعة متساوية:

لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال (خمس كلمات).

لها يومئذ سبعة أبواب (أربع كلمات).

على كل باب ملكان (أربع كلمات).

٢- الحرص على بيان عموم القضية للناس جميعًا بعدم توجيهها لمخاطب بعينه، وتصميمها على الغياب؛ وصولًا لأكبر شريحة ممكنة من الناس.

٣- التركيز فى التعاطى مع قضيتها، والتنويع فى خدمتها؛ فالقضية واحدة فى بيان كرامة المدينة، بنفى تعرضها لدنس الدجال وفتنته من كل باب.

٤- تأكيد دوام الحكم بتفريغ الجمل من القرائن الزمنية (فى الجملتين الاسميتين) وبفتح الزمان وعدم توقيته، بما يجعله آنيًّا محصورًا فى زمان بعينه (باستعمال الجملة الفعلية المضارعة منفية بلا).

٥- المبالغة فى بيان الأدلة المخاطب بها الناس، بتفصيلات تبعث على الاطمئنان.

وقد جاءت الجملتان الاسميتان محققتان لنوع تفسير؛ لنفى دخول رعب الدجال إلى المدينة، وقدمتا نوع تعليل لهذا الحكم المتقدم.

والحديث على المستوى البديعى اعتمد عددًا من التقنيات الملائمة لنصوص البيانات، من مثل:

١- إيثار أصوات الجهر؛ طلبًا للقمة الإسماعية، من مثل: اللام (سبع مرات)، والباء (ست مرات)، والغين والدال (ثلاث مرات)، فضلًا عن استعمال عدد من حروف الصفير، من مثل: السين (مرتين)، وهو ما يناسب مقام التحذير والإنذار، وإن جاء بهدف بث الأمان فى النفوس.

٢- إيثار حروف المد؛ للإعانة على تحصيل فحوى البيان.

إن هذا الحديث ربما يصلح مقدمة لتحليل النصوص القديمة، وإعادة تصنيفها وأجناسها فى ضوء خصائص تكوينها وبنائها.

والحديث مع كل ذلك يفتح الباب أمام عدد من الملامح الدعوية، من مثل:

أولًا: ضرورة تنبه الدعاة إلى أهمية التركيز، وتكثيف الأدلة، والتنويع فيها، عندما يتعلق الأمر بالموضوعات التى تشغل الناس.

ثانيًا: ضرورة الحرص على الوضوح، والبعد عما يلبس؛ ففى استعمال (المسيح الدجال) مانع يمنع من استدعاء المسيح عيسى عليه السلام لمن هو ضعيف، قليل الثقافة.

ثالثًا: ضرورة العناية بمحددات الأداء الصوتى، بما يناسب كل موضوع على حدة.

وربما يكشف الحديث كذلك عن عدد من الملامح الحضارية، من مثل:

أولًا: التنبيه على أهمية رفع وعى الجماهير بشكل مستمر، والتعاطى الإعلامى معهم، بما يبعث فى نفوسهم الاطمئنان، وهو بعض ما يشيع استعماله اليوم فى الخطابين السياسى والإعلامى باسم الشفافية.

ثانيًا: الحديث يلمح إلى أهمية تحصين المدن السكنية فى عمليات التخطيط والإنشاء؛ لأهداف إنسانية، تمنع من المهددات التى قد تؤرقهم.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام أهمية الاستثمار فى تأمين الناس، والتوسع فى هذا التأمين، بما يشعرهم بتوافر الأمان، وهو ما يعنى ضرورة التنوع فيما يحققه، ففى (على كل باب ملكان) ما يشعر بالقوة والتنوع.

***

يوم الخلاص من أمارات فضل المدينة المنورة !

عن محجن بن الأدرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، خطب الناس، فقال: يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟ يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟ يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟ فقيل له وما يوم الخلاص؟ قال: سيجىء الدجال، فيصعد أحدًا، فينظر إلى المدينة، فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتى المدينة، فيجد بكل نقب منها ملكًا مصلتًا ... فلا يبقى منافق، ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص " (أحاديث فضل المدينة المنورة: جمعًا ودراسة، ص ١٣١، حديث ٥٢).

هذا حديث ماتع حقًّا، ومثال فريد على علو سمت كلام النبى ﷺ، المروى بماء كلام السماء!

وهو من أحاديث البشرى التى تدعم ثقافة البشر والتفاؤل فى مآل الأمور إلى الخير، وصيرورة الشدائد إلى انفكاك وتلاش.

والحديث وهو يخطو نحو مطلوبه يستصحب عددًا من الإجراءات البلاغية التى تؤسس قضيته، وتنشئها، وهو الأمر الذى تؤكده نصوص السنة الشريفة دومًا؛ ذلك أن الزعم بأن البلاغة فى تأسيسها وتكوينها وبنائها لا تستهدف بناء الأفكار أمر غير صحيح. الحديث يبدأ بجملة عجيبة سقاها الذكر الحكيم بمائه، فاتصلت به، فتوهجت بما تسرب فى أوصالها منه. وهى جملة اسمية كبرى، مبتدؤها: الخلاص، وهى كلمة عجيبة بموجب أصل المعنى المركوز فيها، الدال على النجاة، وخبرها جملة: ما يوم الخلاص؟ وهى جملة منفية إنشائية؛ لغرض تعظيم أمر المبتدأ، على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾[الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة]، وفى تكرار

الجملة ثلاث مرات، زيادة فى أمر هذا التعظيم؛ لخطر اليوم، وأهميته، وفى التكرار كذلك تحقيق لكمال تنبيه المتلقين إلى خطر الإجابة؛ دفعًا لتحصيلها، والإمساك بها.

وقد تحقق له ﷺ ما أراد، إذ توجه الجمع الذى يخطب فيهم؛ ليسألوه عن ماهية هذا اليوم. وقد جاءت الإجابة فى صورة سردية، تتعاطف مع أنس الإنسان إلى الحكى، وتغذى مادة التشويق الباعث على الإقبال، والمعين على تحصيل الجواب.

وقد بدأ الجواب بجمل فعلية قصيرة: يجىء الدجال، فيصعد أحدًا، فينظر إلى المدينة، فيقول لأصحابه، وهى جميعًا موصولة بالفاء التعقبية المسرعة؛ شفقة بالقوم، وإسراعًا فى طريق بث الأمن فى نفوسهم، وقد خلق استعمال المضارع نوع استحضار، أحال الكلام إلى صور مرئية مشاهدة، بفعل استثمار أفعال حركية سمعية.

وفى الحديث استثمار لتقنية الاستفهام فى: أترون هذا القصر الأبيض؟ وفيه رنة تحسر، وانكسار، وهو ما يدعمه الجواب القصير المحايد: هذا مسجد أحمد.

ويعود الحديث إلى دعم بنية الاستحضار باستعمال الأفعال المضارعة مرة أخرى فى: يأتى المدينة، فيجد، فلا يبقى، مستعملًا الوصل بالفاء التعقبية، لمناسبة المقام الذى يسكن قلوب الناس فيه الخوف، فيسرع الحديث بما يذهبه، ويبعده.

وفى الحديث استثمار لعدد من الكنايات، فى مثل: القصر الأبيض، وفيه كناية عن الشرف والطهارة، وفى مثل: فيجد بكل ثقب منها ملكًا مصلتًا، كناية عن حراسة المدينة وتأمينها، وتشريفها بتعيين الملائكة حراسًا على أبوابها، وفى التعبير نفسه نوع اكتفاء بحذف السيف؛ لأنه مفهوم من دلالة: مصلتًا.

وفى الحديث نوع إطناب مقصود لخدمة قضية تأمين نفوس المستمعين، وقد تحقق هذا الإطناب بما يلى:

١- باستعمال السرد والحكى والتنويع.

٢- بالتكرار للجمل والأدوات

٣- بالوصل. ٤- بالتوابع.

وقد لجأ الحديث الشريف إلى توظيف التذكير والتأنيث؛ لصناعة عموم وشمول، يقوى أمره المعلن فى: "فلا يبقى منافق ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه"، وفى هذا الاستعمال تحقق نقاء المدينة من مادة الفتنة، ومن كل ما يمثلها، كما حقق نوع تسوية بين نوعى الجنس البشرى من هذين الفريقين جميعًا؛ لدفع توهم انحسار النفاق والفسق فى نوع من دون الآخر، فضلًا عن استعمال الإشارة المتبوعة بالمحلى بال، بما تصنعه من تكرار وتوكيد ووضوح.

وقد جاءت جملة: فذلك يوم الخلاص فى نهاية الحديث الشريف؛ لتحقق تذكيرًا بما سألوا عنه، وتلخيصًا هدفه التوكيد لمضمون ما مر فى السرد والحكاية، وفيه نوع رد العجز على الصدر، بإغلاق الحديث بجنس ما بدأ به؛ ليحقق وحدة متماسكة، تعين على تحصيل مراده.

وقد تحقق للحديث بديعيًّا ما أعان خدمة قضيته، فارتفعت نسبة أصوات الصفير الداعمة لقضياه التحذيرية والإنذارية، فقد تكررت الصاد إحدى عشرة مرة، فضلًا عن نسب تكرارية للسين والظاء والذال، وبقية من الأصوات المجهورة، ذات القمة الإسماعية المرتفعة، ثم إن تصميم الحديث باستعمال عدد من جمله القصيرة صنع سرعة مناسبة للمخاطبين ابتداء، ولمتلقيه من بعدهم.

وقد تعانق ذلك كله مع إيثار عجيب للمعارف الاسمية، ولا سيما الأسماء المعرفة من غموض أمرها الطبيعى، وهو نوع تعاطف وشفقة نبوية عجيبة، تتجلى فى اختيار الألفاظ.

إن هذا الحديث مدهش فيما يعيد تأسيسه فى الأوساط الإسلامية، بإعادة تحرير مفهوم يوم الخلاص فى التصور الإسلامى، وتعيينه فى اليوم الذى حددوه فيه، وتتطهر من شرور الفتن، ومفاسد النفاق والفسق، وانطلاقه من مركز الإسلام وبقعته التى يسكنها رسول الله ﷺ؛ لتظل رمزًا للكرامة الموفورة!

والحديث - بما يحفل به من علامات مهمة أظهرتها الإجراءات البلاغية - يشير كذلك إلى عدد من الأبعاد الدعوية، ومسألة الالحاح على الأبعاد الدعوية تأتى منطقية؛ بسبب من أن السنة الشريفة هى العماد الحى للدعوة، وفيما يلى ذكر لبعض هذه الأبعاد:

أولًا: الحديث ينبه إلى أهمية إشاعة ثقافة البشرى والتفاؤل والاطمئنان بين الناس؛ إذ الأصل فى الدعوة نشر أجواء الأمل بحكم وظيفة النبوة الأصيلة.

ثانيًا: ضرورة تحلى الخطاب الدعوى بالتركيز، وخدمة المخاطبين، وإرادة التعاطى مع مخاوفهم، وبث ما يذهب المخاوف، والتنويع فى الإبلاغ بالطرق المختلفة.

ثالثًا: التنبه إلى أهمية القصة فى الخطاب الدعوى، وصناعة التشويق؛ طلبًا لمصلحة الجماهير، وتحقيقًا لمنفعتهم.

كما أن الحديث حامل بعدد مما يوحى بخدمته للأبعاد الحضارية، والأبعاد الحضارية مدخل مأنوس مخدوم بكثير من الكتابات المختصة التى ترى فى السنة المشرفة أساس يدعم الحضارة، وفيما يلى بعض هذه الأبعاد:

أولًا: الحديث يلمح إلى أهمية الدراما والقصص والتمثيل فى خدمة قضايا الوعى والتعليم؛ مما يلزم معه عناية الأمة بالإنتاج الفنى، الذى يدعم توجهها فى الحياة بشكل جوهرى لا شكلى.

ثانيًا: الحديث يلمح لأهمية التنوع فى الأساليب التعليمية والإعلامية، فجنس الخطبة، والحواريات - كما يمثلها هذا الحديث - تنضم إلى غيرها من النصوص المؤسسة للمعرفة؛ لتؤكد أهمية تناول القضية الواحدة بطرق مختلفة لترسخ فى النفوس.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب إلى أهمية دراسة الخصائص النفسية للجماهير، لاكتشاف السبل المناسبة للتعاطى مع مشكلاتهم التى تؤرقهم، فهذا الحديث يضرب مثلًا ظاهرًا بالتعاطف مع ما يؤرق المخاطبين، عندما استمعوا إلى ما يثير تشوقهم، فأسرع فى تلبية مطالبهم النفسية.

رابعًا: الحديث يلح على فكرة عدم انفصال مطالب التعليم والمعرفة عن مطالب الجمال والفنون، ولكنه يعطى مثالًا لإمكان خدمة مطالب التعليم مع تحقيق المطالب الجمالية والفنية فى غير تعارض ولا تناقض ولا تصادم.

***

النجاة من هول الساعة !

عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"من زارنى محتسبًا إلى المدينة، كان فى جوارى يوم القيامة"** (أحاديث فضل المدينة المنورة: جمعًا ودراسة، ص: ٢٧٥ حديث ١٣٤).

هذا حديث من أحاديث صناعة السكينة، وصناعة الأمل فى مواجهة مخاطر المستقبل المعلومة، وصناعة الأمل فى إمكان النجاة من هول يوم القيامة، بالدلالة على بعض ما يمكن من شراء النجاة به.

والحديث فرع من أصل جامع هو حب النبى ﷺ، والفرح بهذا الحب، والسعى فى اتجاه التعبير عنه بالزيارة، وطلب القربى، وهذا الأصل الجامع كاف فى تصحيحه!

الحديث جملة شرطية مفتتحة بواحد من ألفاظ العموم والشمول، هو: من؛ ليحث كل أحد على زيارة النبى ﷺ، رجلًا أو امرأة، ذكرًا أو أنثى، متفردين أو مجتمعين، وفى استعمالها نوع تسوية خفية للمسلمين جميعًا، بقبولهم من دون النظر إلى طبقاتهم.

وفى استعمال الفعل الماضى - فعل الشرط: زارنى، مذكورًا معه مفعوله، الذى هو: ياء المتكلم العائدة إليه ﷺ، نوع إقبال منه على من يكلمه، وفيه نوع تآخ، بإزالة الفروق المانعة من التودد إليه، صلى الله عليه، بتجنب ضمائر العظمة.

واستعمال محتسبًا حالًا، قيد يهيئ الزائرين، ويدفعه إلى ضرورة استحضار النية؛ لتكون الزيارة عبادة ودينًا، ينتج الأجر، ويعقب الثواب، وفى اشتراط الاحتساب نوع شفقة بالزائرين، تدفع إلى الاستعداد لنيل الأجر والثواب.

وقد حقق استعمال شبه الجملة: إلى المدينة، بما فيها من تعيين للغاية المكانية، اتساع من يشملهم الحديث فى الأزمان المتعاقبة؛ إذ المدينة باقية، وإن لحق النبى ﷺ بربه، وفى ذكر المدينة نوع تشريف لها، ولم يكتف بجملة الحديث الأولى مع تضمنها معنى المدينة، بدلالة الالتزام والتضمن معًا؛ تلذذًا، وتشريفًا ورفعة لمكانتها بذكرها.

ثم جاءت جملة جواب الشرط، وهى: "كان فى جوارى يوم القيامة"، وافتتاح هذه الجملة بمكان حامل على اليقين فى حصوله؛ إذ الماضى من وسائل صناعة التوكيد فى برامج النصوص العربية، ومن أجله امتنع توكيده بالنون فى برامج النحاة العرب!

وحذف اسم كان جواز الغرضين ظاهرين، هو الدلالة على عموم الزائرين من جانب، بتقديره بما يناسب تقدير معنى: من، وللدلالة على الإسراع فى الإعلان عن الجائزة المرصودة لمن تفضل على نفسه، فأكرمها بزيارة النبى ﷺ.

واستعمال الخبر شبه الجملة: فى جوارى، أفاد نوع حماية مستغرقة؛ بفضل معنى الظرفية المركوز فى حرف الجر فى، وأفاد نوع حماية راقية حانية راحمة؛ بسبب من إضافة جوار إلى النبى ﷺ، المعبر عنه بضمير المتكلم، الدال على التواضع، المشعر بالأبوة واللين والرفق والقربى.

ثم جاء التعبير بشبه الجملة: يوم القيامة؛ ليؤكد قيمة أثر الزيارة فى النجاة بصاحبها من هول يوم القيامة، وهول يوم القيامة أمر ذائع، فاش فى الثقافة الإسلامية، كان موضوعًا لمعالجات خاصة تأملته، واستخلصت علامات فزعه فى الذهن المسلم، وهو قيد زمنى، غرضه الحث على طلب الزيارة من جانب، وتحقق الطمأنة لمن يحب رسول الله ﷺ وزاره، ولمن يحب المدينة المنورة ويزورها من أجله، أو تتشوف نفسه إلى زيارتها من أجله.

وتصميم هذا الحديث جار على نمط أحاديث كثيرة، وردت فى مدونة أحاديث الترغيب، فى كثير من أبواب الخير، من مثل:

"من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه"

ومثل هذه الدراسة الأسلوبية مفيدة فى الإعانة على تصحيح دائم على الحفاوة بالقيود.

وفى الحديث كذلك نوع استثمار لحروف المد، فقد تكررت الألف المدية أربع مرات، والياء المدية ثلاثة مرات، والحديث كله مكون من عشر كلمات، وقد تحقق بهذا الاستثمار نوع هدوء وبطء، وأعان على إعلان النص، والإعلان والإعلام جزء من صناعة نصوص التشريع؛ إذ لا تشريع إلا بنص، ولا نص إلا بإعلام.

وفى الحديث نوع انسيابية أدائية، مردها إلى التوازى فى نطق صوت الميم، فى مثل: (من) زارنى (محتسبًا) إلى (المدينة)، بالإضافة إلى نوع من التوزيع لصوتى اللام والنون، بسماتهما الصوتية المائعة المجهورة.

إن هذا الحديث وإن انطلق من أصل من أصول هذا الدين، هو ضرورة التعلق بمقام النبى الكريم ﷺ - فإنه يفتح الباب أمام الرحمة بالمسلمين ساعة يفتح لهم بابًا إلى تحقيق الارتواء بالزيارة له ﷺ، ساعة يأذن فى تغذية الشوق الجارف، الذى يسكن نفوس المؤمنين نحو بر رسولهم ﷺ، والدلالة على حبه، وتبقى المدينة المنورة رمزًا للنور والعلم الجميل، الذى تهفو إليه كل القلوب المؤمنة والمتعبة؛ بسبب من الحرمان من زيارة المقام المنير، صلى الله على ساكنه.

والحديث - وهو يفتح باب الأمل فى إمكان النجاة من هول يوم القيامة، ببيان طريقها الماثل فى التعلق بالنبى ﷺ، وبمقامه الكريم فى المدينة المنورة - يشير إلى عدد من الأبعاد الدعوية من مثل:

أولًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى ببيان أصل عقدى ثابت، هو حب النبى ﷺ.

ثانيًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى ببيان تحقيق هذه المحبة بشكل عملى.

ثالثًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بعلم الحديث عناية خاصة.

كما يشير إلى بعض الأبعاد الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة التوسع فى تيسير إجراءات السفر إلى المدينة المنورة.

ثانيًا: ضرورة التوسع بالتطبيقات العملية المنبثقة من حبه ﷺ وحب المدينة، من مثل: صناعة نماذج للمسجد النبوى على سبيل الهدايا التذكارية، وصناعة نماذج حية مصغرة له ولما حوله فى أشكال حدائق معرفية، لتاريخ المدينة وآثارها ومعالمها.

ثالثًا: هذا الحديث يفتح الباب أمام أهمية المراجعة العلمية لأحاديث هذا الباب.

***

الأمان العام للمدينة المنورة

عن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **"أهوى رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة، فقال: إنها حرم آمن إنها حرم آمن"** [صحيح مسلم، حديث ١٣٧٥، وانظر: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة: جمعًا ودراسة، لصالح حامد سعيد الرفاعى، دار الخضيرى، الرياض سنة ١٤١٣هـ، ص ٤٩ حديث].

هذا حديث جليل فيما يقرره من أمر الأمان العام للمدينة المنورة؛ بما هى مركز تأسيس الفكرة الإسلامية فى الوجود والحياة.

وجلاله ظاهر من تقدير أمرين جامعين، ترقى بهما الحياة جميعًا، هما تقرير الأمان العام، وطلب استمراره واستدامته، وتوكيده وتقوية الدعوة إليه.

والحديث - وهو يقرر هذه الحقيقة الكلية الضامنة لإعمار الوجود - يتذرع بالاعتماد على عدد من الوسائل البلاغية المتنوعة:

الحديث يراوح فى بيان حقيقة الأمان العام المقرر للمدينة المنورة؛ بما هى رمز للوجود المادى للإسلام فى المكان، بين نوعين من اللغة؛ **إحداهما:** لغة الإشارة التى تكشف عنها عبارة سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أهوى رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة، وهى الإشارة التى عكست تعيينها؛ دفعًا لتوهم الإشارة إلى غيرها، وعكست تعلقًا بها وبمحدداتها المادية المكانية، وهو بعض ما يوحى بحبها.

ولغة الجسد تقنية ترقى بالمراد توصيله للمتلقين، ولا سيما إذا تعانق مع اللغة الطبيعية، أو لغة اللسان.

وآخرهما: لغة اللسان، بالجملة الاسمية المحكمة المؤكدة المكررة: إنها حرم آمن.

وفى استعمال الجملة الاسمية بهذا التصميم حقائق تعلى من قضية الحديث الأساسية، فالجملة اسمية مفتقرة إلى أى من القرائن الزمنية، بما يجعل مطلوبها قائمًا مستمرًّا دائمًا لا ينخرم فى أى وقت من الأوقات، وهى مؤكدة بإن؛ دفعًا لتوهم إرادة المجاز، وحملًا للمتلقين على استقبال أمر أمانها على الجد والحقيقة الراسخة، ثم هى مكررة؛ لدعم الأمر

الذى تستهدفه، وسعيًا نحو تقويته، والمبتدأ فيها ضمير، والضمير اسم متقدم فى قوائم المعارف، تعين المراد به الإشارة السابقة بلغة الإشارة، ليصنعا معًا تعيينًا دقيقًا هو أعلى طرق التعيين فى النظام اللغوى بإطلاق.

وفى استعمال الضمير للدلالة على المدينة نوع تشريف وتكريم بالإعلان عن شهرتها، واستفاضة معرفتها.

والخبر فيها: حرم، جاء اسمًا نكرة؛ ليدل على تنامى معنى الأمن؛ إذ الاسمية ضامنة للحدث المجرد، الذى يشبه المادة الخام، وفى التعبير به من دون المشتقات فضل بيان عن زيادة الأمن المراد لها، وعدم انقطاعه.

ثم إنه خبر موصوف بآمن، وآمن صفة مشبهة باسم الفاعل، وعلى وزنه بقرينة لفظية هى اشتقاقها، وبقرينة سياقية هى إرادة طلب أمان المدينة المنورة الملازم لها، غير المنفك عنها.

وهو ما يعنى أن الحديث يسعى نحو توفير الأمان العام للمدينة المنورة، واستمراره، واتصاله على الزمان، وتقويته وتوكيده.

وفى استعمال الجملة الاسمية الخبرية نوع دلالة على الأمر والطلب، واستعمال الأخبار فى الدلالة على الأمر، مسألة مستفيضة فى برامج علم المعانى وعلم الأصول معًا، وهو ما يعنى أن رسول الله ﷺ يأمر ويطلب من المسلمين فى كل جيل، وفى كل مصر أن يؤمنوا مدينته؛ مأوى الإيمان.

وفى استعمال الجملة الاسمية كذلك نوع إعلام وتعليم من وراء استعمالها جملة خبرية، وفى الحديث نوع كناية عن منزلة المدينة المنورة، وشرفها، يفهم ذلك من الإخبار عنها بالحرمة والأمان.

وقراءة الجملة على الطريقة المروية عن سلوكه ﷺ فى القراءة، تصنع نوع سجع، ناشئ من نون التنوين على ميم حرم، ونون لفظة آمن، وفى التكرار المروى فى بعض طرق الحديث يصنع توكيدًا، ويصنع إيقاعًا يدعم قضية الحديث الدلالية، ثم إن إيثار الأصوات

السائلة (م / ر / ن) بسماتها الصوتية المجهورة من جانب، والمتقدمة مخرجيًّا من جانب آخر، تقوى أمر منزلة المدينة المنورة، وارتفاع مكانتها.

إن الحديث يقرر أن من أعظم منن الإسلام على الحياة، هى دفع الإنسانية إلى تقدير الأمان، وتوسيع مظلته؛ ليكون عامًّا فى المكان كله.

والحديث – وهو يستعمل البلاغة ووسائلها المتنوعة لتقرير غايته – يكشف عن عدد من الأصول الدعوية والحضارية معًا:

فمما ينبه عليه من الأصول الدعوية ما يلى:

أولًا: الحديث يفتح الباب أمام تقدير أهمية العناية بكليات الأمور، وعدم إهدار الوقت والجهد فى الفروع التى يمكن أن تسع الناس جميعًا فى المنهجية الدعوية.

ثانيا: الحديث ينبه عن القيمة الكبرى لقضايا تأمين الإنسانية فى ذات الإنسان، وفى الزمان، وفى المكان، وبيان أن هذه القيمة ثابتة، أو بلغة المعاصرين تمثل إستراتيجية لا يصح التحول عنها أبدًا.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب مرة أخرى أمام لغة الخطاب الدعوى، وضرورة تطويره وتخليصه؛ مما يمكن أن يسمى بالهدر اللغوى، وذلك بالحرص على القصد، والخلوص إلى المراد من أقرب الطرق، وأوضحها، وأيسرها معًا، وينبه على أهمية تطوير الفتوى واشتباكها مع مستجدات الحياة المعاصرة.

والحديث كذلك ينبه على عدد من الأصول الحضارية المهمة، من مثل:

أولًا: التنبيه على أهمية التوسع فى تطبيقات الأمان فى الأماكن المختلفة، والتشديد فى ذلك إلى أبعد حد من باب إنسانى وشرعى معًا.

ثانيًا: التنبيه على ضرورة التوسع فى مفهوم الأمان والتأمين؛ ليشمل الأماكن (الطرق / والمبانى / والبلدان) والأجهزة المختلفة، والسلوك الإنسانى فى الحياة اليومية ... إلخ.

ثالثًا: الحديث يدعو إلى الاستثمار فى ميادين خدمة الأمن العام؛ تعليمًا وتربية وإعلامًا وتصنيعًا ونقلًا ... إلخ.

***

فى عراقة الحرمة .. هما سواء !

عن عبد الله بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبى ﷺ، قال: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها فى مدها وصاعها، مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة" [متفق عليه، وهو فى البخارى ٤٣٦/٤، حديث ٢١٢٩، ومسلم حديث ١٣٦٠، وانظر: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة: جمعًا ودراسة لصالح الرفاعى، ص ٤٧، حديث ١].

هذا حديث عجيب من وجوه كثيرة؛ عجيب فيما يدعو إليه من توسيع جغرافية الأمان، وعجيب فيما يريده من توسيع مفهوم الأمان؛ ليدخل فيه مقدرات الإنسانية من الطعام الذى هو مادة بقاء الأبدان، وعجيب فى تصميمه اللغوى، وما يستثمره من أسلوبيات فى سبيل بيان قضيته.

الحديث جملة طويلة، تذرعت بالوصل المعتمد بنية العطف بالواو، وقد افتتح أمره بالتوكيد بإن؛ تنبيهًا على خطر المسألة التى ينتدب الناس للتعلق بها، وهو نص عزيز فى افتتاحه بالتوكيد، الذى يوشك أن يكون مثالًا نادرًا فى تحقيق التعليل بالتوكيد.

والحديث حفى بالذكر المشفوع بالتكرار، فقد أخبر عن منزلة مكة بالفعل المضعف العين (حرم)، وهو ذات الفعل الذى استعمل فى الإخبار عن منزلة المدينة المنورة، ثم استعمل الحديث الفعل: دعا، فى بيان البركة التى طلبها للمدينة؛ تأسيًا بما سبق أن طلبه إبراهيم لمكة، وفى ذلك الاستعمال رفع لمطلوب أمان المدينة المنورة، وتوكيد لمطلوب تأمين رزقها ونمائه، واستعمال الفعلين مكررين ماضيين، داعم لما نقرره من أمر أمانها، ونماء رزقها، وبركة اقتصادياتها.

الحديث حفى بالذكر فى الإسناد، فالفاعل ظاهر مذكور مع كل فعل، معرفة فإبراهيم ظاهر مذكور ثلاث مرات تلذذًا، وتحقيقًا لشرف الانتساب إليه، وتدعيمًا للتعليل، وتوكيدًا لعراقة مطلوب الأمان والبركة فى برنامج شريعة السماء، ولضمير العائد على

النبى ﷺ، وهو تاء المتكلم، ظاهر مذكور بفعل فعله فى النص، فيحيله تشريعًا بنسبته إليه ﷺ، ويرقى بمنزلة المطلوب بهذه النسبة، ويطمئن المتلقى بمضمون الاستجابة؛ إذ دعوات الأنبياء مستجابة، وفيه إشعار بالتواضع والانكسار فى مقام هو أشبه بمقام الدعاء، الذى يتطلب إخباتًا وإقبالًا، وهو بعض سر استعمال التاء محل استعمال "نا".

وفى تكرار مكة ثلاث مرات محقق لنوع لذة إيمانية لمنزلتها فى نفوس المتلقين جميعًا.

وهذا الحديث من الأحاديث التى قل استعمال التشبيه فيها لغرض التعليل، فالحديث يعلن أن مطلوبه بأمان المدينة، وطلب البركة لها، لم يكن إلا قياسًا بمطلوب أبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - واتصال هذا الشرف بإبراهيم - عليه السلام - وفيه كناية عن تحقق ما طلبه للمدينة المنورة، بدليل: "مثل" الواردة فى ختام الحديث.

وفيه نوع من الترتيب، فقد بدأ بالفعل حرم، ثم ثنى بالفعل دعا فى جملتى الحديث الأوليين، ثم عاد فاستعمل الفعل: حرمت، ثم ثنى بالفعل دعوت فى جملتى الحديث التاليين، وهو ما خلق إيقاعًا صوتيًّا، صنع نوع جماليات تجتذب النفس.

وفى استعمال: المد والصاع مجازات مرسلة عن الحبوب وسائر الطعام، بإطلاق المكاييل وإرادة ما يكون فيها من الطعام والحبوب، وفى استعمالها أيضًا كناية عن الطعام الرزق.

وفى استعمال: حرم، كناية عن تأمينها، وحفظ مقدرات الحياة فيها، وفى: دعا، كناية عن البركة الحالة بها، والرزق الموفور فيها.

وفى الحديث نوع استحضار للذكر الحكيم، تجده كامنًا خلف عبارته: "كما حرم إبراهيم مكة، ومثل ما دعا إبراهيم لمكة" وهو الأمر الذى يستدعى إلى خلفية الحديث قوله تعالى: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم:٣٧] وهو تضفير عجيب خفى، يليق بسمت كلام النبى ﷺ.

وفى الحديث حفاوة بالجناس، تجده فى: حرم / وحرمت، ودعا / ودعوت، وفيه نوع سجع إن قرئ برعاية الوقف على نهاية كل جملة، فالوقف على "لها" يخلق سجعًا مع "صاعها"، والوقف على "مكة" الثانية، يخلق سجعًا مركزه مكة الثالثة.

إن هذا الحديث العجيب يؤكد عراقة الفكرة الإسلامية، فى حرصها على أمان المكان والأبدان؛ سعيًا نحو استفاضة أمر العمران، وكان سبيله فى ذلك صناعة الاقتران بين مكة بشرفها والمدينة بكرامتها، عندما أعلن أنها فى عراقة الحرمة: يستويان!

والحديث وهو يتحرك نحو تحقيق قضيته منعم بما رأيت من وسائل البلاغة ينبه على عدد وافر من الأصول الدعوية والحضارية.

فمما يظهر ويكشف عنه من الأصول الدعوية ما يلى:

أولًا: التأكيد على ضرورة استثمار المعرفة التاريخية فى خدمة الخطاب الدعوى، فقد استثمر الحديث معلومات التاريخ فيما يخص تاريخ مكة؛ للإقناع بعدالة مطلوبه للمدينة المنورة.

ثانيًا: ضرورة العناية بأساليب الإقناع، وطرق تحقيقه، واستثمار مباحث القياس والعلة فى هذا السبيل؛ لأن الجماهير - ولا سيما فى العصر الحديث - تحتاج إلى نوع خطاب يحترم عقولهم.

ثالثًا: الحديث ينبه على أهمية الوضوح والبيان، وإن اعتمد بنيان التكرار، لتحقيق هذه الغاية؛ لأن المقام مقام تشريع وأحكام.

ومن جهة أخرى يكشف الحديث الشريف عن عدد من الأبعاد الحضارية التى يشير إليها من مثل:

أولًا: أهمية التحرك على مستوى حفظ الأمن، وتوسيع نطاقه الجغرافى، ودعمه فكريًّا وعلميًّا بالبحوث التاريخية ودراسات الإقناع والتأثير فى الرأى العام.

ثانيًا: أهمية التوسع فى صناعات الأمن الغذائى، والوفرة الاقتصادية، ولا سيما فى مجال الغذاء والأطعمة، وطرق حفظها، وضبط الأسواق.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام ضرورة العناية بضبط الأسواق، ومحاربة الغش التجارى، وحماية المستهلكين، وهو بعض ما يوحى به الدعاء بالبركة فى المد والصاع؛ بما هما مكيلان؛ المقصود منهما ما يحمل فيهما، أو يعير فيهما.

***

مدينة فى حراسة الملائكة !

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "المدينة حرام كحرمة مكة، والذى أنزل القرآن على قلب محمد إن على أنقابها ملائكة يحرسونها من الشيطان" [الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة، ص ٦٩، حديث ١٣، ومصادر أخرى فى هامشه].

هذا حديث رائع فيما يفتحه من آفاق لتأمل منزلة الأمان فى الهدى النبوى، ولتأمل إرادة حياطته بالقداسة والعراقة، ووصل أسبابه بأوامر الله تعالى.

والحديث واحد من نصوص كثيرة تعزف على الوتر نفسه، مما يحمل على الإيمان الجازم بعظمة التصور الإسلامى، فيما يتعلق بالأمن والأمان.

والحديث - وهو يسعى نحو هذه الغاية النبيلة - يعتمد عددًا من الإجراءات البلاغية المتنوعة الموزعة على علومها جميعًا:

يبدأ الحديث بجملة اسمية خبرية، مكونة من مبتدأ (هو المدينة)، وهى المعروفة عند الإطلاق بقرينة انضمام مكة إليها فى سياق واحد. ومن خبر (هو حرام)، بما يتضمنه من معانى توكيد الأمان، وتعظيمه، ووصل أمره بالشريعة.

وهى جملة خبرية، لا تقف عند حدود وظيفة الإعلام أو الإبلاغ أو تأسيس الفكرة بإنشاء معلومة، ولكنها تتجاوز إلى أغراض الأمر بالتزام هذا الأمان، وحياطته بالرعاية، إلى بيان شرف المدينة، بدليل ما تؤديه عبارة: كحرمة مكة.

وقد أدى استعمال شبه الجملة هنا عددًا من الوظائف المهمة، فقد شدد على منزلة المدينة، بما لا يقل عن منزلة مكة، وأنه مطلوب إلهى، ويلمح فيه معنى التعليل؛ إذ المدينة كمكة فى احتضان الدين ورجاله من جيل الدعوة الأول.

وفى استعمال القسم بطريق الكناية عن الموصوف – وهو رب العزة سبحانه الذى أنزل القرآن على قلب محمد ﷺ – نوع تشريف لأمر حرمتها؛ لأن شرف الأمر تابع لشرف الآمر سبحانه، وفى استعمال الكناية هنا إشارة إلى أن تحريم المدينة وتقرير أمانها، صادر

لاعتبارات كثيرة، ربما كان منها رعايته للتنزيل الكريم، فيما يتعلق بالقرآن، المدى الذى يضبط حركة الحياة على الأرض.

والقسم دال على توكيد حقيقة الحديث التى يعلن عنها، ويرسى دعائمها، وهو دال كذلك على نوع تعليل خفى، ربما يشرح سر انضمام المدينة إلى مكة، حرسهما الله تعالى فى الحرمة؛ لأنهما معًا يمثلان موطن احتضان تنزل الذكر الحكيم، الذى كان مادة القسم فى العبارة.

وجاءت جملة جواب القسم متناغمة معه فى افتتاحها بالتوكيد بإن؛ لدعم الحقيقة نفسها، وفيها تقديم للخبر "على أنقابها" على المبتدأ: "ملائكة"، وهو أمر متسق مع قضية الحديث، التى تنشغل ببيان حرمة المدينة، فتقدم ما يدل على مشغلة الحديث.

وفى استعمال ملائكة جمعًا، دلالة على توكيد أمر حراستها وبركتها وشرفها، وطالت جملة الحديث باستعمال جملة الصفة "يحرسونها"؛ لتوكيد التأمين، ولدفع توهم وجود الملائكة للبركة أو التشريف من دون الحراسة والحماية، وفى استعمال شبه الجملة من الشيطان، المكون من البيانية؛ توكيدًا لهذا البيان، واستعمال الشيطان معرفة بال الصالحة للجنسية؛ لتقرر أمر أمانها من أجناد الشياطين جميعًا.

والحديث يدخل إلى قضيته، مستعملاً عددًا من المجازات المتنوعة، فبإمكانك أن ترى فى المدينة نوع مجاز أطلق، وقصد من ورائه الأحياء التى تحيا بها جميعًا من الناس والحيوان والنبات.

وفى استعمال الأنقاب كناية عن مواطن الدخول، والمنافذ بين الجبال التى هى مفاتيح الولوج إلى المدينة؛ مما يعنى إحكام حماية المدينة.

وفى استعمال الشيطان نوع كناية بالغة الظهور عن الشرور المستفيضة بأنواعها المختلفة، وهو المعنى المستقر للكلمة فى الثقافة العربية على امتداد التاريخ.

وفى الحديث نوع توظيف لبعض التقنيات البديعية المعينة على الشعور بقضيته؛ ففيه نوع جناس ناقص بين حرام/ وحرمة؛ مما يعين على توكيد المعنى.

وفيه نوع إيثار لأصوات عميقة، ربما تشعر من طرف خفى بجلال القضية، من مثل: استعمال صوت القاف بعمقه المعهود على مسافات متقاربة فى: القرآن، وقلب، وأنقاب، وقريب منها - إن بدرجة أقل - استعمال صوت الكاف فى كحرمة، مكة، وملائكة.

وفى التنويع فى استعمال الجمل الخبرية مفتقرة إلى القرائن الزمنية، إشعار بدوام الحقيقة، واستمرارها، وفى استعمال الفعل المضارع "يحرسونها" ما يدعم حقيقة هذا الاستمرار، بالدلالة على تجدد الحراسة، وعدم انقطاعها بحرف من حروف انتهاء الغاية الزمانية.

إن السنة المطهرة - بما يدل عليه هذا المثال - تلح فى إقرار حقيقة تأمين الحياة بتجلياتها المختلفة على الأرض، وتوسع مجال هذا التأمين ليشمل الأرض والإنسان والحيوان والنبات، والأحجار وسائر المنجز الحضارى؛ ليبقى الإسلام أعظم دين عطف على الوجود والكون.

والحديث وهو يدخل إلى دعم قضية تأمين الوجود والكون بوسائل لغوية وبلاغية يشير إلى عدد من الأصول الدعوية والحضارية.

فمما يلمح إليه دعويًّا:

أولًا: تنبيه الدعاة إلى ضرورة العناية بالمقاصد الكبرى الحاكمة للوجود الإنسانى، وفى مقدمته مقصد التأمين، الذى يتذرع فيعبر عنه باسم حفظ النفس وأحيانًا بحفظ النسل.

ثانيًا: تنبيه الدعاة إلى أهمية المنطق العقلى فى خطاب الجماهير، فها هو ذا الحديث يكرر - كغيره من الأحاديث - اللجوء إلى بنية القياس، واستدعاء المثال، وضم النظير إلى النظير فى الحكم، فالمدينة كمكة، فصح أن تلحقها فى الأمان والحرمة.

ثالثًا: تنبيه الدعاة إلى أهمية البعد الغيبى فى تأسيس القضية الإيمانية. إن الكون من حولنا حقائق بالغة الخطر، فى الارتقاء بالشعور الإيمانى، وهو ما يظهر من أمر الإخبار عن حراسة الملائكة للمدينة المنورة.

ومما يلمح إليه الحديث حضاريًّا:

أولًا: تأكيد أهمية حياطة قضية تأمين الإنسانية؛ بما هى المدخل الأسمى لتحقيق العمران؛ إذ إن الإنسان هو عمود الصورة فى هذه القضية، وتأمين معناه حفظ مادة ما به يقوم العمران.

ثانيًا: ضرورة الدعوة إلى التوسع فى دراسات تأمين الطرق، ومداخل التجمعات السكنية، وتجهيزها بما يضمن حماية الناس من الكوارث المتوقعة، وهو بعض ما يوحى به استعمال الأنقاب.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام مسألة تحتاج إلى قدر من الفحص، تتعلق بأهمية اختيار مواقع طبيعية، تتمتع بسمات حماية ذاتية طبيعية، تعين على حماية مقدرات من سيسكنها، ولا أدرى إن كان مثل هذه الاشتراط معروفًا فى علوم تخطيط العمران من عدمه؟

***

أمان الحضارة !

عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **"كل دافعة دفعت علينا من هذه الشعاب فهى حرام أن تعضد، أو تخبط، أو تقطع إلا لعصفور قتب، أو مسد محالة، أو عصا حديدة"** [وفاء الوفا، للسمهودى (لندن ١/٢٠٣، وأحاديث فضائل المدينة، ص ١٠٤، حديث ٣٥].

هذا حديث فريد فيما يثبته من أمر حرص الشريعة على أمان الأرض والحياة، وفرادته ناشئة من انطلاقه من تقدير مقاصدى بالغ الظهور، يوشك أن يعلن بلغة جليلة واضحة، أن مقصوده من وراء تأمين المدينة المنورة غير مفصول عن طلب عمارة الدنيا، وتقدم منجزها الحضارى المادى، الذى من شأنه أن ييسر على الناس حركتهم فى الحياة.

الحديث يفتتح أمره بعموم مقصود منصوص عليه باستعمال أشهر ألفاظ العموم والشمول فى المعجمية العربية، وهى: كل، والدافعة القلعة أو المرتفع، يجتمع فيه الماء فيجريه ويدفعه إلى أخرى، حتى يصل من بعدها إلى الوادى، وهو مما يلزم النبات بسببه كما تقول أدبيات المياه عند العرب، وفى الحديث نوع استغراق تراه من قراءة الفعل: دفع بالبناء للمعلوم محذوف المفعول، ليكون منفتحًا، بحيث يمتنع العبث بأى شىء يندفع جريًا فى المسايل والوديان، والحديث حريص على تعيين الأرض الحرام، باستعمال اسم الإشارة مضمومًا إلى الشعاب، ومفسرًا لها، وهو ما يعنى حياطة المدينة من جهاتها جميعًا بالأمان والحرمة.

الحديث يستعمل بنية الجملة الاسمية الطويلة منزوعة القرائن الزمنية؛ ليستديم الحكم الذى تحمله وتبشر به، وافتتح الخبر بالضمير: هى زيادة فى إخلاصه للإخبار ودفعًا لتوهم حمله على غير الإخبار، وهو نوع قصر يخلص الحرمة والأمان للمخبر عنه، وهى المدينة بشعابها، واستعمال ضمير الفصل فى هذا السياق تقنية ثابتة فى برامج البلاغة العربية.

وفى بيان أنواع المحرمات يذكر الحديث ثلاثة أفعال هى: تعضد، وتخبط، وتقطع واصلًا بينها بحرف العطف "أو"، المحتمل لمعنى الجمع أو التخيير، وهى أفعال متداخلة الدلالة ما بين قطع بآلة وبغيرها، وما بين قطع للأوراق أو جذور الأشجار، ومقصود الحديث من وراء التنويع منع الأشكال كافة على سبيل الإحصاء والحصر؛ مما يعنى حرمة أى شكل من أشكال التعرض لما تدفعه مسايل الماء، أو ما ينبت بسبب من جريانها يترتب عليه قطعها أصالة، أو النيل من غصونها وورقها.

والتنويع الدلالى مسلك عزيز من مسالك صناعة العموم فى برامج الأساليب العربية، يستحق التأمل والفحص.

ولأن التصور الإسلامى المستقر فى نصوصه الكبرى يدور مع المقاصد، جاء الاستثناء ليقرر حقيقة طلب أمان الأرض؛ دعمًا لمقدرات العمران فيها.

وقد استثنى الحديث، فلم يجعله من الممنوع، ثلاثة أشياء فى العد، هى: ما اتخذ من خشبة صغيرة توضع على ظهر البعير بتحمل ما عليه، وهو القتب، وهى الخشبة المسماة مجازًا باسم عصفور القتب؛ لصغرها، وما اتخذ من حبال الليف ليستعمل فى جر البكرات أو العجلات المستعملة لرفع الماء من الآبار، وهى المسماة باسم مسد المحالة، أو ما اتخذ ليكون رأس آلة للزراعة أو الاحتطاب وشئون الحياة اليومية؛ من فأس أو قدوم أو سكن أو غيرها، وهو المسماة عصا حديدة، وثلاثة الأشياء مثال جديد للتنويع الذى يرمى إلى الدلالة على العموم والاستغراق، بحيث لا يمنع قطع شىء من نبات المدينة إن كان القصد عمارة الأرض، وتنمية الحياة، وترقى وسائل العيش فيها.

والحديث يراوح، فيستعمل النص دالًّا على استغراق الحال والزمان معًا؛ بما زرعه فيه من ألفاظ العموم، وأسلوب التنويع والعد الدال عليه أيضًا؛ مما يجعل قضيته دائمة شاملة، ثم يعود فيبذر فيه عناصر لغوية دالة على التجدد والاستمرار؛ دعمًا للقضية نفسها، حين يستعمل ثلاثة الأفعال فيه مضارعة خالصة لانفتاح الزمان؛ بدليل تأولها جميعًا بالمصدر، بدليل أن المصدرية بعد "حرام".

وفى الحديث بعض ماء كلام النبوة فى استحضاره النص الكريم عندما يستعمل لفظة "مسد"، وهى كلمة قرآنية قطعها عن إيحاءاتها القرآنية السلبية، استعملها مضافة إلى محالة.

وفى الحديث نوع تصميم مثالى، يرعى التزام رتب الكلام، فيبدأ بالمبتدأ وينتهى بالخبر، ويستعمل المقيدات الكثيرة؛ طلبًا لإحكام النص ووضوحه، شأن كل نصوص الأحكام والتشريع والقانون.

والحديث مثال فريد كذلك لحسن توظيف الجناس بين: دافعة / ودفعت، وفيه حسن تقسيم، يخلق إيقاعًا داخليًّا من استعمال الأفعال المضارعة على وزن واحد، وبطريقة نطق واحدة، مبنية جميعًا للمجهول، تعميمًا لجنس الفاعلين، أيًّا ما كانت منازلهم، وفى الحديث نوع إجلال ناشئ من قراءة الوقف على كل عبارة، تمكن المتلقى من تحصيل مراده.

الحديث يعلن أن طلب الشريعة للأمان يسير متعانقًا مع طلبها للعمران.

والحديث وإن تذرع ببرامج البلاغة العربية ليعلن عن عدد كبير من حقائق دعم التصور الإسلامى لأمان الحضارة، يوحى بعدد من الملامح الإيجابية التى ينبغى لحقل الدعوة والحضارة أن يستثمرها.

يشير الحديث إلى بعض المعانى الدعوية المهمة من مثل:

أولًا: ضرورة ارتباط الخطاب الدعوى بالمقاصد؛ بما هى صمام أمان حقيقى، يعين على فهم الشريعة ساعةَ تَمَنَّع، وتخفف من أعباء الحياة فى هذا السياق.

ثانيًا: ضرورة تنبه الخطاب الدعوى إلى رعاية التنويع والتقسيم فى المقامات الخطيرة، التى تشتبك مع القضايا الحيوية التى يتعرض لها الناس فى المجتمعات المختلفة.

ثالثًا: الحديث ينبه على أهمية أن يكون للداعية زاد متصل يربطه بالذكر الحكيم؛ لأنه منبع الحكمة، ومنبع التأثير فى الجماهير.

كما يشير الحديث إلى بعض الأبعاد الحضارية المهمة، من مثل:

أولًا: الحديث ينبه إلى ضرورة الإفادة من كل عطاء الله تعالى فى الطبيعة، وأنه بالإمكان خلق برامج تنموية، اعتمادًا على ما يمكن أن يسمى باسم اقتصاديات الطبيعة؛ كاستثمار

مدافع السيول فى توليد الكهرباء، واستثمار ما ترمى به فى إعادة تغذية التربة الصحراوية، واستصلاحها للزارعة.

ثانيًا: الحديث ينبه إلى ضرورة التوسع فى صناعة أنباط المياه، والاستثمار فيها، وفى مجالات التصنيع والميكنة الزراعية؛ باعتبار ذلك من خطاب الضرورات التى يلزم الأمة تقديمها على غيرها.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب أمام أهمية صناعة موسوعات لصناعات العصر النبوى الموروثة من الجاهلية، دراسة تطويرها؛ لأن فى ذلك فوائد علمية وفكرية وثقافية وصناعية لا حصر لها.

***

تجديد مفهوم الزمان

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "**على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**" [متفق عليه من حديث البخارى ٤/٩٥، حديث ١٨٨، ومسلم حديث ١٣٧٩، وأحاديث فضائل المدينة، ص ١٦٦، حديث ٧٥].

هذا حديث نفيس فيما يشيعه ويذيعه من أمر منزلة المدينة المنورة، صلى الله على ساكنها، وقضيته ذائعة مقررة، يدعمها أن الله سبحانه فضل بعض الأماكن على بعض؛ لحكمة يعلمها.

والحديث وهو يقرر أمر هذا التكريم والتشريف لهذا المدينة المباركة، يعتمد الوسائل البلاغية طريقًا لتأسيس المعرفة والمعنى:

الحديث جملة اسمية طويلة، تقدم فيها الخبر، وهو: على أنقاب المدينة، على المبتدأ وهو: ملائكة، والتقديم محكوم بفلسفة ملخصها دعم المتقدم، وبيان فضيلته فى نفس المتلقى، وحمله على استشعار هذه الفضيلة، والتعلق بها، فللتقديم بعد نفسى، يقول لما كان أمر المدينة، وبيان شرفها هو عمود ما يقوم عليه الحديث، تقدم ما يدل عليها، والخبر هنا شبه جملة، مكون من: جار، هو: على، ومجرور، هو: أنقاب المدينة، معرفًا بالإضافة، وفى استعمال (على) ما يدل على تمام حماية هذه الأنقاب؛ إذ فى معنى الاستعلاء المركوز فيها مظنة تحقق هذه الحماية التامة، وفى بعض أخلاق السرعة ما يدعم ذلك؛ إذ يؤمر الراكب والماشى أن يسلم على من يخالفهما فى هيئتهما، ربما لعلة الاستعلاء، وفى استعمال المجرور معرفة بالإضافة زيادة بيان، وتحقيق تلذذ بذكر الموطن الشريف المقصود.

وجاء المبتدأ المؤخر: ملائكة، نكرة جمعًا؛ للدلالة على الكثرة والتنوع؛ مما يشعر بمزيد تحقيق لحمايتها وحراستها وتحقق البركة فى جنباتها.

ثم أطال الحديث الجملة الاسمية بما استعمله من جملة: لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، وهى جملة تابعة حققت للحديث دلالات ظاهرة؛ فقد فسرت وظيفة الملائكة

الذين يستعلون على أنقاب المدينة، وبدا أنها للحراسة والحماية والبركة، وكأن هذه الجملة ترادف جملة أخرى لم تظهر فى هذا النص فى جملة: يحرسونها؛ نعتًا للملائكة.

وأمر الحماية والحراسة مفهوم من جملة: لا يدخلها، التى تحتمل أن تكون كناية عن تمام سد أنقاب المدينة، وفعالية الحراسة.

وربما كانت الجملة نوع تعليل نادر، تقوم به جمل النعت فى مدونة النصوص العربية، فيكون المعنى: على أنقاب المدينة ملائكة، ولأجل ذلك لا يدخلها الطاعون ولا الدجال.

والتعليل باب واسع جدًّا متشعب جدًّا، من بعض نتائجه هنا حمل المتلقين على الاقتناع والتصديق بحقيقة قضية الحديث.

والحديث أشبه بنصوص الأحكام فى تصميمه، خلوصًا إلى القصد، وبيانًا للمراد، وإحكامًا وضبطًا، وربما كان تحليل بنية الزمان فيه دالًّا على ما نقرره، فالحديث يعلن حكمًا عامًّا فى الزمان؛ بدليل خلو جملته الأساسية (الخبر والمبتدأ) من أى قرينة دالة على الزمان، وهو ما يعنى دوام الحكم الذى تحمله وتشيعه فى جانب صيغة المضارع، التى هذه وظيفتها، ما لم تقترن تصرفها عن الدوام والاستمرار، وجانب استعمال النفى بلا، من دون غيرها من حروف النفى المتضمنة معنى زمنيًّا، كلمة أو لما، أو لن، فالنفى بلا مفتوح على الزمان، خالص للجحود أو السلب فقط.

وفى الحديث نوع مجازات خادمة لقضيته، داعمة لما يريد أن يؤسسه من معرفة، ففى استعمال الأنقاب فضل دلالة عن حياطة طبيعية، متمثلة فيما يلى المدينة من جبال؛ إذ الأنقاب مداخل بين الجبال.

وربما كان فى استعمال الطاعون الذى لا يدخلها مجاز، مراده نفى دخول عموم الشرور والبلاء والأمراض المهلكة إلى المدينة؛ من إطلاق الأنوع المشهورة وإرادة الأنواع جميعها.

وربما كان فى استعمال الدجال الذى لا يدخلها كذلك كجدار، مراده نفى دخول عموم الفتن والأراجيف التى تزلزل إيمان الناس بالمدينة، من إطلاق النوع المشهور وإرادة أنواع الفتن جميعًا. وفى هذا الترتيب ما يوحى بتقديم / مقام حفظ/ الأبدان على حفظ الأديان.

وقد حرص الحديث على تكرار حرف النفى: لا مع الدجال كذلك؛ توكيدًا لحصول عدم إمكان الدخول منفردين أو مجتمعين؛ إذ فى عدم استخدام "لا" مع الدجال ما يحمل على تأويل المعنى أن النفى قائم متوجه لدخولهما معًا؛ مما يعنى إمكان دخول كل واحد منفرد؛ فجاء استعمالها متكررًا؛ لتعميم النفى إفرادًا وجمعًا.

وفى الحديث حفاوة باستعمال أصوات المد فى كل كلمة من كلمات الحديث التسعة، وهو الأمر الذى يعين على قراءة الحديث بهدوء وتفصيل، يحمل على تأمل معناه، واستخلاص قضيته، ويحقق نوع جلال وسكينة مناسبة لمقام جلال المدينة المنورة، ورفعة منزلتها.

الحديث عنوان جديد، يوسع مفهوم الأمان؛ ليشمل سلامة الأحياء فى الأبدان والأديان.

وفى الحديث الشريف كثير من الإشارات التى يصح أن تستلهم فى دعم الخطاب الدعوى، من مثل:

أولًا: ينبه الحديث على أهمية بيان أن مقاصد الشريعة متوجهة إلى حفظ الأبدان والأديان، وهو منطق قرآنى ظاهر فى مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

ثانيًا: فى تصميم الحديث ما يدل على أهمية الأداء المتمهل الهادئ فى بعض الأوقات، وهو غير المعهود فى أداء كثير من الدعاة المعاصرين، الذى يفهمون خطأ أن الدعوة يلزمها الانفعال بالصوت المرتفع من دون غيره، والحديث يفتح الباب أمام قضية التنويع فى الأداء، بحسب الموضوعات المختلفة.

ثالثًا: الحديث يؤكد أن للغيب حضورًا فى حياة الناس، وتأثيرًا فى حركتهم، وهو ملمح ينبغى أن يظل قائمًا؛ لأن له نتائج نفسية طيبة على الجماهير، تحملهم على الاطمئنان والسكينة.

وفى الحديث كذلك عدد من الإشارات التى يصح أن تستلهم فى دعم الأصول الحضارية فى مسيرة الأمة، من مثل:

أولًا: تنبيه الحديث على أهمية خضوع اختيار مواقع المدن الجديدة لاشتراطات أمان وحماية طبيعية، وهو الأمر الذى يمكن أن يستلهم من النص على أن للمدينة أنقابًا، أو مداخل من بين الجبال، وهو أمر مشاهد فى التخطيط العمرانى قديمًا.

ثانيًا: تنبيه الحديث على أهمية العمل فى اتجاه حماية الجماهير من الأمراض، بما يمكن أن يسمى دعم سياسات الطب الوقائى، وهو بعض ما يظهر من تعبير: "لا يدخلها"، بما يعنى العمل على منع حلول الأمراض، والتوقى منها، بتعميم سياسات التحصين ضدها.

ثالثًا: تنبيه الحديث على أهمية التحرك فى مسارات حماية عقول الجماهير من الأفكار الهدامة، والمخادعة، وهى الكامنة فى بعض ما يرمز إليه استعمال عبارة: لا الدجال؛ إذ الأمراض نوعان؛ مرض أبدان، ومرض عقول ووجدان!

***

جامع فضل المدينة

عن العباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة، فالتفت إليها، وقال: "**إن الله قد طهر هذه القرية من الشرك، إن لم تضلهم النجوم. قالوا: يا رسول الله! كيف تضلهم النجوم؟ قال: ينزل الله الغيث، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا**" [وفاء الوفا، للسمهودى ١/١٠٩٩، وخرجه هناك من سند أبى يعلى ١٢/٧٧،٧٠، حديث ٦٧٠٩، ٦٧١٤].

هذا حديث جامع فى بيان فضل المدينة المنورة، وتقدير شرفها، وتعاليها عن غيرها من البقاع، التى أذن الله تعالى فى تكريمها، وتفضيلها.

والحديث ينتهج فى تصميمه طريقة تعلن ذلك الشرف بما لا يتطرق إليه شك، أو يبقى احتمالًا لا يتغير.

فالحديث يبدأ بجملة اسمية أحيط ركنا الإسناد فيها بعنصر لغوى يحقق التوكيد؛ سعيًا لتثبيت الحقيقة التى يعلن عنها، فالمبتدأ أو اسم إن مؤكد بها، وجملة الخبر مؤكدة باستعمال قد، ومؤكدة باستعمال صيغة الماضى، وباستعمالها تثبيت لليقين الذى تحمله وتذيعه.

وقد حقق إسناد أمر التطهير إلى الله سبحانه الدرجة العليا لأى تصور يطيف بمعنى التطهير الذى لا مزيد عليه؛ إذ ليس بعد تطهير الله تعالى شىء يمكن تصور زيادته، وقد جاء استعمال الفعل مزيدًا بتضعيف العين؛ ليعلى من درجة معناه، وفق القاعدة الغالبة التى تقرر: أن فى زيادة المبنى زيادة فى المعنى.

وقد تعينت البقعة التى وقع عليها أمر التطهير باستعمال اسم الإشارة هذه مع القرية، وقد دل ذلك على تعيين لا لبس فيه، تركزه فى حدود المدينة المنورة جميعًا، بدليل قرينة الالتفات إليها، كما جاء فى جملة السرد التى حكاها سيدنا العباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فى التمهيد بيد يدى الحديث بقوله: "خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة، فالتفت إليها وقال".

وقد جاءت شبه الجملة: من الشرك؛ لتكشف عن بيان ما طهره الله تعالى منها، وهى هنا بيانية ربما قصدت إلى تطهيرها من الشرور كافة والأوزان كافة بذكر أعلاها؛ لينفى ما

دونها فى الدرجة، وقد استقر فى مقام النفى والإنكار أن نفى الأعلى متضمن نفى ما دونه فى الدرجة، بمعنى أن الله تعالى طهر المدينة من كل رجس وشر، صعودًا إلى تطهيرها من أعلى صورهما، وهو: الشرك، ربما أمكن أن نلمح فى هذه الجملة الخبرية بعضًا من الأغراض البلاغية التى يمكن أن تحمل عليها، فهى حقيقة فى أول النظر إليها، تقر معرفة وحقيقة تطهير الله تعالى لها من الشرك، وهى ربما دلت على الأمر بحياطة هذا التطهير بما يحفظه، ويصونه، ويستديمه، ويبعد ما ينال منه، وهى ربما دلت على إرادة تشريفها، وبيان نبلها.

وفى استعمال جملة الشرط: إن لم تضلهم النجوم بالتفسير الوارد فى إجابة سؤال السائلين عن كيفية وقوعه، ما يوحى بالإنذار والتحذير من بعض مداخل الشرك الخفى، الذى ربما لا ينتبه إليه آحاد الناس أو مجموعهم؛ مما يحمله ﷺ على تحذيرهم من وقوع فى نسبة نزول المطر إلى غير منزلته سبحانه وتعالى.

وإن جملة: إن لم تضلهم النجوم، تحتمل أن تكون شرطية، قامت مع جملتها؛ وفاء لمهمة التحذير من بعض صور الشرك الخفى، وتحتمل النفى، أى: ما لم تضلهم النجوم، وهى مع جملتها للغرض نفسه، والمعنيان قائمان يحتملهما النص الشريف؛ إعمالًا لقاعدة تزاحم المعانى فى النصوص الجليلة.

وفى الحديث نوع تنويع أسلوبى، يعتمد فى جزئه الأول على الإخبار لأغراض متعددة، وعلى الحوار ومادته السؤال والجواب فى جزئه الأخير؛ طلبًا للتعليم من بعض طرقه الواضحة؛ شحذًا للأذهان، وحملًا على التنبيه واليقظة، سعيًا لتحصيل المراد.

والجملة الإنشائية التى من نوع الاستفهام فى: كيف تضلهم النجوم؟ محتملة للإقرار سعيًا لتعليم الأمة، وتحتمل الإنذار سعيًا لتحذير الناس من بعض مسارب الشرك الخفى.

والجملة الواردة فى سياق الجواب، ليست للحصر والإحصاء فيما يبدو، وإنما لضرب الأمثال بأشهر ما يعرض لهم فى حياتهم؛ ذلك أن نزول الغيث من أكثر الأشياء التى تتعلق بها نفوس العرب فى جزيرتهم على امتداد تاريخهم الطويل؛ لأنه مادة حياتهم وبقائهم.

والحديث كله كناية عن شفقة النبى ﷺ، بأمته بما ينصحهم به ويعلمهم إياه من أمر ضرورة التوقى من تعكير صفو إيمانهم بالله سبحانه، والابتعاد عن صور ما ينال من نقاء توحيدهم له.

إن الحديث بلغة واضحة مؤكدة أن للإسلام مناطق محمية، يمكن أن تمثل منارات للتجديد، كلما تعرض إيمان الناس لمخاطر الانتقاص والتشويه.

وفى الحديث عدد من الإضاءات التى يمكن استثمارها دعويًّا، من مثل:

أولًا: ضرورة بيان أهمية العقيدة فى حياة الناس، وتذكيرهم دائمًا بأهمية تطهيرها مما يمكن أن يكدرها، أو ينال من صفوها.

ثانيًا: ضرورة الاعتماد على الأمثلة الشائعة، واعتبار التعليم آلية من آليات الدعوة، يلزمها ضرب الأمثال، والتقاط ما يشيع فى أوساط الجماهير من سلوكهم وأقوالهم وتصويبه.

ثالثًا: ضرورة التنويع فى أساليب الدعوة، والمراوحة بين السرد والحوار ... إلخ.

وفى الحديث كذلك عدد من الفضاءات التى يمكن استثمارها حضاريًا، من مثل:

أولًا: أهمية دراسة الظواهر الطبيعية والفلكية فى ضوء الاعتقاد الإسلامى، والتوفيق بين العلوم والعقيدة.

ثانيًا: ضرورة دراسة التوسع فى مسرحة العلوم فى ميادين التعليم، تسهيلًا لتيسير تحصيلها على المتعلمين، والحديث يقدم مثالًا للتنويع فى تقديم المعرفة.

ثالثًا: ضرورة اعتماد الوسائل المحلية والإقليمية فى مناهج التعليم بديلًا عن استيراد الأمثلة أو النماذج؛ لأن فى ذلك تيسيرًا ظاهرًا على المتعلمين، وقد حكى كثيرون من رواد التعليم فى بلادنا فى سيرهم الذاتية أهمية الاعتماد على المكونات الثقافية المحلية فى مساعدة الطلاب على تحصيل المعارف المختلفة.

❊❊❊



فى بلاغة الميلاد الجديد
قراءات فى التحليل البلاغى
لأحاديث الحج والهجرة

التلبية طريق لتناغم الكون !
(إسلام العالم)

عن سهل بن سعد الساعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من ملب يلبى إلا لبى عن يمينه وعن شماله من شجر وحجر ومدر، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا" (صحيح ابن خزيمة ٢٤٧٠، وسنن ابن ماجه ٢٩٢١).

هذا حديث فريد فيما يقرره من أمر إمكان تناغم الكون بمكوناته جميعًا؛ أحيائه وجماداته، وهو دليل على أن إجابة أمر الله تعالى سبيل أكيد لتحقيق انسجام الوجود كله. لقد دأب الناس على الكلام عن السلام الاجتماعى، والحديث يفتح الباب أمام شىء جديد، يمكن أن يسمى باسم: سلام العالم.

والحديث وهو يسعى نحو بيان واحد من سياسات تحقيق سلام العالم، يتذرع بعدد من التقنيات البلاغية المتنوعة:

الحديث شغوف بالعموم؛ تحريضًا على الاستجابة لله تعالى، وإعلان الدخول فى طاعته وهو معنى التلبية، وقد حقق ذلك باستعمال: "ملب" نكرة فى سياق النفى، وهو الأمر الذى يتخلق منه العموم، وهو عموم جاء مؤكدًا بدليل استعمال حرف الجر الزائد "من".

وهو شغوف بالعموم كذلك من خلال استعمال طباق الاستغراق فى: عن يمينه وعن شماله، وهو يقصد من استعماله أن كل شىء يلبى فى كل مكان!

وهو شغوف به كذلك من خلال استعمال: شجر وحجر ومدر نكرات مؤكدات بمن الزائدة، ومن خلال تنوعها الدلالى وتوزعها على الأحياء والجمادات.

وفى الحديث نوع تقديم وتأخير، حيث تأخر الفاعل: من شجر، وتقدم عليه شبه الجملة: عن يمينه وعن شماله؛ سعيًا لإظهار أهمية استجابة ما فى الكون جميعًا للتلبية.

وفى هذا الجزء من الحديث نوع مجاز من إسناد الفعل: لبى إلى ما لا سند إليه عادة، وهو: شجر وحجر ومدر، وهو أمر مقصود تأكد باستعمال حرف الجر الزائد من.

والحديث فى حرصه على ديمومة هذا الأمر، حرص على استعمال الفعل فى صيغة المضارع: فى: يلبى، وفى: تنقطع؛ لكى يقرر أن انسجام الكون وسلام العالم قضية متجددة وقائمة على امتداد الزمان، ومستمرة باستمراره.

وجاءت جملة: حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا؛ لتقرر استفاضة شعيرة التلبية فى المكان جميعًا، وهى الاستفاضة الملموحة من وراء استعمال النكرات فى: شجر وحجر ومدر، فى سياق دال على العموم، ومن وراء استعمال هذه الألفاظ، بما فيها من تنوع دلالى، يستغرق أنواع الموجودات جميعًا، ومن وراء استعمال طباق الاستغراق فى: عن يمينه وعن شماله!

ولا ينال من ذلك كله استعمال: حتى، التى لانتهاء الغاية؛ ذلك أن التركيب اللغوى: حتى لا تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا، وإن صمم على إفادة انتهاء الغاية المكانية، بدليل استعمال حتى، فإنه منفتح على اتساع المكان؛ لأن الأرض حقيقة لا تنقطع لأنها بيضاوية أوكروية، والأرض فى النص تحتمل أن تكون الأرض المعهودة، فتكون "ال" فيها للعهد، وتحتمل أن تكون جنس المعمورة، فتكون "ال" فيها للجنس، والحديث حفى بعدد من الإجراءات البديعية، التى تشع نوع جماليات صوتية، تتناغم مع غرضه، حيث نجد تكرارًا لمشتقات الفعل: لبى، وهو التكرار الذى صنع إيقاعًا موسيقيًّا، يناسب تردد التلبية من الشفاه بإيثار استعمال صوت الباء الشفوى فى: ملب / ويلبى / ولبى! وهو نوع جناس داخلى.

فضلًا عن تواتر استعمال الميم فى ما / ومن / وملب، وهو صوت شفوى كذلك، يعين على تمثل حال الملبى المعاود المكرر!

والحديث أيضًا حريص على عهد الجماليات الصوتية الموسيقية التى يصنعها استعمال: شجر، وحجر، ومدر، المتوافقات فى الوزن أو الصيغة والقافية أو الحرف الأخير، وهو نوع سجع، وتوازن.

وقد أسهم تصميم الحديث على رعاية الوقف أو السكت فى مفاصل متنوعة منه؛ بسبب من إيثار التنوين أو المقطع الثالث، المكون من صامت وحركة قصيرة وصامت،

على تحقيق نوع سكينة، تناسب طبيعة المقام البلاغى المتعلق بالتلبية؛ بما هى نسك جليل ظاهر الجلال.

إن الحديث وهو يسعى نحو تناغم الكون يعلن أن توحيد الرب سبحانه وتعالى طريق مأمونة لتحقيق سلام العالم.

والحديث وهو يقدم مثالا فريدًا لأثر التوحيد وإجابة الله تعالى فى تحقيق تناغم عناصر الوجود والكون، يفتح الباب أمام عدد من الأصول الدعوية، من مثل:

أولًا: ضرورة تنبه الخطاب الدعوى المعاصر إلى الموضوعات التى تحقق الانسجام للإنسانية، وتحقق عيش الإنسان فى وسط تحفه أجواء السكينة.

ثانيًا: ضرورة العناية بتربية الجماهير على السلوك العملى الذى يصب فى تنزيه الله تعالى، من مثل التلبية.

ثالثًا: ضرورة التنبيه إلى أن الكون كله عابد لله تعالى، يسعده إشاعة إجابة الله تعالى وطاعته.

كما أن الحديث وهو يقدم المثال لأثر التوحيد فى تحقيق تناغم الوجود، يلمح إلى عدد من الأصول الحضارية التى يمكن استثمارها، فى مثل:

أولًا: ضرورة التنبه إلى استثمار الشعائر الإسلامية القولية؛ كالتلبية فى دعم الفنون القولية، وتطوير أنظمة الموسيقى والألحان.

ثانيًا: الحديث يفتح الباب أمام ضرورة احترام التنوع الحضارى الإقليمى (شجر/ حجر/ مدر)، بما توحى إليه من ضرورة تنوع الخصائص المعمارية للبيئات الزراعية، والبيئات الصحراوية، والمناطق الحضرية التى تستعمل البيوت المبنية من الطين وغيره.

ثالثًا: ضرورة العناية بالجماليات الصوتية فى الإعلام المسموع.

***

الحج الواعى

عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: **"من طاف بهذا البيت أسبوعًا فأحصاه كان كعتق رقبة، لا يضع قدمًا، ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة، وكتب له بها حسنة"** (سنن الترمذى ٣/٣٩٢ حديث ٩٥٩).

هذا حديث عجيب فيما يرسيه من دعائم الوعى عند إتيان مناسك الحج، وهو حديث مدهش فيما يرتب من آثار على هذا الوعى المنشود فى أعمال هذه الفريضة الجليلة.

والحديث باب واسع من أبواب النجاة والسعادة والترقى نحو الملائكية، وهو يصنع ذلك جميعًا معتمدًا عددًا من الإجراءات البلاغية المتنوعة.

الحديث حريص على تعميم الأجر ليشمل المسلمين جميعًا، وهو بعض ما يفرضه الاسم العام "من" حريص على الإطناب الذى تحقق بالعطف حينًا وبالبدل حينًا، وبأشباه الجمل حينًا آخر؛ سعيًا نحو البيان، أو حياطة الحج بما يعين طبيعته المرجوة.

وفى الحديث حفاوة بتشريف البيت الحرام، وتقدير منزلته، وهو بعض ما نلمحه فى استعمال الإشارة إليه فى قول الحديث "من طاف بهذا البيت" والإشارة، فضلًا عما تحققه من تعيين تشير إلى تكريم البيت بطلب التعلق به.

وفى الحديث استعمال عجيب للعد باستعمال كلمة "أسبوعًا"، والمقصود بها سبعة أشواط، وفى هذا النوع من العد طلب تام الوضوح، وفيه كناية عن التأنى فى الطواف؛ ليعين هذا التأنى على تحقيق الإحصاء المراد فى تعبير الحديث "فأحصاه"، والإحصاء نوع وعى، ورعاية لمقام البيت وأجزائه؛ طلبًا لتشريفه والتمتع به فى الطواف.

وفى الحديث تشبيه ظاهر جعل الطواف الوعى الذى يسعى نحو تشريف البيت وحياطته بالكرامة والتشريف، مثل عتق الرقبة، وهو تعبير عريق فى بنية النصوص الإسلامية عن الحرية والإحياء والنجاة، وتأمين النفس الإنسانية، والتشبيه يستهدف

تقرير أن الطواف الواعى بالبيت الحرام ينتقل بحياة الإنسان من الرق المعنوى إلى العتق والتحرر المعنوى؛ تحليقًا فى أجواء التخلص من قيود الطين والعبودية المهينة.

والحديث وهو يسعى نحو تحقيق هذا الارتقاء للإنسانية المسلمة، يتذرع بما يمكن أن يسمى فى بنية علم المعانى بطباق الاستغراق فى جملتى: "لا يضع قدمًا، ولا يرفع أخرى"، وهو نوع طباق مركزه استعمال: "يضع" فى مقابلة "يرفع"؛ ليحقق نوع شمول وعموم، يقرر أن كل حركة من الحاج ساعة طوافه، مقدرة، تسهم فى تنامى حسناته فى الميزان، وهو الطباق الذى يدعمه كذلك استعمال: "خطيئة" فى مواجهة: "حسنة"، وهو الطباق الذى يسعى فى تضافره إلى شىء واحد، هو ترقى الحاج فى سلم الكمال بتحصيل أعلى درجات الرقى بالخصم من رصيد خطاياه، وبالإضافة إلى رصيد حسناته.

والحديث مع ذلك يعتمد بنية الكناية الموسعة سعيًا نحو الارتقاء بمقام الطائفين ساعة سيطوفون، ثم هو كله كناية موسعة عن فضل الطواف وفضل فريضة الحج. ويعتمد استثمار ضمائر الغائب فى جملة: طاف (هو)، وفى جملة: أحصاه، وجملة: لا يضع قدمًا، وجملة: لا يرفع أخرى، وهذا الاستثمار لضمائر الغياب هدفه اتساع دائرة المخاطبين لنشر عموم الخيرية والثواب فى الناس جميعًا.

ثم إن الحديث حفى باستعمال النكرة فى سياق يشبه النفى، والمستقر فى البلاغة والأصول أن النكرة فى سياق النفى تدل على العموم والاستغراق، وهو ما يعنى أن هذا الطواف الواعى شأنه أن يمحو عموم الخطايا، وأن كل حرمة وضعًا أو رفعًا سبيل موطوءة للترقى النبيل فى مدارج الإنسانية الكاملة.

ويأتى كل ذلك مشفوعًا بمجموعة من العناصر الموسيقية البديعية المحققة للجماليات على المستوى النفسى للمتلقى، تجد ذلك فى الجناس بين: يضع / يرفع، وتجد ذلك فى توزيع ثنائيات صوتية على مسافات إيقاعية فى مثل القاف فى: عتق / ورقبة، والسين والصاد فى: أسبوعًا، وأحصاه، والطاء فى حط، وخطيئة، فضلًا عن الجناس المتضافر مع السجع الناشئ من القراءة بالوقف على خطيئة وحسنة فى جملتى الحديث الأخيرتين.

إن الحديث الشريف يشعرنا بتشوف الشريعة الغراء إلى ترقى الإنسانية المسلمة فى مدارج الكمال الإنسانى الفريد، وطموحها نحو تحقيق الرعونة فى الدنيا والآخرة؛ ليمثل نمطًا فريدًا، يمكن أن يؤسس لما يمكن أن يسمى ببلاغة الكمال.

إن الحديث الجليل وهو يسعى نحو بيان فضل الحج وفضل الطواف، يمكن استثماره دعويًا وحضاريًا وفق ما يلى:

أولًا: الحديث يفتح الباب أمام ضرورة تمتع الخطاب الدعوى بالوضوح الجليل والبلاغى.

ثانيًا: ضرورة اعتماد الخطاب الدعوى على الجماليات الصوتية، التى من شأنها التأثير الجليل والجميل فى النفس الإنسانية المتلقية.

ثالثًا: ضرورة التنبه إلى أهمية مخاطبة مناطق الجذب فى العقل والوجدان المسلم، فى طموحه نحو ما يحقق سكينة النفس بحيازة الثواب العميم.

ومن ناحية أخرى يفتح الحديث الباب أمام تأمل مجموعة من العلامات الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة العناية بتيسير الطواف، وخدمة قضية إحصائية، والوعى بأشواطه، وما يحيط بها ويكملها، وييسرها، ويعين على أدائها بصورة جيدة.

ثانيًا: ضرورة خدمة نصوص الشريعة، بما يعين على تفهمها، بجمع تعابيرها، وكناياتها وجمالياتها، والجديد فيها تقدمه لتحليلها والإفادة منها.

ثالثًا: ضرورة العمل على تعميم حصول الخير للجميع من غير تفرقة بين قطاعات من الناس.

***

خير البر عاجله

عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **"من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة"** (سنن ابن ماجه).

هذا حديث يحنو على مستقبل المسلم، ويتعاطف مع مقدراته، ويرنو مشفقًا إلى نجاته وإنقاذه، ويعمد إلى زيادة رصيده من الخير والإحسان، ويعمل على تسامى منزلته فى الآخرة.

وهو حديث يدفع فى اتجاه سياسة تبدو ثابتة للمنهجية الإسلامية فى استثمار اللحظة الراهنة، وعدم التضحية بها؛ إيمانًا بأن الغيب ملك لله وحده، وهى المنهجية التى لخصتها عبارات سائرة، من مثل: خير البر عاجله، ومن مثل: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

والحديث وهو يفعل هذا يتذرع بعدد من التقنيات البلاغية المتنوعة:

الحديث يفتتح قضيته بجملة اسمية شرطية، جاء المبتدأ فيها اسمًا موصولًا عامًّا، وهو: "من"، وهو مفتتح مقصود من ورائه صناعة عموم يستحث الأمة جميعًا؛ رجالًا ونساء، صغارًا وكبارًا؛ ليبرهن على أن إرادة الخير فى التصور الإسلامى تطمح إلى توسيع شريحة المستهدفين، ويعين على تحقيق فعل الجواب فعلًا مضارعًا مسندًا لضمير الغائب متصلًا بلام الأمر؛ لتوسيع دائرة المخاطبين بهذا الأمر.

والحديث حريص على إظهار الشفقة والنصح، وهو الأمر الذى نلمحه من استعمال صيغة المضارع، المتصل بلام الطلب ندبًا وتحسنًا للمأمور به، فضلًا عن ارتباط ذلك بدلالة الفعل المعجمية التى تحض على الإسراع بتحويل الإرادة والعزم على الحج إلى أرض الواقع؛ تنفيذًا له.

والحديث حريص على التعليل لما يندب إليه بجملة مؤكدة بإن، ساعة يقول فإنه يمرض المريض، وتضل الضالة، وتتعرض الحاجة، والربط بالفاء هو مدخل صناعة هذا التعليل، وهو تعليل يستهدف تحقيق الامتناع بمطلوب الحديث الشريف، ثم زاد فأكد

ذلك بافتتاح هذا التعليل بأداة هى نص التوكيد، وقد تذرع الحديث باستعمال ثلاثة الأفعال المضارعة؛ ليدعم فكرة تجدد المسألة، وتغطيتها للمستقبل فى تقلب الأحوال، وشموله للزمان كله؛ دليلًا على انفتاح مطلوب الحديث على الزمان والأجيال جميعًا.

ثم إن الحديث استعمل ثلاثة الأفعال المضارعة فى صيغة الغائب مذكور الفاعل؛ ليحقق اتساع شرائح المخاطبين من جانب، وليوقع الأفعال على فاعليه غائبين غير حاضرين فى الخطاب؛ تخفيفا من ألم الأفعال، وهو من سعادة اللفظ، ومراعاة المتلقين بما لا يؤذى نفوسهم؛ إذ الملافظ سعد!

وتنوع العلة والعذر مقصود منه الدفع فى اتجاه الخير، بالسير فى اتجاه مناسك الحج، لا على جهة حصر فروع الأعذار، وإنما على جهة حصر كليات الأعذار، وهو ما يفسر ذكر ثلاثة أنواع الأعذار فى ذات نفس المسلم، وفى الدابة التى تحمله، وفى الظروف الملابسة لحياته؛ تنويعًا لعوارض الحياة فى الذات والحيوان والبيئة.

ومن هنا فإنه يبدو خروج الواو عن مقتضى دلالتها على مطلق الجمع إلى الترتيب بقرينة الحال، بحيث تكون جملة يمرض المريض، مقدمة على جملة وتضل الضالة، وهما مقدمتان على جملة وتعرض الحاجة، وهو ما يعنى حفاوة الفكرة الإسلامية بالإنسان ابتداء، ثم يتدرج فى العناية بما يربط به على الترتيب الوارد فى النص الكريم.

وفى الحديث حفاوة بالذكر والتعريف معًا، وهو ما يتجلى فى ذكر فاعل الأفعال الثلاثة معرفًا، وهو ما يعنى تقدير خطر الأعذار، وصنع العموم، ودفع توهم مواجهة المخاطب بالمرض، وضياع الضالة واعتراض الحاجة مباشرة؛ تحقيقًا لسعادة اللفظ، وهو سر من أسرار العربية فى عدم نسبة الشر إلى صانعه أو الواقع به مباشرة وتعيينًا.

وفى الحديث بعد ذلك كله نوع حسن تقسيم، يتجلى فى توازن جمله الثلاثة الأخيرة: يمرض المريض/ تضل الضالة / تعرض الحاجة، وفيه نوع جناس داخلى فى هذا التكرار النوعى لصوت الضاد.

والحديث كله كناية موسعة على عطف الفكرة الإسلامية على أبنائها، بإرشادهم إلى ما يرقى بحسناتهم فى الميزان. كما أنه كناية تدعم كون النبى ﷺ رحمة سابغة بالمؤمنين.

وتأمل هذا النص الشريف يفتح الباب واسعًا أمام عدد من الأبعاد الحضارية والدعوية، يمكن إجمال عدد منها فيما يلى:

أولًا: يفتح الحديث الباب أمام ضرورة مراعاة جمهور المتلقين بما لا يجرح مشاعرهم، وهو ما يتجلى فى نسبة المرض إلى المريض من غير مخاطبة المتلقين مباشرة.

ثانيًا: يظهر الحديث عناية الإسلام بعموم المسلمين، وهو ما ينبغى أن يتفهمه الخطاب الدعوى المعاصر، فى سعيه نحو العناية بأكبر قدر من التوافق.

ثالثًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بتقدير ما يتعلق بذات المدعوين بما يربطهم نفسيًّا بالفكرة الإيمانية المقدرة لضعفهم.

وفيما يتعلق بما يفتح الحديث الباب عليه فى البعد الحضارى، يمكن تأمل الملامح التالية:

أولًا: ضرورة ترتيب الأولويات فيما يصب فى العناية بما هو إنسانى فى المقام الأول؛ الأمر الذى يقتضى توجيه الاهتمام بصحة الإنسان، والاستثمار فيه بدرجة أساسية؛ بما أن الإنسان هو محور التنمية.

ثانيًا: يوجه الحديث إلى العناية بطرق المواصلات، ووسائل النقل.

ثالثًا: يوجه الحديث إلى ضرورة التضييق فى مواجهة المرض ومشكلات النقل والظروف غير العادية، بما يجعلها احتمالًا نادرًا، بالتخطيط لمواجهتها، وتقليل فرص وقوعها.

***

الحج بداية جديدة

عن أنس بن مالك، قال: وقف النبى ﷺ بعرفات، وكادت الشمس أن تئوب، فقال: **"يا بلال! أنصت لى الناس"**، فقام بلال، فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ، فسكت الناس، فقال: **"معاشر الناس! أتانى جبريل آنفًا، فأقرأنى من ربى السلام، وقال: إن الله غفر لأهل عرفات وأهل المشعر، وضمن عنهم التبعات، هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة"** (التمهيد لابن عبد البر).

هذا حديث من الأحاديث التى تبعث الأمل فى النفوس من جديد، ولا سيما أنه – بتصميمه اللغوى – يرعى معاشر الناس أو عموم المسلمين.

وهو حديث يفتح بابًا لما يسمى باسم بلاغة الجلال بما جمعه من روح المكان فى عرفات، وبما أوقفنا عليه من لحظة زمنية بالغة التأثير فى الوجدان، وهى ساعة: كادت الشمس أن تئوب.

والحديث وهو يدعو لما يمكن أن يعد بداية جديدة أو ميلادًا جديدًا يعتمد عددًا من التقنيات البلاغية المختلفة:

الحديث حفى بنقل الشعور بالجليل للمتلقى، من خلال المشهد الذى يصفه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث وقف النبى ﷺ، وهو الصمت الباعث على تقدير جلال اللحظة بكل حواشى المهابة التى تحيط بها.

ثم هو يبدأ بهذا النداء: يا بلال! الذى غرضه أمر بلال، ثم تكليفه بأمر صريح: أنصت لى الناس، أى / احملهم على الصمت؛ ليسمعوا، وطلب استنصات الناس يحمل دلالة على إرادة الخير لهم؛ تفويتًا لفرص إهدار كلام مفيد، يلزمهم سماعه والتعاطى معه.

وفى هذا الجزء من الحديث تتجلى إرادة الرحمة والشفقة والنصح العام المبذول للناس، وهى اللفظة التى ستكرر فى افتتاح كلامه ﷺ، بقوله: معاشر الناس، والناس هنا مرادف تام للمسلمين على امتداد الزمان، والألف واللام فيها للعهد الذهنى؛ إذ ليس معقولًا أن

تكون هذه المحنة التى يسوقها الحديث الشريف خاصة بحجيج الحديث الخيرة: هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، قرينة تدعم ما نقرره.

ونص كلام النبى الكريم يبدأ بنداء محذوف الأداة، يقول فيه: معاشر الناس! وهو أسلوب إنشائى، يستهدف التنبيه العام بعد تنبيه بلال، ويستهدف إعلامهم جميعًا، ويستهدف عمومهم، ويستهدف إرادة تجمعهم وترابطهم.

والحديث يصل إلى مراده بنوع سرد، يعتمد بنية الأسلوب الخبرى فى قوله: أتأنى جبريل آنفًا، فأقرأنى من ربى السلام، وهو فضلًا عما يحمله من توكيد، يبعث على التشويق، وتعلق الأفئدة به؛ إذ لا يأتى جبريل إلا بما هو وحى، والوحى قد استقر فى الوعى الجمعى للمسلمين مرادف للخير النازل من السماء، ثم يصعد النص، فيؤكد هذه الخيرية بنص إقراء السلام، والسلام أمان مادى ومعنوى معًا.

الحديث يقرر مطلوبه مشفوعًا ببنية توكيد ظاهرة، ساعة يقول: إن الله غفر لأهل عرفات وأهل المشعر، وضمن عنهم التبعات، والتوكيد ظاهر فى استعمال: إن، وفى استعمال الفعلين الماضيين: غفر / وضمن.

وهو أسلوب خبرى يقر حقيقة إسقاط الذنوب، وحقيقة الميلاد النقى الجدى، ويقر أيضًا رحمة الرب السابغة، وحنانه الفياض بمن انخلعوا من أرضهم وأهليهم، شوقًا إلى البيت الحرام، وشوقًا إلى المشاعر الطاهرة.

وتأمل الوصل فى: إن الله غفر لأهل عرفات وأهل المشعر، وضمن عنهم التبعات، بما بين الجملتين من ترادف، إلى الإحساس بتوكيد المنحة الربانية، ويقذف باليقين فى النفس المسلمة المقبلة على ربها فى الحج، ويرقى بدرجة الأمل، ومحاصرة أى علامة لليأس، مهما كان حجم الذنب الذى يحمله الخلق قبل حجهم.

والحديث حريص على بلوغ بلاغة الجلال بديعيًّا، بإيثار الوقف، الناشئ من حسن تقسيم جمل الحديث، ومنه إيثار أصوات المد لتحقيق أعلى قمم صوتية.

وفيه كذلك نوع جناس وسجع بين: عرفات / والتبعات، وهى محددات تهدف جميعًا إلى تغذية مشاعر الجلال والسكينة والهيبة من جانب، والبلوغ بالرسالة إلى عموم المتلقين من جانب آخر.

وفى الحديث نوع عناية، يدفع توهم أن هذا الخير لحجيج المشهد فقط، هو ما يفهم من عبارة: هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، ودفع التوهم باب جليل خادم للرحمة بالمسلمين فى عموم نصوص الشريعة الغراء.

وفى ضوء كل ما مر يظهر من فحص الحديث بعض من الأصول الدعوية والحضارية يمكن أن نشير إليها فيما يلى:

أولًا: يدعو الحديث الدعاة أن يحرصوا على محددات بلوغ الخطاب واضحًا، صافيًا نقيًّا، بعيدًا عن أجواء التشويش.

ثانيًا: يعلمنا الحديث ضرورة رعاية عموم المدعوين، والوصول إليهم جميعًا، والابتعاد عن الخطاب الموهم الملتبس.

ثالثًا: يعلمنا الحديث أهمية رعاية الدعاة لمقامات تشويق المدعوين؛ طلبًا لجذبهم وتعلقهم بمادة الخطاب الدعوى.

ومن جانب آخر، فإن الحديث يفتح عيوننا على أهمية العلامات الحضارية التالية:

أولًا: ضرورة العناية بتقنيات إيصال الصوت نقيًّا واضحًا، وهو بعض ما ينبغى أن ينشغل به الدعاة فى علوم الاتصال.

ثانيًا: ضرورة العناية بفنون التأثير فى الجماهير، وتنويعها بحسب المقامات والأحوال المختلفة.

ثالثًا: ضرورة الدعوة إلى فحص النصوص الشرعية فى ضوء تقنيات السرد والقص المعاصرة؛ للإفادة منها.

***

تجليات من أخلاق الرعاية للضعفاء

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة"** (سنن النسائى، كتاب الحج، باب فضل الحج ٥/١١٤، والترغيب والترهيب للمنذرى ٢/١٠٩، حديث ١٦٤٥).

هذا حديث فريد فيما يكشف عنه من حرص الشريعة على ما يسمى أحيانًا باسم أخلاق الرعاية لمناطق الضعف الإنسانى، وهو مثال فريد كذلك فيما يسبغه من أجواء العطف على أجناس الضعفاء من خلق الله تعالى.

والحديث وهو يدخل إلى مقصوده هذا، يعتمد تصميم النصوص القانونية المحكمة، وهو الأمر الذى ظهر فى عدد من اللمسات اللغوية، من مثل: الإحكام، والوضوح، والخلوص إلى القصد، وتعيين المقصودين، وترتيبهم، وانفتاح الحكم على الزمان، بتغييب القرائن الزمنية؛ ليكون الحكم عامًّا فى الزمان، وهذه الخصائص جميعًا أنتجها نمط من التوظيف البلاغى المتنوع.

الحديث جملة خبرية طويلة، تهدف إلى بيان حكم شرعى ابتداء، وتهدف إلى الترغيب فى الإقبال على الحج من قبل هذه المجموعات المذكورة، وتهدف إلى إشاعة روح الأمل فى المناطق الضعيفة من البشرية؛ لتحملهم على إدراك قيمتهم فى الوجود الحى، وتهدف إلى دفعهم لحيازة الأخلاق الكريمة، التى تنشئها العبادات فى النفوس.

وتأمل منشأ الطول فى جملة الحديث، نجد أنه وارد من توظيف العطف بالواو، التى توشك أن تغادر معناها المتداول إلى معنى الترتيب بقرائن سياقية وعقلية، وهذا العطف الذى خلق نوع إطناب، مقصود منه إحصاء أجناس الضعفاء؛ دفعًا لتوهم إقصاء فريق منهم، أو تهميشه، أو عدم العناية به.

وفى الحديث حفاوة بتعريف كل فريق باستعمال "ال" التى للجنس؛ لتحقيق الشمول والاستغراق.

وفى الحديث نوع تقديم وتأخير، حيث تقدم الخبر: جهاد الكبير، وتأخر المبتدأ الحج والعمرة، صحيح أن المبتدأ هو عين الخبر فى المعنى، لكن التقديم هنا حقق أمرين ظاهرين، هما:

أولًا: إظهار العناية بالمتقدم، وهو الجهاد، بما يسكن المفردة من عوالق دلالية ترقى بمنزلتها، وتعلى من رتبتها.

ثانيًا: تحقيق ارتباط المتلقين نفسيًّا بالنص، عن طريق صناعة التشويق، الذى يحمل المتلقى على التشوف إلى المعنى المنتظر، وهو ما يعنى أن التقديم حقق ارتقاء بمنزلة الحج فى التصور الفكرى الإسلامى لشرائح هؤلاء الضعفاء.

ومن جانب آخر، فإن ثمة ما يوحى بخروج الواو عن معناها الذى هو مطلق الجمع، إلى ما يوحى بإرادة الترتيب، صحيح أن الجمع قائم لكن الترتيب يعكس وعى الشريعة بنسق أخلاقى يقدم توقير الكبير وخدمته، ويتابع فيحنو على الصغير، ويقدر رحمته، ويشمل الضعيف أيًّا ما كان سبب ضعفه، ويقدر المرأة؛ مريدًا الانتصاف لها من أوزار ومواريث ظالمة من حقب زمنية سابقة.

وتأمل التعاطف بين الحج والعمرة يؤكد خروج الواو عن ما تواتر من معناها إلى الجمع والترتيب؛ ذلك أن الحج ركن والعمرة متأرجحة بين الفريضة والنفل.

لقد حرص الحديث الشريف على الوضوح والإبلاغ والبيان والقصد، وهى خصائص معروفة فى برامج التشريع والقانون، وقد تذرع النص الشريف كذلك بعدد من السمات البديعية، أعانت على تحقيق قدر من الإيقاع المريح، فى إيثار استعمال صيغة: فعيل، فى الكبير والصغير والضعيف، بما فيها من مد، يعين على استقبال النص.

كما تذرع الحديث باستعمال نوع سجع داخلى بين الكبير والصغير، زاد من الإحساس بالقيم الجمالية الصوتية، وإن جاء متخفيًا فى بنية الحديث الداخلية.

كما أن التضاد الظاهر من استعمال: الكبير والصغير، يمكن أن يسهم فى تحقيق نوع استغراق يغطى مساحات واسعة من مناطق الضعف الإنسانى.

إن هذا الحديث مثال رائع لحفاوة الدين العظيم بالضعف الإنسانى، ومثال ظاهر التكرار لتقدير التعبد، وما يحققه من الارتقاء الإنسانى، ومن العطف والحنو على مناطق درجت الأفكار والأنظمة التشريعية القديمة على التنكر لها وإهمالها.

إن التعبير عن الحج والعمرة بأنها جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة، فضلًا عما فيه من تقدير هؤلاء جميعًا، فيه كذلك تقدير لما يبذل من نفقة وجهد ومشقة، وهو تقدير يبعث على رفع الروح المعنوية فى هذه الشرائح فى الأمة. إن الحديث كله كناية عن فضل الحج الغامر على مناطق الضعف الإنسانى، بما يفتحه لها من مسارات الرجاء والأمل فى تحصيل الثواب.

إن هذا الحديث بتصميمه ووضوحه وخلوصه إلى القصد، يفتح الباب أمام عدد من الأصول الدعوية، يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يلى:

أولًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بالوضوح والبيان والخلوص إلى القصد من أقرب سبيل.

ثانيًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بقضايا الضعف الإنسانى، وتوزيع الاهتمام بمناطق المجتمع كله.

ثالثًا: أهمية ترتيب الأولويات، وتقديم الهم فالأهم والأضعف فالأضعف، وتأسيس ذلك شرعيا.

ومن جانب آخر فإن هذا الحديث الكريم يفتح الباب أمام عدد من الأصول الحضارية يمكن إجمالها فيما يلى:

أولًا: ضرورة التوجه نحو العناية بمؤسسات رعاية الضعفاء والمسنين.

ثانيًا: ضرورة الإسراع فى العناية بتشريعات إنصاف المرأة، وترقية المؤسسات العاملة فى مجال الطفل والمرأة.

ثالثًا: ضرورة العناية بدراسات خصائص النصوص التشريعية وتصميمها وبلاغتها.

استبشار الروح !

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: **"إذا حج الرجل عن والديه يقبل منه ومنهما، واستبشرت أرواحهما فى السماء، وكتب عند الله برًّا "** (رواه الدار قطنى).

هذا حديث رائع فيما يشيعه من أجواء إيمانية، وفيما يشيعه من رقى أخلاقى، عنوانه البر بالوالدين إلى ما لا حدود، وفيما يرسخه من ثقافة البهجة أو الاستبشار.

وهو حديث ينضوى تحت باب واسع، يعرف اصطلاحًا باسم أحاديث الترغيب، وهو مصطلح ربما صح أن يرادف بلاغة الحفز والحث والنهوض نحو المكارم.

والحديث وهو يدخل إلى ذلك يعتمد عددًا من الإجراءات البلاغية المختلفة والموزعة على علومها جميعًا:

الحديث يفتتح أمره بجملة شرطية فعلية، تخلصه للمستقبل، بموجب استعمال "إذا"، التى هى ظرف لما يستقبل من الزمان، واستعمال فعل الشرط ماضيًا، فجاء للدلالة على العزيمة واليقين والتوكيد، ولا سيما أنه ماض فى الصيغة، مستقبل فى الحقيقة؛ بفعل وقوعه فى حكومة "إذا"، واستعمال فعل الجواب مضارعًا جاء للتجدد والاستمرار، واستدامة الفصل والأجر وانفتاح القضية على الزمان.

والحديث حفى بالعموم الذى صنعه استعمال الرجل، متضمنًا معنيين هما:

١ - العموم والشمول بدليل استعمال "ال" التى للجنس.

٢- والعموم والشمول كذلك من استعمال لفظة (رجل)، التى تستحيل بفعل السياق الخارجى المستقر من أحكام الشريعة، لترادف الإنسان أو المسلم، فالحديث يرغب الإنسان المسلم رجلًا، أو امرأة؛ للقيام بهذا الفضل الأخلاقى نحو الوالدين، وفى استعمال الرجل بمعنى الإنسان نوع تغليب للشيوع والكثرة، وتعود السفر والمشقة من دون إهدار لحق المرأة فى هذا البر.

والحديث حفى بالعموم أيضًا، بما يظهر من استعمال: والديه، مثنى؛ ليغطى أنواع الآباء والأمهات جميعًا بلا تفرقة، وبما يظهر من استعمال الضمير فى: منه (للحاج)، ومنهما (للوالدين)؛ ليقرر عموم الثواب للجميع بلا نقص من أجر أحد، وفعالًا لا يتوهم.

وفى استعمال: يقبل بالبناء للمجهول، نوع دلالة على العلم بالفاعل سبحانه، ونوع دلالة على الإسراع بتحقيق البشرى بقبول العمل، دفعًا إلى المبالغة فى طمأنة من يفعل ذلك.

والحديث على مستوى توظيف منجز علم المعانى، كذلك حريص على استثمار بلاغة الوصل الذى يظهر من استعمال العطف بالواو فى: يقبل منه ومنهما، وفى: واستبشرت أرواحهما، وفى كتب عند الله برًّا، وهذا الوصل بما خلقه من إطالة الكلام استهدف المبالغة فى الحث على فضل بر الوالدين، بالحج عمن لم يحج منهما، بحشد الآثار الإيجابية المترتبة على ذلك بالقبول، والاستبشار، والكتابة فى سجل الأبرار عند الله تعالى.

وقد لعب استثمار أشباه الجمل دورًا ظاهرًا فى تصميم الحديث، فجاءت أشباه الجمل: عن والديه / ومنه / ومنهما / وفى السماء / وعند الله؛ لتصنع مجموعة من الدلالات المهمة جدًّا، يتصدر منها:

أولًا: صناعة العموم والشمول والاستغراق، فعن والديه، ومنه، ومنهما رسخت أن الأجر متوافر للجميع.

ثانيًا: صناعة الوضوح والبيان، باستيفاء معانى الأفعال التى جاءت أشباه الجمل هذه لتخدمها، وتتعلق بها، فعرف أن الحج المتفضل عليه بما ذكر من الثواب، مرتبط بكونه عن الوالدين، وأن القبول عام فى الفاعل والمفعول معًا.

ثالثًا: صناعة الامتداد الزمنى، فقد دل استعمال: فى السماء، إلى أن بهجة الروح أمر قائم فى الدنيا حال الحياة، مستمر بعد الموت، وهو ما يعنى تحريض الحديث على فعل الخير، والوفاء لأصحاب الأفضال علينا ممن لحقوا بربهم الكريم.

رابعًا: صناعة الجلال؛ ذلك أن فى السماء من جانب، وعند الله من جانب، صنعت جلالًا وارتقاء؛ لاستبشار الروح، ولكتابة من حج عن والديه، فى ديوان البر، بما يرقى برتبته ومنزلته وشرفه.

وفى الحديث نوع مراوحة فى استعمال الأفعال للمعلوم والمجهول، فى تواز مثير للانتباه؛ فحج فعل مبنى للمعلوم، يعقبه يقبل مبنى للمجهول، واستبشرت مبنى للمعلوم، يعقبه كتب مبنى للمجهول، وفى الذكر فى الأولين، وفى الحذف فى الآخرين نوع حفاوة بالإنسان المسلم المعنى بالقضية، والحديث فى ذكره وحذفه حريص على طمأنة ذلك المسلم ساعة يذكر، ومسرع فى طمأنته ساعة يحذف.

وفى تقديم (عند الله) على (برًّا) فضل ظاهر يعلو بدرجة الكتابة؛ ليحظى الإنسان بالشرف السابغ، وفيه نوع هضم بديع للذكر الحكيم، فى مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، فقدمت صاحب الجوار على مكان الإقامة، وفى الحديث تقديم مكان الكتابة على المكتوب؛ لأن فى ذلك التقديم نوعًا مما يعلو بشرف المكتوب!

الحديث كله كناية موسعة عن فضل الله السابغ على من يروم بر والديه بالحج عنهما، وهى كناية مركبة من كنايات متداخلة عن المغفرة فى (يقبل)، وهى الفرح الدائم فى "استبشرت"، وعن الشرف المقيم فى: "كتب عند الله"؛ ليعلن الحديث أنه سطر رائع فى تاريخ استبشار الروح!

والحديث وهو يعالج قضيته بالوالدين بشكل عملى، يفتح الآفاق على مجموعة من الأصول الدعوية، من مثل:

أولًا: ضرورة العناية بقضايا فرحة الروح، وبهجة النفوس.

ثانيًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى بمؤسسة الأسرة وتماسكها، وتواصل البر، والوفاء بين عناصرها.

ثالثًا: ضرورة توجيه الخطاب الدعوى إلى العناية بالقضايا العامة التى تشكل أبناء المجتمع كله، ففى هذا الحديث تتوجه عناية الحديث إلى الأبناء والآباء جميعًا، ولا يخرج المجتمع – على اتساعه – عن أن يكون مجموع أبناء وآباء.

والحديث كذلك ينفتح لسبيل ظاهر على مجموعة من الأصول الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة العمل على تيسير الحج، وتيسير سبيله، والإعانة على ذلك ماديًّا وتشريعيًّا.

ثانيًا: ضرورة العمل على العناية ببرامج بر الآباء فى المجتمع، بما يضمن استطراق ذلك الفضل فى الأمة جميعًا.

ثالثًا: ضرورة التأكيد على شيوع البهجة والاستبشار، وترسيخ ذلك ثقافيًّا عن طريق المنتجات الثقافية المختلفة.

***

الهجرة تأسيس جديد للحياة

عن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: **"أما علمت أن الهجرة تهدم ما كان قبلها"** [صحيح الإمام مسلم بشرح النووى ٢/٤٩٧].

من رحمة الله تعالى السابغة بالأمة أن يهيئ لها سبل التأسيس الجديد للحياة؛ ذلك أن امتداد الزمان مقرونًا بطبيعة الإنسان فرضا ضرورة معاودة بناء الحياة من جديد، بعد أن ران على وجهها ما نحا بعيدًا عن حقيقة الإنسانية.

وهذا الحديث يؤسس لهذا المعنى الفريد، بالتنبيه إلى طريق جامعة، قادرة على إعادة النضارة إلى وجه الحياة، كلما هب ما ينال من هذه النضارة والغضاضة.

والحديث وهو يدخل إلى صناعة هذا المعنى يعتمد عددًا من الإجراءات البلاغية المنشئة للمعرفة؛ إذ يفتتح باستعمال الحرف "أما"، وهو للاستفتاح؛ تنبيهًا على المعنى الجليل، الذى يقع مؤكدًا فى سلطتها وحوزتها، والاستفتاح باب واسع على تقدير منفعة المتلقى، بمنحه فرصة لاقتناص المعنى كاملًا، لا يضيع منه شىء، ولا يحتاج معه المتكلم إلى تكرار شىء؛ لأنه منح المتلقى وقتًا لتلقن الكلام، والاستعداد بترك المشاغل لتلقيه.

واستعمال الفعل علم مسندًا إلى تاء المخاطب، دليل على تأسيس هذه المعرفة بأثر الهجرة فى بناء الحياة الجديدة؛ إذ العلم قضاء على حالة تناقضها، وإسناد الفعل إلى تاء المخاطب تقريب لنفس المتلقى، وإقبال عليه، وإيناس لنفسه فى مواجهة وحشة الجهل وقسوة التعليم.

ثم استعمل الحديث الشريف أن ومعمولها، وقد قامت بوظيفة مفعولى علم، وهى المراد من الحديث، جعل مادة العلم المطلوب بثها فى النفس المسلمة، وقد جاءت مؤكدة والهجرة المعرفة بال صالحة للعهد؛ فتكون الهجرة الاصطلاحية التى بها قيام الدين، وافتتاح حياته الحقيقية بعد عصر الاستضعاف فى مكة المكرمة، وهو ما يعنى أن الهجرة كانت نقطة البدء للحياة الحقيقية، بعد أن هدمت تاريخ الظلام فى العالم، وال صالحة

كذلك للجنس، وهى ساعتئذ تعنى أن كل هجر للشر والسوء من شأنه أن تبنى الحياة من جديد على أنقاض الحياة المتهدمة القديمة.

وجاء خبر إن جملة فعلية فعلها مضارع، وهو "تهدم"؛ لتدل على التجدد، وهو ما يقوى معنى انفتاح أثر الهجرة على الزمان، وتدل على الاستحضار والتمثل، وشىء قريب من الشهود أو الشهادة، تقوى أثر الفعل فى النفس والعقل.

وجاء مفعولها عامًّا مستغرقًا، وهو "ما"، وهى لفظة من ألفاظ العموم، وهو ما يعنى أن الهجرة تمحو أنواع الشرور جميعًا، وجاء استعمال شبه الجملة: قبلها؛ لتحقيق شىء، يسمى فى البيان باسم زيادة التبيين، أى أن الهجرة هادمة لما يكون فى الزمان الذى سبقها، ثم تأتى "قبلها" لدعم هذا التبيين.

فى الحديث نوع كناية عن صفة تحقر ما كان عليه أمر ما قبل الهجرة، تلمحه من دلالات الهامشية لاستعمال الفعل: تهدم، التى تدل على شىء من الازدراء، وتأخير الرتبة والشر.

وفيه نوع كناية عن رحمة النبى ﷺ وشفقته بالأمة، بتعليمهم أسباب بناء الحياة الجدية النامية.

وقد حرص الحديث على توكيد ما تضمنه الحديث من قضية من بدايته، بوسائل مختلفة مستعملًا "إن" والفعل الماضي، كما حرص على بيان حصول العلم اليقينى بمضمون الحديث، وفى استعمال "أن"، التى هى نص فى التوكيد.

وفى الحديث نوع سلاسة وانسيابية، تسمى باسم السهولة فى البيع، جاءته من استعمال الألفاظ خالية التعقيد الإفرادى، وخالية من التعقيد فى السبك، وفيه إيثار لاستعمال حركتى الفتح القصيرة والطويلة، بنية وإعرابًا؛ وهو الأمر الذى يحقق نوع ارتياح يناسب قضية الحديث.

وفيه نوع توظيف للمقاطع الصوتية التى تحتوى على أصوات طويلة صامتة أو صائتة فى/ أما / وما / وكان / وقبلها، وفى: أن، وهذا الطول حقق نوع جلال، يناسب طبيعة القضية التى يعالجها.

وقد وقع استعمال: ما كان تامًّا، أى فعلية بمعنى حصل؛ إخلاصًا للعموم فى الحديث، وطلبًا لقدوم طول الحديث، وربما صح أن تكون "إما" للعرض والحض، فيكون الحديث صريحًا فى الطلب، فيكون بابًا مفتوحًا على النصح والندب، بما ينفع الناس، ويدفعهم إلى تحصيل ما به رقى حياتهم.

إن السنة المشرفة ما تزال وستظل طريق الأمة إلى تجديد حياتها، وستظل الهجرة أوسع باب لبناء الحياة على النقاء والطهر والنور.

وسيظل العلم الذى يبثه الإسلام فى الناس، هو ضمانة العودة إلى الإنسانية وإلى الحياة الحقيقية التى يريدها الله سبحانه لخلقه؛ سعيًا نحو المقاصد التى يريدها من التوحيد وتزكية الأنفس وإعمار الوجود؛ تمهيدًا للقائه تعالى، فيوفى المهاجرين أجرهم الذى ينتظرهم.

وفى الحديث عدد من العلامات التى يمكن استثمارها دعويًّا، من مثل:

أولًا: ضرورة الانطلاق من مفهوم للدعوة، يجعلها نوعًا من أنواع التعليم، وهو ما يحمل الدعاة على أهمية تأسيس نوع معرفة جديدة للجماهير، وعدم الاكتفاء بالمتداول المألوف لعناصر الجمالية المؤثرة فى النفوس.

ثانيًا: ضرورة الحرص على السهولة، والبعد عن التعقيد فى الخطاب الدعوى، مع توافر العناصر الجمالية المؤثرة فى النفوس.

ثالثًا: ضرورة تحصيل الدعاة خصائص كلام النبوة الكريم، وأنه مصمم على الاكتناز، المعروف تحت مظلة، أنه أوتى ﷺ جوامع الكلم.

وفى الحديث كذلك عدد من العلامات التى يمكن استلهامها حضاريًّا، من مثل:

أولًا: أهمية الحرص على الجماهير، والشفقة بهم فى عملية تعليمهم، وعدم تفويت شىء من المنافع المظنونة، وهو ما يفرض على الأمة التفكير فى إعداد الخرائط الزمنية لما يعرض عليهم إعلاميًّا.

ثانيًا: التوسع فى مطاردة علامات الشر، وهو بعض المستفاد من استعمال "ما"، الدالة على العموم المادى وغير المادى.

ثالثًا: التوسع فى العناية بالهجرة وتاريخها وأماكنها، والإبداع فى تحويلها إلى مسارات عملية مادية؛ تحقيقًا للأهداف التربوية، بعمل متاحف وأعمال درامية، ومجسمات وجداريات ... إلخ.

***

الهجرة باقية !

عن جنادة بن أبى أمية، قال: انطلقت إلى رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله: إن ناسًا يقولون إن الهجرة قد انقطعت! فقال رسول الله، ﷺ: **"إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد"** [مجمع الزوائد٢/٢٥٤].

ثمة باب ضخم يحتاج إلى مزيد فحص ودراسة وتحليل، يمكن أن يسمى باسم بلاغة الأمل، أو ثقافة التفاؤل وبلاغة البشرى، ويرد تحت هذا الباب عدد كبير من نصوص السنة الشريفة، وليس تجاوزًا ولا شططًا، أن يندرج هذا الحديث الشريف ضمن مدونتها الكريمة.

الحديث يبدو استجابة لإنقاذ أمة بلغها ما يثير انقباض نفسيتها، ويضيق صدرها، وهو ما يعكسه استعمال الفعل: انطلقت على ما فيه من دلالات السرعة المسكونة باللهفة، وهى السرعة المشفوعة باستعمال فاء العطف التعقبية التى للترتيب والسرعة.

وفى الحديث نوع خلوص إلى الهدف من أقصر طريق، تراه فى: انطلق، فقلت. وفيه استعمال لاسم إن نكرة؛ إشارة إلى استفاضة الأمر، وشيوعه؛ مما يجعل المسألة مما عمت به البلوى، وهو نوع تحنن إلى مقام النبى ﷺ، وربما كان التنكير إشعارًا بالكثرة المعينة عن التعيين، وتنفيذ الأمر سابق فى أخلاق الإسلام، بعدم النقل عن أحد عساه يكون سببًا فى ضيق الصدور وتغيير النفوس، فضلًا عن استعمال فعل الخبر ماضيًا، وهو ما يعنى تحققه ووقوعه يقينًا.

وجملة كلام النبى ﷺ ناسبت جملة الصحابى، فاستعملت أجزاءها مع نفى الخبر نفيًا سلبيًّا، باستعمال لا النافية، وفى ذلك إعانة على إجابة الملهوف من أقصر طريق؛ تعاطفًا مع حالته.

وفى استعمال: إن الهجرة، نوع مناسبة لما ورد فى جملة الخبر، التى سيقت، نوع ترطيب على القلوب، وفى استعمال "لا" التى للنفى من دون غيرها من حروف النفى، ولا سيما لم

التى للنفى والقلب، ولن التى لنفى المستقبل، مقصود؛ لتأكيد بقاء عدم الانقطاع، واستمرار الهجرة على الزمان؛ إذ لا للنفى غير المقطوع فى أى من الأزمان المختلفة، ثم جاء الفعل المضارع بعدها، وهو: تنقطع؛ ليدعم تجددًا لحكم استمراره وبقائه على الزمان.

وجاءت جملة: ما كان الجهاد، وقد احتملت معانى كثيرة، فهى شرطية؛ مما يعنى بقاء حكم الهجرة معلقًا بقيام الناس بفريضة الجهاد على اتساع جغرافيته.

وربما احتملت أن تكون خرافية، فيكون المعنى بقاء حكم الهجرة فى الناس مدة حصول الجهاد فى أوساطهم. وربما كانت "كان" ناسخة، ويكون خبرها محذوفًا؛ لحصوله فى اليد مقدرًا بقائمًا؛ أى: ما كان الجهاد قائمًا فاشيًا فى الناس، وربما كانت "كان" تامة، فيكون الجهاد فاعلها، ويكون المعنى: ما بقى الجهاد أو ما حصل الجهاد.

وحمل الجملة على أى من المعنيين معناه اتساع فضل الله تعالى على الأجيال جميعًا، وبقاء أجر الجهاد على الزمان، وهو مقتضى من مقتضيات عدل الله سبحانه.

وفيه نوع تصديق لمواضع من الذكر الحكيم، تجعل المنزلة الرفيعة مرصودة لثلة من الأولين وثلة من الآخرين، ولا يكون ذلك إلا مع بقاء أجر الهجرة وعدم انقطاعها. والتعريف فى محورى جملتى الحديث فى: الهجرة والجهاد، أمر مقصود؛ إما لاستغراق أنواع الهجرة الباقية فى ظل بقاء أنواع الجهاد جميعًا، وإن حملت ال على الجنس، فهى فيهما له، ويكون المعنى بقاء أجر الهجرة الاصطلاحية، مع قيام المرء بالجهاد الاصطلاحى.

الحديث مثال بديع فى الخلوص إلى الهدف من أوضح طريق، وهو مثال فريد فى السهولة البديعية؛ إذ مفرداته خالصة من الغرابة والغموض، وتركيبه خال من التعقيد، وفيه كناية ظاهرة عن الأمل والبشرى، وكناية عن إجابة الملهوف، وإغاثة المكروب.

وفيه نوع جناس بين: انقطعت / تنقطع، وفيه طباق سلبى بين انقطعت / ولا تنقطع، وحسن تقسيم ومناسبة بين جملتى السائل والمجيب ﷺ. وكل ذلك حقق إيقاعًا جليلًا، يتناغم مع غرض الحديث وقضيته، فهى موسيقى باعثة على تسكين النفس وتأمينها، وفى

الحديث من جهة الشمائل نوع استحضار للغة الذكر الحكيم، فى مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وأرجو تأمل جملة مقول القول، ومقارنة جملة الحديث بها، وهو الأمر الذى يعنى أن الكتاب العزيز سقى كلام هؤلاء الكرام، وشكل سمت كلامهم.

وفى السنة باب جليل حريص على إشاعة الأمل، وتأسيس ثقافة البشرى، والناس مدعون أن يلتفوا حول هذا الأصل الجامع لإنقاذ عالمهم، وإنعاش وجودهم.

والحديث وهو يشيع ثقافة البشرى مسكون ببعض العلامات الدعوية، التى يصح استثمارها فى العصر الحديث، من مثل:

أولًا: ضرورة عناية الخطاب الدعوى المعاصر بثقافة البشرى، وبلاغة التفاؤل، والتقاط محددات الأمل من أحداث الشريعة وأحكامها.

ثانيًا: الحديث ينبه إلى ضرورة اعتماد إجراء بحثى مهم جدًّا للدعاة، يتمثل فى جمع نصوص المسألة الواحدة، والتوفيق بينها؛ مما يعنى أهمية تضطلع الدعاة المعاصرين من الفقه.

ثالثًا: أهمية التنبيه إلى خطر السيرة النبوية فى استلهامها للواقع المعاصر، وفى دلالة الناس على الاستجابة لما شغل أذهان الخلق، ويسبب لهم قلقًا وتوترًا.

وفى الحديث بعض الأبعاد الحضارية من مثل:

أولًا: الحديث يفتح الباب إلى توجيه الأجهزة الإعلامية، إلى ما يؤثر فى الرأى العام، واستفتاء المختصين فى تفسيره، وإيجاد حلول من الخبراء لما يقلق الناس ويتهدد حياتهم.

ثانيًا: ضرورة العناية بالروح المعنوية للجماهير، وإشاعة أجواء البشر، وما يحمل على العمل والتقدم فى ميادين الحياة، وافتتاح دروب الأمل الذى يصنع الانتماء للأوطان.

ثالثًا: الحديث يفتح الباب مجددًا أمام تأمل تقنيات الحوار وأشكال التواصل بين الجماهير وقيادتهم، وهو أمر مهم فى خلق أجواء التوافق وخدمة القضايا الإنسانية الملحة.

عليكم بالهجرة !

عن أبى فاطمة الضمرى، قال: قلت يا رسول الله حدثنى بعمل أستقيم عليه وأعمله، قال رسول الله ﷺ: **"عليك بالهجرة؛ فإنه لا مثل لها"** [الجامع الصغير ٢/٦٠].

إن فحص السنة المشرفة من الوجهة الدلالية أمر ما يزال فى حاجة ماسة إلى القيام والنهوض به؛ إذ فى مدونتها نصوص كثيرة جدًّا، تفتح أبوابًا وآفاقًا متجددة لما يمكن أن يسمى باسم بلاغة التنوع، فى الحث على اقتناص المنافع، وباب الإغراء المعروف فى اصطلاح النحاة بباب عزيز فى النصح للأمة؛ باعتبار أن معناه حمل المخاطبين على التعلق بأمور بقرينة امتداحها!

وهذا الحديث نموذج فى الاستجابة لاستنصاح مستنصح، وإجابة سائل يطلب الإعانة على ما به تكون نجاته، وهو ما تكشف عنه جملة طلبه: حدثنى بعمل أستقيم عليه وأعمله. الرجل يلتمس ويرجو وهو المفهوم من الفعل: حدثنى، بعد وقوعه فى حوزة ندائه ﷺ. والرجل السائل مستقيم مع طبيعته التى تملى عليه طلب شىء قليل يمارسه، ويتعهد بالحفاظ عليه، وهو بعض الملموح من جملة أستقيم عليه، وهو المعنى الظاهر من استعمال: عمل؛ مفردًا نكرة. وكلام هذا الجيل من الناس عجيب فى سمته وبيانه، الذى يعكس صفاء فطرة ونقاء سجية، تكشف عنها مسألة القصد إلى المراد من أوضح طريق، وأقصره، باستعمال تراكيب مكتنزة، لا تعترف بفائض فى المعجم أو التراكيب.

ويأتى جواب النبى ﷺ مستجيبًا لطلب النصح، فينصح بإعلان امتداح الهجرة، فاستعمال اسم الفعل: عليك، وهو يحمل دلالة الأمر المسكون بدلالة الإغراء التى وردت إليه من النقل التركيب النحوى، واستعماله فى البدء، إسراع بالاستجابة؛ إذ مقامه ﷺ هو مقام الرحمة، التى لا مزيد عليها فى دنيا الناس، وفى استعمال "ك" الضمير، بديلًا عن "كم"، مع كون الأمر للنصح والشفقة عامًّا فى آحاد الأمة، نوع تقدير وتعاطف وإقبال على السائل تعيينًا؛ إشعارًا باحتوائه، وتحقيقًا لذاته، وكسبًا لقلبه، وعناية به، واستعمال

الباء المحتملة للاستعانة أو المصاحبة، فيه نوع مناسبة خفية للباء المستعملة فى بعمل فى سؤال السائل أولًا. وفيه نوع سلاسة للانتقال من عليك، إلى المنصوح باستصحابه والانتقال من الأمر بها إلى بيان فضلها؛ لاستغراق النصح بما هو داخل فى معناها، فهى منصرفة إلى كل ما فيه ترك السوء والشر ماديًّا ومعنويا، وفيه الحركة والانتقال وراء مظان الخير، وطلب الجهاد، وفى الحديث نوع تذليل وتعقيب، يصنع شيئًا يسمى فى برامج البيان باسم الزيادة فى التبيين من طريق التعليل، فقد جاءت جملة: فإنه لا مثل لها؛ لتؤكد امتداح النصح بالأمر بالهجرة، بذكر سبب هذا الأمر بما يظهر منزلته.

إن جملة إنه لا مثل لها متصلة بما قبلها عن طريق الفاء، مؤكدة بإن وخبرها جملة اسمية منفية بلا النافية للجنس؛ إمعانًا فى الارتقاء بدرجة الهجرة. النبى ﷺ يضرب المثال البديع فى كونه أولى من يطبق قاعدة: المستشار مؤتمن. إن المبالغة فى بيان منزلة الهجرة بما هى طريق نجاة إن استقام فاعلها عليها، مقصود لأنه ﷺ أوفى ما يؤدى الأمانة بين البشر جميعًا، **ومن أجل ذلك:**

أ- افتتح فامتدح ما سئل عنه.

ب- ثم ثنى فعقب بما يشعر بأنه لا شىء يعادل الهجرة أو يدنو منها.

والحديث جملة إنشائية طلبية، ظاهرها الأمر، وحقيقتها النصح والتعليم، والإعانة على تحصيل ما به السعادة والنجاة من جانب رسول الله ﷺ، وإنشائية طلبية تذرعت بفعل الأمر للالتماس، وحمل فيها الفعل حدثنى على معنى: مرنى؛ بدليل التعدى بالباء.

وفى الحديث نوع مناسبة خفية؛ إذ أجاب النبى ﷺ عين مسألة بعدد كلمات سؤاله نفسها، فقد سأل السائل بخمس كلمات، هى: حدثنى / بعمل / أستقيم / عليه/ وأعمله، فكان جوابه ﷺ خمس كلمات، هى: عليك / بالهجرة / فإنه / لا مثل / لها.

والحديث نموذج لنصوص البيان الموجز، الذى يستجيب للسائل طالب النجاة، وطالب التخفيف؛ إذ السائل يطلب عملًا، والحديث يجيبه ببيان عمل واحد يرقى برتبته ومنزلته.

إن السنة المشرفة ما تزال ترشد الناس إلى كنوز من الخير، بجوامع الكلم التى تحتمل كنوزًا وافرة من الخير، وتستفيض فى إقامة الدليل من بعد الدليل على قيمة ما ترشد الناس إليه، وعينها دائمًا على هداية الناس، والأخذ بأيديهم إلى مسالك النجاة ومسارب النور، وقام جيل عظيم، فأعطى من نفسه القدوة فى الالتزام بالعمل والاستقامة عليه، فكان مثالًا عجيبًا فى حركته المنضبطة فى الحياة، على هدى من الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ.

والحديث يشير إلى عدد من الأبعاد الدعوية، من مثل:

أولًا: يشير الحديث إلى أهمية تحبيب الأفعال المأمور بها، وبيان محاسنها، وامتداحها من كل طريق، وهو بعض سر استعمال أسلوب الإغراء.

ثانيًا: يشير الحديث إلى أهمية التواصل الحوارى بين الداعية وجمهوره، يسمع منهم، ويجيبهم إلى أسئلتهم.

ثالثًا: الانطلاق فى الخطاب الدعوى من النصح للمدعوين، وإظهار الشفقة بهم، وإرادة الخير لهم، وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى الحياة.

ويشير كذلك إلى بعض الأبعاد الحضارية، من مثل:

أولًا: ضرورة الاستجابة لدواعى التيسير والتخفيف، وعدم اتهام الناس فى سعيهم نحوه؛ ذلك أن الصحابى الجليل سأل عملًا يستقيم عليه، فأجيب إلى عمل طلبه.

ثانيًا: الحديث كاشف عن أهمية الحركة المتسعة فى اتجاه محاربة السلوك السيئ بعمومه؛ طلبًا لانسجام الحياة، وقد استعملت لفظة الهجرة معرفة من أجل ذلك المسعى العام.

ثالثًا: الحديث يشير من طرف خفى إلى ضرورة العناية بتمهيد الطرق، والتوسع فى العناية بها؛ تيسيرًا للانتقال، والتوسع فى إقامة المجتمعات العمرانية الجديدة؛ لكى تتيح لمن ضاقت به سبل الحياة فى منطقة، أن ينتقل إلى منطقة أخرى، تعينه على افتتاح حياة جديدة، يمتنع فيها عما كان داعية شر فى السابق.

* * *

المحرم شهر الله

عن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتى النبى ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، أخبرنى بشهر أصومه بعد رمضان؟ فقال رسول الله، ﷺ: **"إن كنت صائمًا شهرًا بعد شهر رمضان، فصم المحرم؛ فإنه شهر الله، وفيه يوم تاب الله على قوم، ويتوب فيه على قوم آخرين"** [سنن الترمذى، كتاب الصوم، باب ما جاء فى صوم المحرم ٣/٧٣، حديث ٧٤١].

كانت قضية اختتام الرسالات بالإسلام ذات أثر فيما أشاعه بين الناس من تقدير الخير فى عمومه، وحرصه على إظهار التقدير والاحترام لعلامات الإيمان أيًّا ما كان زمانها ومكانها؛ سعيًا نحو توحيد العالم الراغب فى النجاة بالإيمان والخير.

وفى هذا الحديث تتكشف لنا أهمية هذه الروح الإيجابية نحو تقدير الأيام الإيمانية فى التاريخ، وهو درس بالغ الأهمية فيما ينبغى أن تكون عليه برامج التربية القومية؛ إذ بالاحتفال بمثل هذه الأيام يتربى الوجدان العام على تقدير الإقبال على الله تعالى وطاعته.

الحديث إجابة من النبى ﷺ عن سؤال رجل لم يعين فى جملة علىٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه لا فائدة من تعيينه، وهو منطق حاكم فى نصوص هذه اللغة، ساعة تعلن أنه لا تعيين مع ما كان فى تعيينه عدم نفع. كان الرجل يسأل عن شهر، بطلب خيره؛ ليحصله بصومه، فجاء الحديث بادئًا بجملة شرطية، أرست أدبًا من آداب الفتوى؛ إذ أعاد النبى ﷺ مراد السائل؛ ليطمئنه على أنه فهم سؤاله، ويجيب عنه لا عن غيره. وهو سر جملة: إن كنت صائمًا شهرًا والاستعداد لإجابته، وفى شهر الثانية نوع تمثل للكتاب العزيز، الذى عبر عن شهر رمضان بهذا التعبير، عندما قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وجاءت جملة جواب الشرط مقترنة بالفاء؛ لافتتاحها بفعل طلبى، هو: صم، وهو فعل أمر خرج إلى الندب والاستحسان والنصح، بدليل السياق الذى ورد فيه، واستعماله للخطاب مشعر بالإقبال على السائل، وهو خلق دعوى راق، يرسى دعائمه

رسول الله ﷺ؛ طلبًا لألفة القلوب، ثم عين الشهر بذكر اسمه الشائع بين الناس؛ إذ استعمال العلم غرضه التعيين. ثم يشفع النبى ﷺ تعيينه المحرم بما يعين على صيامه، وعمل الخير فيه، ترغيبًا وتحبيبًا، فذكر مناقبه على سبيل التعليل لهذا التعيين، فقال إنه شهر الله، مؤكدًا ومستعملًا الخبر: شهر الله فى صورة تركيب إضافى، وقد استقر أن المضاف ينزل على رتبة المضاف إليه ومنزلته؛ إذ المتضايفان كالكلمة الواحدة، وبهذه الإضافة أعلن الحديث عن فضل سابغ لهذا الشهر الكريم؛ بسبب من إضافة إلى ذى الجلال سبحانه، ثم ثنى فذكر منقبة أخرى له، امتثلت فى أن الله من فيه على موسى – عليه السلام – ومن آمن معه، فنجاهم من بطش فرعون وظلمه، ثم زاد فغفر لهؤلاء المؤمنين، ولأن المظنون هو بيان مناط تكريم الشهر، وتقديم ما يشع به، وهو سر تقديم: وفيه يوم، ثم استعمل الفصل مسندًا إلى فاعله سبحانه؛ بثًّا للبشرى فى نفوس السامعين، جاء ماضيًا؛ لتوكيده، واستعمل فيه كذلك الفعل المضارع: يتوب؛ لدعم الترغيب، ببيان بقاء الفضل فيه قائمًا مستمرًّا، وهو ما يعنى التلميح بأن الله تعالى سيحقق للأمة المسلمة نجاة، مثل التى تحققت لقوم موسى – عليه السلام – وفيه ترغيب ودفع للطاعة والإتباع، وقدم الفعل يتوب، وأخر متعلقه: فيه؛ لأن المناط فيها للترغيب، بعد أن فرغ من بيان مناقب الشهر، وجاءت آخرين نعتًا لقوم؛ زيادة فى التبيين أن الفضل باق يلحق آخرين غير الذين تحقق لهم فى الزمان القديم.

فى الحديث كناية موسعة عن فضل المحرم، وتعظيمه بالطاعة، وكناية عن فضل الصوم فيه تعيينًا، وفيه دليل على اتساق المعرفة الإسلامية؛ إذ المحرم أفضل الشهور بعد استقرار فضل شهر رمضان، وفيه تعليق الكلام، بإعادته؛ طمأنة لمقام المستفتى بتفهم سؤاله.

وفى الحديث تنويعات بديعية، تعين على تحصيل المراد من باب جمالى، ففيه جناس بين: صائمًا / وصم، وبين: تاب / ويتوب، وفيه إيثار للأصوات الطويلة؛ تحقيقًا لنوع هدوء يعين على تحصيل المطلوب.

وفى الحديث حفاوة بالذكر لأغراض ظاهرة: أبرزها تحقيق التعيين فى مقام تشريعى، وتحقيق تلذذ؛ بسبب أنواع المذكورات، فقد تكرر ذكر الله تعالى؛ تلذذًا وترقية لما جاء من أعمال وأقوال. وذكر رمضان والمحرم بالتعيين لتحصيل المطلوب، وتلذذًا بذكرهما؛ لفضلهما وانتشار مناقبهما.

وفى الحديث نوع حفاوة بالوصل المحقق بالفاء (مرتين) ثم بالواو (مرتين)؛ ليدل على أن القضية واحدة، وإن تعددت جمل بيانها.

وفيه حسن تقسيم يعين على جذب المتلقين للاستماع إليه.

الزمان نعمة كبرى، وهو جسر الخلق إلى الآخرة، ولذلك احتفت السنة المطهرة ببيان الأيام المفضلة؛ إعانة على تحصيل ما يسكنها من فضل؛ لتيسير الوصول إليه تعالى.

وفى الحديث إشارات دعوية ظاهرة، من مثل:

أولًا: ضرورة عناية الدعاة بإشعار المدعوين بأنهم يجيبونهم عن أسئلتهم التى سألوها، بإعادة السؤال وطمأنتهم بأنهم فهموا عنهم، وهو سر إعادة النبى ﷺ ما فهمه من سؤال الرجل الذى سأله.

ثانيًا: ضرورة الحرص على تكامل المعرفة الإسلامية، وبيان المعلومات، والربط بين ما يعيه المدعوون والحديث الذى يقال لهم؛ طردًا لأجواء التناقض أو الإرباك لهم.

ثالثًا: الحرص على أبواب الترغيب والتحسين؛ حملًا للجماهير على العمل والطاعة؛ إذ النفوس مجبولة على حب الإحسان.

وفى الحديث كذلك إشارات لمعانى حضارية، من مثل:

أولًا: الحديث يلح على أهمية التاريخ فى بناء وعى الأمة، وهو الأمر الذى ينبغى أن يذيع فى حياة الأمة المعاصرة: وفيه يوم تاب الله على قوم.

ثانيًا: الحديث يلمح إلى أهمية التكامل المعرفى، ووصل العلوم بعضها ببعض؛ سعيًا لاستقامة العقول.

ثالثًا: الحديث يلح على مبدأ جامع ومقصد كلى، يتمثل فى التأكيد على أهمية الأمان، وامتداد مظلته، وهو المغزى من وراء الأشهر الحرم؛ إذ هذا التأمين طريق لبناء الحضارة وتأسيسها؛ لأن به حفظ الإنسانية، التى لا حضارة بغير تأمين لمادة إنجازها المركزية، المتمثلة فى الإنسان الآمن.

* * *

شخصية الأمة متمايزة

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: **"صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا فيه اليهود، صوموا قبله يومًا وبعده يومًا"** [صحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٩٠، حديث ٢٠٩٥].

إن الأدلة على طلب تمايز شخصية الأمة الإسلامية كثيرة جدًّا، تلمسها فى النصوص، وتجدها فى تعليل كثير من الأحكام التعبدية، والتمايز ليس استعلاء على الخلق، وإنما هو هوية لازمة، تختط لأصحابها طريقًا خاصًّا، تجعلهم قدوة للإنسانية، وتصيرهم أهلًا لتنفيذ مراد الله تعالى على الأرض.

وهذا حديث صريح فى طلب التمايز لهذه الأمة الخاتمة، والدلالة على المخالفة لليهود تتحقق بالزيادة على ما كانوا يأتون من خير فى مواسم مشهودة، وهو الأمر الذى يفتح الباب أمام معنى جديد للتمايز، مناط الترقى الأخلاقى، الناتج عن الترقى فى العبادة، والإقبال على الله سبحانه.

والحديث يتذرع بالوسائل البلاغية سعيًا إلى غايته، فيبدأ بجملة إنشائية طلبية، تتلوها جملتان من جنسها، خرجت الأولى من الأمر إلى الندب والاستحسان والنصح، بالدلالة على نوع خير محبوب، وأسند الفعل إلى الواو الجمعية؛ فتحًا لباب المقصودين بالأمر على الزمان كله، ويوم عاشوراء وهو اليوم التاسع من المحرم، كناية ظاهرة عن يوم تفضل الله سبحانه فيه، فنجى عبده موسى عليه السلام، ومن آمن معه، واتبعه من بطش، رمز من رموز الطغيان والفجور، ألا وهو فرعون الخروج! أو تفضل فيه فنجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

وفى الجملة كلها كناية عن تقدير الخير الذى جاءت به الأمم السابقة؛ مما يعنى تواتر صدق الإخبار عن أخوة الأنبياء جميعًا.

ثم وصل الحديث بين جملته الأولى والثانية بحرف العطف بالواو؛ إشعارًا باتصالهما وقيامهما بأمر واحد، لا يتم معناه بغير وصلهما ببعض، أى صوموا يوم عاشوراء صيامًا

تخالفون فيه صيام اليهود له، ودليل الوصل ليس استعمال الواو فحسب، وإنما فى استعمال الضمير "الهاء"، المتصل بحرف الجر الدال على الظرفية: فيه.

ومخالفة اليهود أمر مقصود مستقل حاكم، تتلمس الطرق لإظهاره، ولو فى مقامات التعبد وفعل الخيرات، بالزيادة عليهم ومجانبة أوقاتهم بمخالفتها. ثم فصل الجملة الثالثة؛ لأنها قامت مقام التفسير للثانية، كأنما جاءت إجابة عن سؤال مستبطن، يقول: كيف نخالف اليهود؟، فتأتى الإجابة: صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده، و" أو" فى الحديث محتملة للتخيير، وهو ظاهر أمرها، ومحتملة لمطلق الجمع، بدليل نصوص أخرى، ترشح لصيام ثلاثة الأيام، يتوسطها اليوم التاسع، وهو عاشوراء، وحمله على التخيير أولى.

وفى تسمية اليوم باسم عاشوراء دلالتان محتملتان، أرجحهما أنه اليوم التاسع، وتكون تسميته مجازًا لقرب اليوم العاشر من التاسع، فاستعيرت عاشوراء لتسمية اليوم التاسع على عادة العرب تفاؤلًا ببلوغ خيره. ودونه فى الرجحان أنه اليوم العاشر على ظاهر التسمية، وما يحيط به من نصوص أخرى، ترجح كونه التاسع من المحرم هو المجاز حاكم فى تسميات الظواهر فى الثقافة العربية، تحكم العلم الإنسانى وغير الإنسانى.

الحديث كله بجمله الثلاثة الإنشائية الطلبية، غرضه بإرشاد المسلمين إلى فعل الخير، وفيه كناية كله عن الفرح بنجاة موسى وقومه، أو نوح ومن معه من المؤمنين، كناية عن الفرح بنجاة كل المؤمنين فى أى زمان.

والحديث حفى بالذكر، وقد قام الذكر بوظائف بلاغية ظاهرة، فذكر يوم عاشوراء لازم لتعيين العبادة ولتشريفه، والاعتزاز به؛ إذ فى الأيام شرف كالذى فى الناس، وذكر اليهود مقصود للتمايز عنهم، وهم المخاطبون من المسلمين فى جيل الدعوة الأول، وللتمايز عنهم، ومنهم العدو على امتداد الزمان، وهذا الذكر رجح كون اليوم المحتفل به هو يوم نجاة موسى وقومه، لا يوم نجاة نوح ومن ركب معه فى السفينة!

وفى الحديث ظواهر ببديعية أسهمت فى دعم قضية الحديث، فتكرر الأمر بالفعل: صوموا / مرتين، وفيه تجانس وتوازن فى طول الجمل، وفيها إيثار لحروف المد؛ لخلق نوع من الوضوح النطقى، وفيه ما يعرف بالسهولة البديعية، التى تحقق نوع عذوبة سمعية من

جانب، ونوع إعانة على إتيان التكليف؛ لتؤسسه على التفهيم والمبالغة فى الوضوح، وكلها خصائص تتناسب مع طبيعة نصوص التشريع وخطاب الجماهير.

إن هذا الحديث يقر درسًا بالغًا فى تربية الوجدان القومى، عن طريق الدعوة إلى استثمار الاحتفال بأيام نجت فيه أجداد الأمة، الذين آمنوا وارتبطوا بكلمة الحق، وتعلقوا بها. والأمة مدعوة اليوم أن تكون أيام احتفالاتها من جنس ما أقره النبى ﷺ؛ ليستقر فى وجدان أبناء الأمة أن الفرح بنجاة المؤمنين وانتصار كلمة الحق على الزمان، هو أول درس فى دروس التربية الوطنية.

وفى الحديث بعض أبعاد دعوية، من مثل:

أولًا: ضرورة الحرص على الوضوح فى الخطاب الدعوى، والحرص على التفسير لما قد يمثل مجال خلط أو ارتباك للجماهير.

ثانيًا: ضرورة العناية بالمقاصد التربوية للعبادات المختلفة، والحرص على بيان ما ينفع الناس، وإرشادهم إلى الفقه العملى؛ تهذيبًا وتزكية لنفوسهم.

ثالثًا: ضرورة تحصيل العلم بالتاريخ، وربط واقع الناس به، ودعم ما يمر بهم بماضيهم.

وفى الحديث بعض أبعاد حضارية، من مثل:

أولًا: بيان وحدة تاريخ الأمة، واتصاله، وارتباطه بكلمة التوحيد، وإسلام الوجه لله تعالى، حيث إن المؤمنين مع نوح أو مع موسى جزء من الأمة المسلمة بهذا المعنى.

ثانيًا: التوسع فى استلهام مفهوم تمايز الشخصية المسلمة فى المجالات المختلفة؛ لتحكم الإعلام والتربية والتعليم وصناعة الفنون ... إلخ.

ثالثًا: التوسع فى دراسات قياس تأثير الصوم الإيجابى؛ إذ تكرر الأمر بالصيام فى سياقات متنوعة؛ مما يلفت النظر إلى أنه مسكون بأهمية تربوية وأخلاقية واجتماعية وطبية، تستحق التفتيش عنها، والبحث عن تفصيلاتها.

الهجرة أخت التوبة !

عن معاوية بن أبى سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: **"لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"** [سنن أبى داود وسنن الدارمى].

من الأصول المستقرة فى الإسلام رعايته لفتح أبواب الأمل فى حياة الناس، وهو الأصل الذى تجده معلنًا فى الدعوة إلى أن نادى فى الناس بالبشرى، ونهيه عن مقامات تنفير الناس، وتشديده من خطر اليأس والقنوط على مستقبل العمران.

وهذا الحديث فرع قوى من هذا الأصل المتجذر فى تربة التصور الإسلامى للوجود والحياة، يبذر الأمل، ويفتح للناس أبواب البشرى، ويرغبهم فى التحول الإيجابى، ويطارد فى نفوسهم شبح اليأس، ومخاطره.

وهو فى سبيل هذا الذى يؤسسه، يعتمد مجموعة من التقنيات البلاغية المتنوعة، الموزعة على علومها المختلفة:

الحديث يبدأ بجملة خبرية منفية، منفتحة على المستقبل، بلا قرائن زمنية تنال من هذا الانفتاح، والجملة مكونة من: "لا" النافية التى لا يحيط بها انقطاع؛ مما يجعلها دائمة غير منقطعة، ومن الفعل المضارع: تنقطع، الدال على التجدد والبقاء، وفيه دلالة هامشية محببة؛ إذ الثقافة العربية تنفر من الانقطاع وتتشاءم منه، فإذ بالنفى الدائم يظهر دلالة التفاؤل، وجاء استعمال الهجرة "بال" الجنسية؛ ليكون معناها شاملًا لكل ما يندرج تحتها مما تخلقه دلالة المعجم، ودلالة استعمال المعرفى والشرعى، فترك ديار الكفر إلى نور الإيمان باق غير منقطع، ثم جاء استعمال: حتى التى هى لانتهاء الغاية؛ ليقرر انفتاح أمر الهجرة وإمكانها، مثلها فى ذلك مثل التوبة التى لا تنقطع، ما بقيت فى الإنسان أنفاس تتردد، واستعمل الفعل نفسه موجبًا مضارعًا؛ ليحدث انسجامًا صوتيًّا داعمًا لقضية الحديث، وجامعًا لأذهان المستمعين.

التوبة اسم معرف بال العهدية؛ إذ فى سياق لغة الحديث ما دل على ذلك؛ إذ المقصود توبة الغرغرة، أو التوبة لحظة خروج الروح؛ بدليل نهاية الحديث: ولا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها.

وهذا هو ما دفع الحديث أن يردف كلمة التوبة الأولى بجملة مفسرة لها: وهى لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ إذ دفعت توهم حمل التوبة الأولى على مطلق معناها، وصرفها إلى معنى التوبة عند حضور الموت وخروج الروح.

وجاءت جملة الحديث الأخيرة موصولة بما قبلها؛ لأنها تتم معناها، وتدفع توهمًا قد يطرأ على معناها، يضر المتلقى، فنهضت لدفعها وقد تكونت كذلك من: لا النافية المنفتحة زمنيًّا؛ لتؤكد ما سبق من أختها التى تصور جملة الحديث الأولى.

وجاءت التوبة الثانية معرفة بال الجنسية العامة، فى كل أوبة إلى الله تعالى، وفى كل استغفار وندم وعودة إلى جنابه سبحانه. وجاءت جملة تطلع الشمس من مغربها لتدل على معنيين؛ عام يعنى استمرار الهجرة إلى يوم القيامة، وبقاءها ما بقى على الأرض حياة إنسانية، ومعنى خاص هو كناية عن نهاية عمر كل إنسان، أى أن الهجرة مرتبطة بتوبة الإنسان الباقية معه حتى قبل موته، ومرتبطة ببقاء الحياة على الأرض.

إن الحديث كله كناية عن اتساع الأمل، وبقائه فى الناس، ومطاردة الحى اليأس والقنوط والإحباط وبواعثه، وكناية عن رحمة الله سبحانه بخلقه؛ بدليل دعوته لهم لكى يهاجروا وينتقلوا إليه، ويدخلوا فى حماه.

وجاءت جملة: لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها طويلة، وقد حلت محل غيرها مما هو أقصر منها، من مثل: لا تنقطع التوبة حتى تغرب الشمس، زيادة فى التبيين ودفعًا لتوهم الغروب القريب الذى يكون مع مطلع كل ليلة، فكان الطول من أجل ذلك، وهو واحد من وظائف الإطناب الدلالية الفاشية فى نصوص الفصحاء والبلغاء.

وفى الحديث تسلسل طبيعى، وحسن ترتيب؛ يدل على بلاغة المتحدث ﷺ، وتقدير عقل المخاطبين من عموم المتلقين فى الجهة الأخرى.

وفى الحديث تكرار خالق لدعم القضية، وخالق للانسجام الإيقاعى فى: لا تنقطع / وتنقطع / ولا تنقطع، وهو نوع جناس تام، وثمة نوع جناس غير تام بين تنقطع / وتطلع، وفيه حسن تقسيم وتوازن، صنعه استواء أطراف كل جملة، فجملة الحديث الأولى: لا تنقطع الهجرة = لا تنقطع التوبة، وجملة: حتى تنقطع التوبة = حتى تطلع الشمس، وفى الحديث حفاوة بصوت العين ذى القمة الإسماعية المرتفعة لجهره؛ إذ وقع في أفعال الحديث جميعًا: تنقطع (ثلاث مرات) وتطلع (مرة واحدة).

وفى الحديث تماسك، صنعه تكرار كلمة التوبة مرتين فى جملتى الحديث الأساسيتين، وبناء الحديث عليها، بحيث تجلت قطب رحى يدور عليها، ولا تفهم قضيته بدونها.

وفى الحديث سهولة بديعية جاءته من بابين، هما:

١- وضوح مفرداته، وتحبيب دلالاتها؛ مما خلق عذوبة معنوية ومادية.

٢- عدم تعقيد فى السبك، وبناء التركيب على المثالية، القائمة على الحفاوة بذكر عناصر الإسناد جميعًا؛ إذ لا حذف يحيط بها.

وما يزال الإسلام يوسع للناس، بترغيبهم وتأميلهم فى استقبال الحياة، والتخلص من شؤم المعصية، وتجاوز تاريخ الهزائم والانكسارات.

وفى الحديث إشارات دعوية، يمكن استثمارها فى تنمية الوعى الدعوى المعاصر، نذكر منها:

أولًا: الحديث نموذج ينبه إلى أهمية البشارة فى الخطاب الدعوى، وتأثيرها الملهم فى تحريك الناس نحو الخير، وتحسين الحياة.

ثانيًا: الحديث مثال طيب فى رعاية الوضوح، والعذوبة، واستعمال اللغة المحببة المبشرة التى تصنع أجواء البشر والتفاؤل، التى تعين على مقاومة سلبيات الحياة وإحباطاتها.

ثالثًا: الحديث ينبه إلى ضرورة توسعة مسارات محاصرة الإحباط، وعدم انقطاعها، وعدم النيل منها بأى من طرق التقييد أو الاستثناء.

وفى الحديث إشارات حضارية يمكن استلهامها فى تجويد الحياة المادية المعاصرة، التى يلزمها أن تعود إلى حضن التصور الإسلامى، والسنة أصل فى بناء الحضارة، ومن هذه الإشارات.

أولًا: صناعة التفاؤل والبشر صناعة مهمة تلزم كل منجز مادى، وينبغى أن تترجم فى الإعلام والتشييد والبناء، والبيئة؛ إذ ثبت أن لنقاء البيئة أثرًا فى الصحة النفسية للإنسان.

ثانيا: ضرورة العناية بالمعجم المتفائل فى خطاب الجماهير سياسيًّا واجتماعيًّا؛ لتحفيزهم على الإنجاز، وهو ما رأيناه فى توظيف النفى من جانب، وفى توظيف الألفاظ ذات الدلالات المحببة إلى النفس فى الهجرة والتوبة مثلًا.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
معجزة خالدة	٩٣
إيذاء الخلق طريق لإحباط الأجر !	٩٦
العمران مشغلة الأنبياء !	١٠٠
كرامة المدينة !	١٠٤
الرعب الممنوع !	١٠٩
يوم الخلاص من أمارات فضل المدينة المنورة !	١١٣
النجاة من هول الساعة !	١١٧
الأمان العام للمدينة المنورة	١٢٠
فى عراقة الحرمة: هما سواء !	١٢٣
مدينة فى حراسة الملائكة !	١٢٧
أمان الحضارة !	١٣١
تجديد مفهوم الزمان	١٣٥
جامع فضل المدينة	١٣٩
فى بلاغة الميلاد الجديد .. قراءات فى التحليل البلاغى لأحاديث الحج والهجرة	١٤٣
التلبية طريق لتناغم الكون ! (إسلام العالم)	١٤٤
الحج الواعى	١٤٧
خير البر عاجله	١٥٠
الحج بداية جديدة	١٥٣
تجليات من أخلاق الرعاية للضعفاء	١٥٦
استبشار الروح !	١٥٩
الهجرة تأسيس جديد للحياة	١٦٣
الهجرة باقية !	١٦٧
عليكم بالهجرة !	١٧٠
المحرم شهر الله	١٧٣
شخصية الأمة متمايزة	١٧٧
الهجرة أخت التوبة !	١٨٠
فهرس الموضوعات	١٨٣

* * *